عبدالله الرحماني

بالأبيض والأسود

(زهرة البؤس)

رواية

دار بسمة للنشر والتوزيع

بالأبيض والأسود

اسم الكتاب: بالأبيض والأسود – زهرة البؤس
اسم الكاتب: عبد الله الرحماني
نوع العمل: رواية
الرقم الدولي EBIN: 16-1-400-260319
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2026م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
@ bassmabook
bassmabook@gmail.com
المملكة المغربية

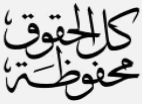

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأيّ صورة نشرَ أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيِّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

بالأبيض والأسود

رواية

عبد الله الرحماني

الإهـداء

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر

أما للـهوى عليك نـهي ولا أمـر

بلـى، أنا مشتاق، وعنـدي لـوعــة

ولكـنَّ مثلي لا يُـذاع لـه سـرُّ

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى

وأذللت دمعًا من خلائقهِ الكبر

أبو فراس الحمداني

" الطفل أب رجل "

س.فرويد

استهلال

ما زال إياد يستحضر - من ذات الشريط - عتمة المسار، تلك المشاهد التي لا تأتي كذكرى حياةٍ عابرةٍ فحسب، بل تأتي من عالمٍ مسحوقٍ تحت وطأة «الرَّحى»، رحى لا ترحم، تدور بفلقاتها الكلسيّة، تسحق كلَّ ما يعترضها، وتذرّ الريحُ بقاياه.. كأنَّ جمالَ الابتسامةِ على ثغر الفتى يُخفي مكرَ الأفاعي في ملمسها، ونظراتُه الحارقةُ تُشعل في العابرين فتنةَ الشجرةِ المحرَّمة، كأنَّ حوريّاتٍ خفيّةً تطفو على سطح المحيط بإشارةٍ من صولجانه.

على هامش رأسه اليابس ظلّت كلماتٌ تولد وتشيخ معه: "الأصيلُ أصيلٌ، مهما خاض الخلقُ في عرضه" هكذا يردّد، كمن يُرمِّم نفسه كلّما أوشكت على الانهيار، سفينته الحياتيّة صامدةٌ فوق صفحة البحر الهوجاء، تقودها إرادةٌ محضةٌ لا تعرف هوادة، نحو نهايةٍ محتّمة، نهايةٍ مكتوبةٍ منذ الأزل على صحفٍ لا مهرب منها، وكلّما تحدّث إلى ذاته، رأى نفسه بين يمينٍ تُسلِّم صحفًا بيضاء، ويسارٍ يُثقل بالرماد؛ وهذا الأخير ما يخشاه كلُّ إنسانٍ مؤمن، وما يُنكره كلُّ لسانٍ مشرك.

قصَّ من شاربه ذات صباح، وعيناه مسمَّرتان على انعكاسه في المرآة، لم يسأل نفسه: كيف وصلتُ إلى حيث وصلتُ؟ أيُّ مسيرٍ قادني إلى هنا دون أن تتهشّم أضلعي؟

لم يجرؤ على السؤال، وكأنّه يعلم أنّ الإجابة أعظمُ من طاقته.

ريشةُ قلمه تجري على الورق كما تجري عجلةُ عربةٍ فوق التراب؛ تلك تُخلِّف غبارًا في الهواء، وهذه تُنجب حكاياتٍ على البياض، حكاياتٌ تُنادي بأصواتٍ متباينة: منها ما يلمع كنجمٍ بعيد، ومنها ما يثقل كحجرٍ موضونٍ على الصدر، علاماتُ الترقيم عنده لم تكن فاصلةً بين جملٍ فحسب، بل إشاراتُ إنذار، أضواءٌ حمراء في عاصفة المشاعر، تُحذِّر القارئ من المنعطفات المباغتة.

كلُّ الرحلات تبدأ من نقطة: أرضيّة، بحريّة، أو جويّة، لها مطاراتها ومرافئها وحدودها، وحدها رحلتُه لم يكن لها بداية، ولا يرجو لها نهاية، يعرف أنّ الانطلاق خرافة، وأنّ الوصول وهم، كتب في مذكّراته بخطٍّ أنيق، كأنّه يوقّع وثيقةً خالدة:

«سأقتحم خلايا الزمن؛ لأخلّد حروفي وكلماتي، حتى لو بقيتُ أنا في الهامش.»

الفصل الأول

هزيم الرعد يمزّق سكون الليل كأنّه نذير من عالمٍ آخر، والبرق يشق ثغر السماء المكشرة في وجه القرية، المطر ينهمر بلا هوادة، يغسل الطرقات الطينية يحوّلها أنهارًا عابثة، الشتاء في القرى النائية لا يُشبه الفصول الأخرى، بل يُشبه قدَرًا أسودًا يهبط على الناس ليذكرهم أن لا خلاص لهم من دورة الطبيعة وقسوة القدر.

الريح تصفر من شقوق الأبواب المتهالكة، تدفعها.. تجذبها، تارة يعلو - الصفير - كأنه وحش أسطوري يجرّ مخالبه الشاهقة على الخشب المتآكل، وتارة يخفت كأنّه أنين أرض تحتضر، وفي الداخل، الطفل الصغير يتوسّد بين جدٍّ أثقله العمر فلم يبق له إلا الاستغفار، وجدّةٍ ترتجف أصابعها تربت على كتفه الصغير بحنان، أمامهم مدفأة قصديرية تلتهم جذوع اللوز والعرعار، تبثّ دفئًا هشًّا لا يصمد طويلًا أمام قسوة الليل.

ما بدا عاصفةً في الخارج لم يكن سوى صورة مكرّرة لعاصفة أكبر: عاصفة داخلية تسكن النفوس وتنهش القلوب، في كل قطرة مطر كانت تتساقط يسمع الساكنون صدى سؤال لم يجدوا له جوابًا:

هل نحن الذين نعبر هذا الشتاء، أم أنّ الشتاء الذي يعبر فينا؟

الوطن نفسه بدا شتاءً ممتدًّا بلا ربيع: الريح التي تقتلع الأشجار هي ذات الريح التي اقتلعت العدالة، والبرق الذي يلمع لحظةً في السماء ثم ينطفئ يشبه وعودًا كاذبة تتلألأ في أفواه الساسة قبل أن تتبخر في هواء برلمان عقيم، هنا في هذه الغرفة الصغيرة كان البرد مرئيًّا، ملموسًا، قابلًا لأن يُقاوم بحطبٍ ودموع، أمّا في الخارج، فالبرد أعمق: بردٌ في الروح، في القانون، في الذاكرة الجماعية.

هكذا بدت الليلة: السماء غاضبة، الإنسان خائف، والزمن نفسه مجرّد طاحونة عملاقة تطحن كل شيء، ولا تبالي إن كان الذي تحت الرحى طفلاً يرتجف أم وطنًا يتهاوى.

بعد أن انفتحت السماء وانسكبت وديانها، راحت السيول تنحدر من أعالي الجبال كنفوس جائعة، تقتلع الأشجار والحجارة، وتزحف على القرية كما يزحف جيش ظالم على مدينة عزلاء؛ لم يكن ما ينهار أمامها سوى أساسات بيوت هشة بُنيت منذ زمن بعيد، دون جدار يحميها ولا يدٍ عادلة تفكر في ساكنيها والبلاء عظيم؛ لأن الماء جارف بطبيعته.. ولأن الإنسان تُرك عاريًا أمامه، بلا سدود ولا جسور ولا من ينصت إلى شكواه، هناك حيث انهارت البيوت وغرق المتاع لم يكن الضحية فردًا بعينه، بل مجتمعًا بأسره سحقه فساد الساسة وإهمال المسؤول، حتى صار المطر امتحانًا، والوادي محكمةً قاسية تُصدر حكمها في كل شتاء.

يهدأ صخب الليلة الجارحة، فلا يسمع إلا صوت خرير الوديان وأنفاس إياد، أنفاس ناعمة تتردد بين جده وجدته وسط جدران الغرفة، وقد غرق في نومٍ مضطرب، يد الجدة تتلمسه بحنان ودفء، تتحسس جبينه، ثم تتوقف تنهض قليلًا، ترفع الغطاء ببطء، فتتأكد من شكوكها، لم يكن البرد هو السبب، ولا خطأ عابر من جسد صغير، بل هو الحلم... الحلم الذي تكرّر، تحوقل الجدة فيكمل الجد من جهته:

"العلي العظيم"

ويضيف ..

"أجرك عند الله"

كان يدعو زوجته بـ"المرأة"، وهي تناديه بـ"الرجل"، يناديان حفيدهما بـ"الولد".

همهم الولد بكلمات غير مسموعة، وربما غير مفهومة، بعد أن تسلل البرد إلى البلل، عيناه تحركتا خلف جفنين يحملان سؤالا فلسفيا قامت عليه أزمنة وأزمنة كأنهما تطاردان شبحا لا يراه غيرهما، اقتربت الجدة من فمه لفحت وجنتها المتجعدة أنفاسه الدافئة، فسمعته يتمتم:

«شفت أمي... وقلت لها أن تبقى، لكنها أدارت ظهرها ورحلت...»

ضمت جسده الصغير إلى صدرها، تحاشت النظر إلى زوجها:

"ستأتي في المرة القادمة، هي قالت أنها ستأتي... "

انحدرتا دمعتين دافئتين على خديها المجعدتين، شقتا طريقهما تتبعان أخدود خلدته السنوات، شدت الغطاء حوله حتى عاد الدفء إلى جسده الصغير؛ تشده شاردة الذهن كأنها تحاول أن تردّ عنه برد الغياب، وفراغ القلب الصغير الذي لم يفهم بعد سر الحياة وقساوة البشر.

كدت أكتب لك أيها القارئ الحبيب كما فعل الكثير من الكتاب "أشرقت شمس الصباح ترسل أشعتها الذهبية من فوق أحد جبال الريف المغربي..."لكنني تذكرت أنه في فصل الشتاء لا تشرق أشعة الشمس، بل تشرق شمس البؤس على هؤلاء البؤساء العزل الذين جردهم القدر من الدفء وألقى بهم بين أحضان الخلاء.. ربما أقولها في موضع آخر.

يذكرني هذا المشهد في الآية الكريمة {رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ} آمنت كل الإيمان بأن حضن الأم في هذه الآية الكريمة كان نصف الاستقرار، وكان الباقي من الاستقرار النفسي في قوله تعالى {رَّبَّنَآ}، تنتهي المأساة، تنفرج أسارير الحياة في

وجهك إذا رزقت أبًا صالحًا يقول في عز التيه والحيرة حبًا فيك 'يا رب'.

لم يكن البلل إلا دمعة نائمة سالت من روحٍ اختزلت الحزن فسال على الفراش مع كابوس متمرد، كان جسده الفتيّ دافئًا؛ لكن دفء الجسد لا يعني الطمأنينة، ولا نومُ المضطرب نومًا، حين تعشش الكوابيس في أركان الروح مثل غربانٍ تنعق فلا يمكن أن تسمع شدوًا، بل صدى نعيق يتردد بين جروح خلفها خراب في النفس.

تأملت الجدة وجه -الولد- الأبيض الحزين، وقالت في سرّها بأسى:

"ما أقسى أن يحمل الولد جرحًا لا يجد له اسمًا، ولا دواء... أن يغلف قلبه بالفقد كما يغلف حجر الواد بالفطر الأخضر."

ما كانا يجهلان أن غياب الأبوين هو غياب خرائطُ الأمان، وبهذا الغياب صار الفراش غيمةً مثقلة، والليلُ قنطرةً تمرّ منها الأشباح قصصًا وهواجس، الولد لا يملك اللغة ليشرح، فيحلم، يتبول، روحه تبحث عن وسيلة للبوح تلقي بهذه السموم خارج دائرة الحزن.

الجدة قالت وهي تلقي بخشبة في المدفأة مخاطبة الجد أو ربما تخاطب نفسها:

"من العام الأول يظهر مستقبل الولد "

وقفت بتثاقل تحمل خيبات السنين على كاهلها، واسترسلت:

"يبدو هذا الولد من سحناته البائسة، أنظر لجمال قسماته البائسة، وتذكر كيف سيتعب، هذا إن أطال الله في عمرنا، وأرجو أن لا أراه يتعب... "

طوّقته بذراعين هزيلتين، كما يُطوّق الغريقُ الخشبة، وهمست بنبرةٍ مرتجفة:

"نم، يا صغيري... ففي هذا البيت الكل يرحل، لكن حتى لو رحل الجميع لن يرحلا الجد والجدة فهما يحبانك."

مشهد قديم يحوم حولها بعد كل حين وحين، حين ودّعت حفيدها باكية كأنه أول حزن وآخر أمل، ولم تعرف أن الوداع كان دائمًا مكتوب فوق الغمام، وها هو الحفيد عاد إليها وحيدًا محملًا بحزن فارغ من الطفولة، وريثُ الغياب، يرقد بين يديها، الحياة تعيد دروسها في كرّاسٍ أصغر.

الجدة.. ترعى "إياد"وتسعى إلى توفير ما تشتهيه نفسه، رغم تقدمها في السن إلا أنها والجد يرعيانه كأنه من صلبهما، كانا يتأسفان لحاله رغم ترعرعه بينهما، لا يكفيهما ما يقدمانه له من حب وحنان وحسن تربية، يلمسان نقص خدمتهما له، دائمًا ما تقول الجدة للجد وهي تصارع مدامعها:

"آه! لو كانت أمه لما اضطررنا تكبد هذا العناء، إنه في حاجة ماسة لشخص أقوى لرعايته، أما نحن فهرمنا وما بيدنا حيلة ولا قوة..."

تسوء الأحوال وتزداد قسوة فصل الشتاء ليلة بعد ليلة، نباح الكلاب بعد منتصف الليل، خرير انهمار الوديان، صوت الباب الخشبي الخشن وصوت اشتعال الأعواد داخل المدفأة، يرتل الجد ما تيسر من الذكر الحكيم بصوت شبه مهموس، أما الجدة فلا يسمع منها إلا زفير وشهيق، مكان ما على سقف البيت تتسرب منه قطرات الماء تسمع طقطقتها المنتظمة طق.. طق.. طق لحسن الحظ جهز الجد النقطة الأساس في بناء بيته الحجري، مع أن الميلان متواجد إلا وتسرب بعض القطرات في مثل هذه الأجواء العصية لا بد منه.

يبلل إياد فراشه، فتدفّئ الجدة منديلها وتدثره إلى أن يعود إليه دفء يحتويه.

يشير 'سيجموند فرويد' إلى هذه الظاهرة، وينسب هذا الفعل اللاإرادي إلى عدة عوامل منها "الخوف من تفكك الأسرة وابتعاد الطفل عن أحد أبويه" و"قسوة الوالدين في تربية الأطفال" وهما عاملين من عدة عوامل تطرق لها في تحليل شخصية الطفل وظاهرة (التبول اللاإرادي)، أما هذين التحليلين فلا بد من تسطيرهما ها هنا لتعزيز هذه الفقرة وإظهار بعد تأثير العنف والترك على شخصية الطفل وهشاشتها.

ليـالٍ شـتوية بـاردة، تعـادل الليلـة الواحـدة تسـع ليـالٍ غيرها من الفصول، يعاني فيها الفقير أشد المعانـاة، يبيت طعما للسعات البرد، يتدفأ على الرماد، سقوف تقطـر طـق طق طق، طقطقات مزعجـة، أبـواب خشـبية مهترئـة تهتـز اهتزازًا، بطون فارغة، عقول شاردة، أجساد ترتعش..

تطفئ الجدة القنديل بنفخة واحـدة، تـأوي إلـى الفـراش جنـب إيـاد؛ مـا زال يطـارد سـراب القنـديل ويلاحقـه فـي العتمة، تـارة تـروي لـه جدتـه خرافـة مـن تلـك المرويـات المتوارثة بين متشعبات القبائـل الأمازيغيـة، وتـارةً أخـرى يقصص عليه جده من سير السلف الصالح، وغالبًا ما ينفـر الجد ويبدي استياءه من هذه المستحاثات الخرافيـة الفارغـة - كما يقول - والتي ترويها الجدة لــ "إيـاد"، فينهرهـا الجـد قائلًا بنبرته الصـارمة:

"ما هذه إلا خرافـات فارغـة، لا تسـمن ولا تغنـي مـن جوع..."

هل تؤثر الرواية الشفوية في بناء شخصية الطفل؟

أن تُوقظكَ نسمةُ الفجر البارد لا من زيقِ منبّهٍ، بل من رجفةِ صوتٍ قادمٍ من عمقِ الحجـر، تراتيـل الآذان تنسـاب من حنجرةٍ بشريةٍ تكبيرات وتهليلات، لا مكبّرَ صوت فيها ولا طنين آلة؛ نداءٌ صافٍ إلى العالمين، كل تكبيرة وتهليلـة تحسها نقية تضاهي بنقائها صفاء الندى قبـل أن ترفـع إلـى مسامع ساكنة القرية، تُجري اتصـالًا روحيًـا يـدفئ أرواحًـا

تـرتعش وسـط الحـائط المنزلـيّ العتيـق، فترتـدّ رخيّـةً، خاشعةً، ما أدراني أن الحجر نفسَه قد أستسلم!

وتسـمع الكـلاب هـي الأخـرى رفـع الآذان، تلـك التـي تبيتُ قـرب السّـقيفة؛ فتنتصـب آذانهـا وتعلـو أعناقُهـا نحـو السماء، ثم تبدأ بـالعواء.. لا نبـاحَ فيهـا، بالمحاكـاة الخشـنة لنداءٍ لا يفهم، ومع ذلك يجلّه الجد ويقول "سبحان الله كـأن (ماكس) نفسه يؤذن"، فكرة الكلاب، في جهلها، تحـاول أن تُسبّح مع الآذان أو تعلن خشوعها على طريقتها!

يدعو الجد لحنجـرة المـؤذن وينادونـه بالفقيـه، بعـد مـا ينتهي تردد صدى الآذان بين التلال المجاورة، يقـول الجـد الذي تتلمذ على يد شيوخ القبيلة، واصف فعل المؤذن:

"يصعد الفقيه عند كل آذان إلى أعلى نقطة فوق سـطح المسـجد؛ ليرفـع الآذان واضـعا يـده اليمنـى علـى أذنـه والأخرى قرب فاه؛ لتصل تكبيراتـه فـي صـداها إلـى أبعـد نقطة، تارةً يوجه وجهه شرقًا وتـارةً أخـرى غربًـا.. وإلـى باقي الجهات "

بعد أن تخرج آخر ترنيمة ألوهية من حلقه تتـراء عـن بعد فوانيس تنير بنورها الخافت طاقات المنازل الحجريـة، تشق عتمة الظلام فتيلة الفانوس المنيرة، تتـراقص الزهـرة المشـتعلة مـع كـل حركـة، لسـان دخـان خافـت نـاتج عـن الاحتراق...

ينتهي الجد من الوضوء، يرفع سبابته إلى السماء جهة شروق الشمس، ويتمتم بكلمات شبه مهموسة، يتجه إلى ركن من أركان الغرفة الخاص بالصلاة، ما أن تطأ قدماه على السجاد البني القاتم حتى يكبر، كان السجاد هدية من أخته الحاجة رحمة وينادونها بـ (رحموش).

يرتل على مسامع حفيده - الذي استفاق قبل قليل على حشرجة الحركة، وصياح الديكة - آيات قرآنية، يحفظ "إياد" الفاتحة لكثرة ما تليت على مسامعه بصوت جده العذب، بعد أن تنتهي إلى مسامعه الآيات القرآنية يشعر بالهدوء والسكينة والطمأنينة، يكون كله أذن صاغية للآيات الأخيرة من سورة البقرة: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...} سورة البقرة، الآية 284

طقطقة الخشب يحترق في جوف المدفأة، زخات مطرية ترتطم بواجهة الباب، دعوات الجد التي تملأ فاه، الهلع البادي على وجه الجدة، تقول مخاطبة الجد بوجه غزته السنون، وخلفت عليه حفنة من التجاعيد...

«حاظرة الأبقار يعلم الله حالها الآن، هلا رافقتني لنلقي نظرة نتفقد حالها و (الوحوش)؟»

مد الجد يده إلى العصا التي يتكئ إليها، انتعل نعليه، اتكأ إلى عصاه وخطى خطوة نحو الباب دون أن ينبس ببنت شفة، الجدة التحفت إزارًا وهي تنتظره حتى يفتح الباب...

بدأ الليل بـالانجلاء، إثـر خـروج الجـد والجـدة سـرحا بنظريهمـا إلـى أفـق السـماء الصـافية إلا مـن غيـوم بعيـدة تحمل الودق بين أحضانها وأخرى فوقهمـا تقطـر، تتـراءى لهما ثلاث نجمـات أفقيـة، بينمـا علـى يمينهـا سـت نجمـات أخـرى ثلاثـة فـي اثنـين علـى شـكل مسـتطيل، فـي الجهـة الأخرى أقصى اليمين توجـد نجمـة متألقـة آخـر مـن تغلـب عليها أشعة الشمس إن أشرقت في هذه الأيام...

دخل الجدّ، تسبقه خطاه الواسعة، كأنّه يسـابق الوقـت، وخلفه زفرت الجدّة تتبع أثره بخطى حـذرة تمسـح بطـرف ثوبها آخر قطرات المطر على جبينها، تركا الحظيرة علـى حالها... ساكنة دافئة، جلس الجـدّ علـى كرسـي مـن صـنع يده، إلى مجرى ماء يسمونه (المطهـرة)، أخـذ بيـده إبريقـه الأبـيض أفـرغ فيـه كـوب مـاء حركـه واضـعًا كفـه علـى غطاءه، أعاد الكرة ثلاثًا، بعد تحريكه يفرغه فـي المجـرى الذي يلقي بالماء عبر ساقية إلى حفرة مغطاة بإتقان.

يُعدّ قهوته الصباحية في إبريقه الأبيض الطويل.. ذلـك الإبريق الذي عرف طعم النـار كمـا عـرف طعـم الصـبر، صوته وهـو يصـب المـاء بـدا كأنّـه يُـوقظ ذاكـرة الأرض، ورائحة البنّ حين اختلطـت بـالهواء البـارد سـرت كترتيـل قديمٍ حرفت كلماته، وبقي أثره، تتحرك أنامـل الجـد برتابـةٍ مدروسة، كأنّ القهوة ليست شرابًا، بـل شـعيرةٌ مـن شـعائر البقاء، حركاته كان لها وزنُهـا، ومعناهـا يتجـاوز الحاجـة، حين يدير الملعقة فـي جـوف الإبريـق تحسـبه يُعيـد ترتيـب

الفوضى التي تسرّبت إلى هذا العالم، الجدة خلفه لا تتكلم فهي تعرف أن لا وقت للكلام في حضرة القهوة.

لحظة لا يُقاطعها إلا الريح وهي تزفر مضغوطة بين شقّي الباب الخشبي؛ لتُوقظ الغبار النائم على أطراف الزمان، لم يكن الجد يفكر بالقهوة بقدر ما كان يحتمي بها من لسعات الزمان؛ فالعمرُ حين يطول لا يعود الإنسان بحاجة إلى أشياء جديدة، بل إلى تكرارٍ دافئ... تكرارٍ يشعره بالأمان، كأن يحتويه الوطن، هو المعنى، وهو اللغة المشتركة بين العالمين، وفي صمت ذاك الصباح البارد وبين فوحان القهوة وزفير الريح هناك حوارٌ خفيّ بينه وبين الله، دعاء لذيذ خالص لله أن يرعى فيه الحفيد إن كان العمر لا يطول، دعاء الجد يشبه بخار القهوة حين يتصاعد يلامس السماء ثم يتلاشى دون أن يقول من أين جاء، ولا إلى أين ذهب.

لمّا ارتفعت رائحة القهوة كآيةٍ في هواء البيت، دخلت... عمة إياد أسماها الجد (زاينة) تمشي بنعالٍ خفيفة، تُحدث أصواتًا لا يسمعها إلا من عاش عمرًا وهو يقدّس الهدوء، نظرت إلى الجد شزرًا، قالت، وهي تغلق الباب بعشوائية:

«لماذا لم تضع المقراج على المدفأة القصديرية، كما كنت تفعل؟ أنسيته ثانية... هه؟»

لم يكن سؤالًا.. بل جملةً تحمل بين حروفها عقوقًا وجسارة تأنف منها الحرّة، لا يهتم الجد بالإجابة على هذه

الجسارة التي لم يقل بها أحد، بنصف ابتسامةٍ هادئة أشار إلى المقراج وإلى جرة الماء.

دخلت العمة الثانية بوجه أعبس وأغبر، تركت الباب مواربًا، تحمل على وجهها خمول السّنة، جسدها المرتخي ينبئ بكسلها، وقفتا معًا شابتان في عمر الزهور، لكن في أرواحهما غبارُ القرى، وضجيج المطاحن، هذا البيت.. بحيطانه الحجرية وقهوته الصامتة يخبرهما بأن لا حضن سيحتويهما غير هذه الحيطان الباردة، لم يكن المشهد عاديًا، ولم يكن كذلك مشهدًا عابرًا، بل تكرر في حضور إياد أعوامًا وأعوامًا.

كأن لقاء الزمن الجديد بالزمن القديم لا خصامَ فيه لكن فيه سؤال كبير!

من يعتذر للآخر؟ التقاليد التي لم تنتبه إلى تغيّر الجيل؟ أم الجيل الذي مرّ من جوار الحكمة، ولم ينحنِ ليغترف منها غرفة بيده؟

من هنا بدأ إياد مسار دربه المعتم تجاه مستقبل مجهول، سار مع التيار إلى حيث يقوده دون أدنى مقاومة، أتراه كان ليقاوم التيار لو كان يقوى على ذلك؟

أم كان سيخضع لعبوس الأجواء وخمولها كما هي عليها ملامح عماته؟

باغتته سرعة السنون، إذ تمر به مر السحاب ككل الأطفال الذين ترعرعوا بين أزقة القرية، شبّ إياد ونشأ

في كنف أجداده وبين غلظة عماته وفضاضة الوالد الذي يغيب شهرًا ويظهر أسبوعًا، وغياب الوالدة الطويل وربما الأبدي، جرت به الأيام العجاف التي تراكمت مخلفة على ذاكرته خيبات وطعنات.. وآهات.. ألقت به بين حيطان أول مؤسسة تعليمية!! لم يسبق لأحد أن أحدث له عنها ذكرًا عن المدرسة، كما لم يسبق أن علم بوجود شيء اسمه المدرسة، مع ذلك امتثل لأمر الوالد الفظ...

طفولة منكوحة لا نقاش، طفولة مغتصبة بقضيب الأهوال والمعاناة، الخضوع للطلبات: طلبات العمات، طلب الوالد، الامتثال للأوامر... داخل الحرم المدرسي، إياد طالب جديد.. حائر.. مذعور.. وجوه جديدة أوامر جديدة، أمروه بمعية مجموعة من الأطفال.. ليسوا مثله تمامًا.. كانوا على دراية بموضوع المدرسة"، أقبل رجل في زيه الغريب على إياد ولون بشرته السوداء عيناه الواسعتان مع جبهته العريضة وشفتاه شبه زرقوان:

"هيا كل منكم إلى قسمه.. هيا.. هيا... "

وقف مذعورًا هناك قرب شجرة الزيتون وسط الساحة متسائلًا: "ما هذا" القسم "لم أفهم.." وقف قرب شجرة الزيتون دقائق دخل كل الأطفال إلى قسمه.. إذا بشخص يلبس وزرةً بيضاء يقترب منه شيئًا فشيئًا..

"أهلًا ولدي، لماذا لم تدخل بعد؟

هيا لنلتحق بالقسم..."

امتثل إياد لإشارة الأستاذ والذي يجهل دوره في المدرسة التعليمية ويجهل دورها وقتذاك، دخل الباب ألقى نظرة داخل القسم، كانت الحجرة مكتظة.. لم يسبق له أن حشر داخل هذا العدد من الوجوه والأصوات... تذكر على حين غرة أن هذا المكان يشبه مكانًا ما! نعم، إنه يشبه "المسيد" تمامًا... إلا أن هذا المكان يختلف عن الآخر بالكراسي أما المسيد فما فيه إلا حصير وألواح... اختار له الأستاذ مكانًا وسط زملائه، سأل كل منهم عن اسمه.. لاحظ إياد أن معظمهم لا يجيد الإفصاح عن اسمه الكامل، بدأ يشعر بشيء من الطمأنينة، تتسرب إلى روحه كنسمة هواء عليل.

كان سؤالًا مفاجئًا لإياد، حين طرح الأستاذ سؤالًا:

«من منكم يا أطفال يعرف كيف يكتب اسمه أو يحفظ سورة من القرآن الكريم؟»

نظر إياد يمنة ويسرة منتظرًا.. لعل أحد الأولاد يكسر حجر الصمت... لم يلبث إلا أن توجهت نحو الأستاذ رفيقة جميلة ظفيرة شعرها العسلي وزرتها البيضاء وابتسامتها الدافئة في وجه الأستاذ، ثم شرعت في إلقاء سورة الفيل دون إذن مسبق، أوقفها صاحب الوزرة البيضاء قائلًا:

«تمهلي بنيتي، هون.. هون علينا يا صغيرتي، هلا أخبرتنا اسمك؟»

خبأت وجهها الخجول بأناملها الرقيقة، عضت على شفتها السفلى.. ثم قالت...

«اسمي دنى... أنا أحفظ سور من القرآن، لكنني لا أكتب إسمي»

سمح لها بإلقاء ما تحفظ.. بعدها قال بصوته الشجي:

«حسنًا جدًا يا دنى.. هيا صفقوا لها»

إياد بدا متوترًا من التصفيق بالرغم من ذلك تخطى أصدقاءه إلى واجهة القسم، لكنه لم يحر نفسًا.. قال له الأستاذ وهو يمسد على شعره الحريري:

«وأنت أيضا تحفظ سورة من القرآن... هلا أخبرتنا باسمك ثانية؟»

نظر إياد إلى رفقائه ثم خفض نظره وقال ببراءة كل الأولاد:

"أنا.. أنا إياد، أحفظ حزبين.. وأكتب... أكتب الحزبين كاملين..."

صفق له الجميع.. صفقوا له دون إذن الأستاذ، براءة الأطفال.. أثنى عليه الأستاذ، ثم طلب منه كتابة اسمه الكامل وسورة الكافرون، كان اختيارًا صعبًا من الأستاذ، لكنه سهلًا على إياد، امتثل إياد لأمر الرجل ذو الوزرة البيضاء، انتهى الوقت.. هم الكل بالخروج.

كانت تلك بداية لحياة مدرسية جديدة على إياد الذي حسم الأمر في يوم واحد، حيث استدرج فيه عطف وأنظار أستاذه، كان الجد الكهل هو أداة تعليمية تحفيزية تخطى من خلالها إياد سنة من التعليم، وُضع على درج سلم التميز الأخلاقي وخطف أنظار الكل بفطنته وكياسته.

دخل إياد في بداية الموسم المدرسة، لا يعرف إن كان يدخل عالمًا من أبوابه... أم يخرج من براءة الأسئلة.

لم تُكمل السنة دورتها كما لم تكمل الأفراح سطوعها في سماء الأقدار، ولم تتفتح في ذهنه فصولٌ من المعنى، حتى امتدت يد الوالد عن قسوة وقلقٍ مغطّى بالنية الطيبة، وعن مكر وخبث دفينين، بهذا المكر اجتث الوالد نواشر الاستقرار من معصم حياة إياد، وألقى به في واد غير ذي زرع ولا بيت محرم.

"لا أخفي عليك عزيزي القارئ اليوم بالذات وأنا أحاول إتمام هذا الفصل أنني أسير دهاليز نفسي، ها هنا حيث الظلام والوحدة القاتلة تتسع الهوة داخلي كدوامة بلا نهاية، يحوطني شعور بثقل الزمن والفراغ في توازن دقيق بين العقل والعاطفة؛ أكتب هذه القصة في محاولة مني لتفسير ظاهرة اجتماعية معقدة، كأنني أدرس نبض قاع المجتمع، كعالم يبحث عن الحقيقة في خبايا الظواهر الإنسانية وأنا لا أرق إلى درجة باحث بسيط حتى، كيف أكن عالمًا أو باحثًا وأنا أنصت إلى موسيقاي الحزينة في غرفة حقيرة، هذا أقل ما يمكن أن أطلق عليها بطفحات رمادية على السقف، هكذا أنا أجر أذيال الخذلان وراء تلك

الترددات الصوتية التي تهتز وفق قوانين الفيزياء النفسية، فتخلق موجات ارتجاجية داخل كياني؛ بقلمي الأسود الذي يسطر الكلمات كما تسطر الذرات تفاعلها في معادلة الكون الفسيح أرسم مشهدي الخاص، ومرات أرتشف رشفة من فنجان قهوتي المرة، كأنني أستنشق واقعي المرير وأذوب فيه، مستعيدًا طاقة التركيز والتأمل؛ لأغوص أعمق في أسئلة الوجود والإنسانية"

وجد إياد نفسه منفيًا إلى اللامكان، إلى هوية جديدة، وجوهٌ كثيرة كأنها قوالب من طينٍ مجفف، لا يعرف منها إلا ملامح الخوف.

"بعد انتقالي الاضطراري إلى بيت العمة 'عويشة'، لم أشعر بالغربة... لكنني اشتقت إلى روايات الجدة وقصص الجد التي لا تنضب، لم تكن مجرد مرويات بل كانت حضن أهرب إليه من ضيق العالم، كيف أخبركم أن السلطة في دار العمة لم تكن عصًا ولا قانونًا، بل كانت يد الوالد التي اقتلعتني من حضن جدتي وجدي، كان يظن أنه سيفلح في تجريد روحي من ذكراهما، أو يقتلعني من ذاكرتهما".

الاستقرار المعرفي للطفل يُبنى من التكرار، ومن الألفة، ومن الانتماء للمكان، لكن ماذا لو لم يكن الطفل ينتمي؟

خرج إياد صباحًا، لم تشرق الشمس بعد، تبعت خطاه العمة تحمل كسرة خبز ملفوفة بعناية في كيس بلاستيكي،

نادته بصوتها الجهوري، التفت إليها فأشارت لـه، حشـرت الكيس داخل محفظته ورافقته، كان الصمت سيد الصـباح، مشـت العمـة عويشـة رفقـة "المسـؤولية" إلـى أن وصـلا الوادي، هناك كسرت الصمت:

«أنا هنا إلى أن تصل..»

تنادي إياد الصغير بـ'أخي'، نظر إليهـا باسـم الطفولـة، واسم الرحلة الأولى بين متشعبات الحياة، نظر إليها نظـرة الفقد، أطال النظر إلى وجهها الجميل، ثم حث الخطـى إلـى أن صعد العقبة، كان للعقبة معنى آخـر، لـم يـع معنـاه إيـاد وقتئذ..

لوّحت العمة بيدها إشارة الوداع بعد أن استدار ونظـر إلى القاع حيث تقف واضعة يديها على خاصرتها، دام هذا المشهد ما دام إياد يخرج صباحًا شـاقًّا طريقـه إلـى حجـرة الدراسة، كان الفضاء المدرسي امتدادًا للمأساة، لا جـدران تحمـي الطفولـة، ولا أبـواب تغلـق تـوفر الأمـان بـل كانـت الحيوانـات تقـتحم الحـرم المدرسـي مثلمـا يقـتحم العنـفُ الرمزي مساحات الطفولة دون استئذان.

في الاسـتراحات، يهـرب الجميـع إلـى الطفولـة، يرتـع هذا هنا وتلك هناك فرادى وجماعات، إلا إياد يبقـى قابضًـا على يديه كمن يحتضن ضـياعه، يسـتند إلـى شـجرة اللـوز اليابسة؛ لأنها الوحيـدة التـي لا تؤذيـه، ولا أقصـد هنـا بـلا تؤذيه أنه يتعرض للعنف من رفاق القسم.. بل إنه يرى في وحدتها ويبسها ما يراه في نفسه.

إلى غياب طويل عن ركن الحنان وعدالة القدر، تم بناء دويلة بدهاء طفولي، تمثل السلطة الخفية واحدة من بنات العمة التي تمارس سلطة الذئب في الغابة، من هنا ترجرجت ثقة إياد في العدالة، وسطر أولى خساراته.. اكتسب بالفطرة أن العدالة تشترى، وأن الحب قناع يرتدى أمام الجهل المقدس انطلاقًا من عثرات الطفل نتساءل:

هل البيئة تُشكّل العقل؟

أم أن العقل يخلُق بيئتَه بين الجدران؟

يد تتسلل من الفراغ، في ليلة من ليالي الذاكرة المكسورة، تحول الجسد الصغير إلى مسرح تعرض فوقه مشاهد جريئة في غياب الأمان، يد تبحث ـ في جسد لم ينضج!

يد تمارس طقوسها على جسد لا يعرف بعد كيف يقول "لا"، لم يكن إياد يجهل ما يحدث، لكنه كان يعرف الثمن الاجتماعي للصراخ، ينسج خيوط الوعي بمهارات رزينة، بعيدًا عن طريق المدرسة وحجراتها، وبعيدا عن الكتب، نظر إلى حركات ابنتي العمة، أشاح عنهما وقال في قرارة نفسه:

"هكذا يصاغ الوعي على الهامش.." ربما قالها بأسلوب طفل.

ترفرف الأعلام، ترفع يافطات مكتوبة بحبر أحمر وبخط عريض.. 'لا للعنف ضد الطفولة' بكل لغات العالم، أما نحن الذين نعيش ها هنا في قرى نائية.. فنكتب عن الحرية بحبر صامت، وتلقمنا الحياة ثديها فلا نتجرع إلا المرارة، وندرس على مضض البؤس كمادة إلزامية في مناهج الحياة.

وسكنَ كلُّ شيء... إلّا فكر إياد، كان جالسًا على عتبة الباب، يحدّق في العمة عويشة وهي تسقي فدان من تلك التي قسمتها إلى فدادين صغيرة، هنا البقوليات وهناك الخضروات... كانت الشمس قد خبّأت جزءا منها للحظة، كأنها تستحي أن تبقى فوق هذه القرية النائية، ينظر إلى حركات العمة الفلاحة المتقنة لعملها، يتساءل;

ما الدافع وراء هذه الأفعال المشينة؟

رمزية الليل عند أدباء وشعراء وفنانين العالم نقطة إلهام ومجال الإبداع والتأمل، كما يؤمن المسلم أنه (سكن) إلا ها هنا بين حيطان العمة عويشة؛ فهو لم يكن للسكينة ولا لما سبق ذكره، بل وقتًا تتكاثف فيه مخالب الخوف، كما يتكاثف الغبار في أركان البيوت القديمة، كلما نفخت العمة على زهرة الفانوس المشتعلة، ينبئ الجسد بواسطة هرمون الكورتيزول عن الخطر الداهم..

تنزلق يد بنت العمة عويشة ـ التي لم تدرس في كتب التربية ـ إلى فراش إياد بعد أن تطمئن وتستيقن أن عويشة أمها نامت ويحمل إليها هدوء الليل شخيرها، تبدأ طقوسها المحرمة، يحاول إياد دفعها، لكن كيف يدافع طفل عن حدوده الجسدية في نظام لا يعترف له بالسيادة؟!

يقاوم إياد بصمته، لقد حدث أن قاومها بأعلى صوته فجاءت العمة تهرع إليه؛ فحكى لها قصة اليد التي تمتد إليه كلما أطفئ النور فما برحت أن قالت لا تخف يا أخي.. تلك أضغاث أحلام، ظن يومها أنه يخوض في دائرة مفرغة، وحدث، من يومها بدأ يخوض في دائرته المفرغة.

الأطفال هناك لا يُصدّقون، أو لنقل قد يرمى بإياد في براثن الشكوك، ويظن الوالد الغائب أنها ألاعيب فتأخذه المقرعة ويترك مدحورًا؛ لم يقاوم بعدها، جاءته علياء ليلة تحمل وسخ فكرها.

ظلّ إياد يتظاهر بالنوم، وقد استيقظ على وعيٍ باكر، وعى أن الجريمة لا تقع فقط خارج البيت، أيقن أن الجُناة لا يلبسون دائمًا السواد، وأن أكثر الجرائم صمتًا هي التي تُرتكب باسم القربى.

في بيت يجيد الصمت، مر الباقي من السنة بمرارة لياليها، لا تمضي الأيام... بل تُنتهَك، كل يوم في عمر إياد يحتمل بصمات جسدٍ ورائحة زمنٍ لم يُعطَ فيه وقتًا ليكون طفلًا، كبر بسرعة من لم يُمنح له الحقّ في أن يتباطأ.

في ساعة اشتد فيها حر الصيف، وجفت فيها برك الوديان، جلس الوالد على مقربة من الحرم المدرسي يترقب فيها خروج إياد، خرج المعلم خالد من باب الملحقة المدرسية، غاب عن الفصل بضع دقائق أخذ فيها التلاميذ قسطًا من الشغب، فإذا عاد مازحهم قائلًا: (العفاريت السود، أتدرون أن أصواتكم تسمع من عند الجامع!).

ثم أومأ لإياد، فإذا به ينصاع لأمر معلمه، دخل المعلم حجرة معيشته الحقيرة فإذا بالوالد جالس يمسك بالولاعة و"السبسي" يدخن بحرية، استقبله بابتسامته الخبيثة، قال المعلم أجلس فجلس فإذا به يخرج لحظة فعاد بأدوات إياد ومحفظته، قال المعلم مخاطبا الوالد:

"إياد! ولد خلوق "

الوالد يتابع كلام المعلم من بين سحابة الدخان، يتابع المعلم خالد:

"النتائج ستكون مشرفة، وإن شاء الله الولد فيه الخير والبركة "

يمسح المعلم خالد بيديه على شعر إياد الأملس، ويتابع كلامه الجميل، فإذا بالزمن يجري محتضنا ذكرى جميلة يحملها إياد بين جنبيه وفاء للمعلم خالد وشهادة السنة الأولى من مساره الدراسي، وحين أوشكت الشمس على المغيب، اشرأب عنق العمة عويشة باحثًا بين أشجار اللوز اليابسة لربما ظهر لها شبح إياد، نادت في هلع عن ابنتها

علياء، وكانت قريبة من أمها فإذا بالعمة تلبس رداء الخوف وتقول:

«لا يظهر له أثر، اااه! لو جاء المسخوط (الأب) ولاحظ غياب ابنه ما عساي أقول، وكيف أجيب؟»

انتظرتا قبالة الطريق حتى ارخى الليل سدوله وبدأت الخفافيش تتحرر، قطعت بنت من بنات العمة الأربعة وكان اسمها 'تاليا' - خوف أمها وشكوك أختها قائلة:

«لابد وأن خالي قد علم بنهاية العام»

لم تكمل جملتها، فطنت العمة، وبعد تحررها من قيود الخوف إلى ما أشارت إليه تاليا، قامت من جلستها ودخلت الدار شاردة الذهن، باتت العمة عويشة ساهدة ليلتئذ، فإذا ندي منادي الصبح إلى الصلاة قامت بتثاقل فصلت الصبح بذهن شارد وقلب مقبوض، دعت إلى الله التيسير.

دخلت بتثاقل حجرة بناتها فنادت 'تاليا'، كان القبو يدخل خيط نور ضئيل ينبئ بقدوم الصباح العليل، قامت تاليا تفرك الخمول، مشطت شعرها على ضي القبو الخافت، فإذا بعالية تقوم على صوت أمها لتظفر لتاليا ضفيرتها في تكاسل، خرجتا من الباب يغذيان السير على طول الساقية، فإذا بالعقبة أمامهما لا ترى لها نهاية.

أشرقت شمس الصباح بإجلال ترسل الحب على القرى، فتعانق خيوطها الذهبية القلوب، وتلامس جدران البيوت الطينية كيد حكيم تطهرها من لعنات الحياة، فإذا

أشرفت العمة عويشة وابنتها تاليا على مشارف القرية، سمعتا صياح الديكة ترتفع في الأفق كترتيل حافظ عليه الزمن، فعلمتا أن القرية دبت فيها الحياة ولا تخفَ على العمة عويشة رائحة الخبز الساخن التي تتسلل هاربة من النوافذ.

وفي قلب الأرض تنبض الحياة كأنها دعاء استُجيب؛ فاستجاب إياد لحركة الكون في حبور، دخل يجري بلا هوادة فإذا هو وجهًا لوجه مع عمته عويشة وابنتها تاليا الجميلة جالستين على مائدة الإفطار مع الجد والجدة.

الفصل الثاني

"على مدارج العابرين، جلست في مساء يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وكتبت..

خرجتُ أحمل قلمي الأسود بيد وفي اليد الأخرى مذكرتي السوداء، أجرُّ خطواتي كأني أوقظ سيرة الأحلام من سباتها العميق، نضح العرق على جبيني من ثقل الأفكار التي تتنازع في رأسي كما تتنازع الأمواج المتكسرة على الصخور الناتئة.

في كل خطوة أخطوها، أهرب من ألم وأعانق ألمًا، لا يفارقني هذا الشعور المدمر لكنه يتبدل؛ أحيانًا يشد عضلات معدتي وأحيانًا يرأف بي فيصيبني بالشقيقة، وأخرى يسكن كلماتي العالقة في الحلق، ككل ما لا يقال.

في العتمة، كنت أركض وأكتب في آنٍ واحد.. لا أكتب على الورق، بل أرسم في الهواء، في الذاكرة، في القلب، كل خطوةٍ يُولد سطرٌ أو مشهدٌ، وكل تنهيدة أضعها بإتقان كفاصلة بين جملة وجملة، تعلّمت في مدرسة الحياة كيف أواجه، ومن الألم كيف أتواضع، ومن القلم كيف أروي.

لم أكن أكتب لأزهو، بل لأنجو من زحمة الحياة المعدية؛ وكنت أدون لأجبر نفسي على فهم الحياة، فوجدت

أمامي بين المسارات شخصية "إياد" طفل في قرية منسية، ولد يبتسم وفي عينيه ألف سؤال.

لقد أرغمت القلم على نثر الحبر، لم أقصد التفاخر، بل لأشفى من ذاكرة أعياها الازدحام، الكلمة لا تأتي من الكتب وحدها، بل من الركض بين كثبان الحياة حافيًا.

كنت أقرأ الشعر وأشمُّ في كلماته رائحة المطر الجاف، وأسمع في صوت الشعراء عن وطن لم يعد له مكان على الخريطة، كثيرًا ما تسكعت في سرد كتابنا بين شوارع الحارة التي لم أرها، لكنها لامست قلبي، لهذا؛ أنا أكتب كما أركض... لا لأنتهي، بل لأظل حيًّا."

السنة التي انقطع فيها إياد عن الدراسة لم تكن مجرّد عامٍ إضافيٍ في دفاتر النسيان بين رفوف المكتبة المتواضعة، بل كانت شرخًا - أفسد جمالية المسيرة الصماء - بين جدار الزمن، انفتح الجرح على اتساعه ولم تفلح يد في ترميمه حتى بعد أن تغيرت الخرائط، في لحظة واحدة، ودون مقدمات تستعيدها الذاكرة قرر الأب أن يخطف الصبي ويُحلق به بين الجبال.

لا أحد سأل إياد عن رأيه، فكما قلت آنفًا: 'الكبار لا يسألون'، والفقراء لا يفاوضون، وهو لا يملك ما يُعرض على الطاولة.

أما المدينة الجديدة كانت غريبة أكثر من كونها مألوفة، لا لأنها بعيدة عن كهف الذكريات، بل لأن ملوحة

الجو ورطوبته تحملان معهما ما فُقد وما لا يُرجى هناك، خلف الأسوار المنهكة والمساكن المتفرقة، كانت الأم التي لم يرها منذ سنوات، تكدّ وتخدم في بيت والديها، تقتات على الصبر، وتدفع للحياة ضرائب الأمومة محملة بتعب التخلي وتتجمل بعبء الفقد.

سنوات لم تزرع بينهما إلا الغربة، عاد إلى حضنها كما يعود الغريب إلى اسمٍ قد نسي كيف يُنطق، بل عادت به الأقدار بعد أن جردته من الشعور إلى كتابة فصل جديد من حياة مستعملة.

وفي لحظةٍ متداخلة بين الغربة والذهول، وقف إياد أمامها كأنه يرى شبحًا:

أهذه هي أمي؟ هذه التي تُطيل النظر إلى وجهي وتخفي شيئًا غامضا بين جنبيها، وتقوله نظراتها؟ أهي ملامحي التي تغيّرت؟ أم أنها لم تعُد تعرف كيف تُحب؟ هذا إن كانت أحبتني يومًا!

نظر إياد إلى الوالدة تقف هناك قبالته، بين أبويها الكادحين، امرأة في منتصف الإنهاك، لا تجيد العناق ولا التبرير، لم تكن قاسية بل كانت صلدة، لكنها لم تعد تعرف كيف تكون أمًّا لإياد، فالسنوات أخذت منها لُغتها الأولى، والولد الذي أمامها ليس ذاك الرضيع الذي ودعته في يوم غابر لم تعد تذكر تفاصيله.

في المدينة الغريبة عاش إياد الشتات الداخلي لا جدته الحنون هنا، ولا عمته "عويشة" التي كانت توبّخه ثم تسقيه الحليب، ولا زاوية السطح التي كان يكتب فيها على الحجارة كلمات لا يفهمها إلا هو.

الطفولة حين تنقض لا تقام.. بل تنكمش وتتحوّل إلى هشيم منحوت على ذاكرة لا تموت.

لقد انتقل إياد من هامش إلى هامش، أكُتب عليه التيه في الأرض كبني إسرائيل؟ أم هكذا تسري أحكام الحياة من حضنٍ غائبٍ إلى حضنٍ بارد؟ لم يكن المكان وحده ما تغيّر، بل معنى الانتماء، وعى إياد صغيرًا أنه لا يملك مأوى حقيقيًا، لكنّه على الأقل كان يملك رائحة الجد، وصوت الجارة، وقبلات تاليا وعينيها الحلوتين الواسعتين، وظلّ الشجرة.

الآن، لم يعد يملك سوى نفسه.. ونفسه لم تكن تكفي، لم تكن بالنضج المطلوب؛ ففي هذه المدينة الغريبة انقطع عن المدرسة كما ينقطع الحلم حين يصحو النائم... الطفل الذي كان يحلّ المسائل بالحبر المكسور صار يحلّ ألغاز الحياة بصمتٍ مدقع، بعيدًا عن الجد وبعيدًا عن المعلم خالد، بعيدًا عن الدفاتر، وبعيدًا عن الحياة.

ليس الفقر وحده يحيد الطفل عن حلم التعليم.. بل هشاشة البناء العائلية، وغياب الأم ككيان نفسي - ثقافي، لا كجثة حاضرة باردة.

انقطاع إياد عن الدراسة لم يكن قرارًا فرديًا، بل نتاجًا لعلاقة معتلة بين العائلة وتصادمها بمرايا الواقع الهشة، فالطفل الذي لا يملك "مرجعًا وجوديًا" يُفسّر له ما يحدث أو بالأحرى يشعره بالانتماء الوجودي، يُصبح طريدة سهلة في سوق الحياة يباع فيها بثمن بخس، يمشي بلا وعيٍ بين الماشين، هكذا تصييره الحياة؛ كانت سنة واحدة مزدحمة.. لكن داخلها خُزّنت مشاهد بألوانها المتفاوتة.

ضاعت سبع سنوات كحفنات من الرماد اشتدت بأذيال الرياح، ضاع بين السنوات السبع كل الود، وكل الحب، باتت أسرة تفتقر إلى حبال السكينة والاستقرار، فإن ضاعت في العلاقة وصية الله، لم يبق فيها ما يحارب من أجله الأولاد وما بقي ما يتشبثون بأذياله الوهمية.

عاد إياد ووالدته من المدينة الغريبة، بعد محاولة صلح من ناس كرام، لم يرجعوا إلى دفءٍ منتظر بل إلى جوٍّ من الشد والرد، سنوات الفقد لم تكن كافية لتليّن قلب الوالد، ولا قلب الوالدة لين؛ كأن سنوات الانفصال لم تثمر بينهما عناقيد الشوق وفاكهة الندم، وكأن شيئًا لم يتغيّر سوى سنوات تطفلت على عمريهما.

ما فتئ الوالد أن أحيا عادة الصراخ، صراخٌ جاف كنباح كلب على رياح تداعب ذنبه المقعوص، لا يُريد من عادته إلا الردع؛ وعادت الأم إلى استخذائها تحت سلطة النباح، إلى بكاء لا يسمعه إلا من حولها، كما تبكي الأرواح حين تُحبَس خلف قضبان الصبر. أما إياد، فكان يتخبط بين عاصفتين شعوائيتين، لا هو إلى ذراعٍ تعانقه،

ولا إلى صدرٍ يأويه، عين ترى القسوة وعين ترى الضعف، طفلٌ تربّى بين المسافات، في الحيرة، في هشاشة المسافة بين نداء الأب وتنهدات الأم، هل سيتدارك إياد سنوات الفقد، ويحب هذه الأسرة كما يفعل غيره من الأطفال؟

سنتان مرّتا، كان الوقت يمشي بهما على استحياء، وقت داهمت فيه القسوة الأجواء وحطمت معنى الحياة، أصابت الجدة الحنون مصيبة أقعدتها الفراش.

إذا اقتحم الصيف العالم، واقتربت الأرض من شفير الجنون، عاشت القرية تحت شمس البؤس وآهات الأرض الأخيرة، جنون قاد الأهالي إلى حصاد المشروع والممنوع.

قبيل الزوال من يوم كانت الشمس تمارس سطوتها على الجدران والقلوب تغلي بصمت، وكما سبق عزيزي القارئ الوفي، في قرى نائية منفصلة عن العالم، لا تشارك إلا في بناء جدار العزلة وتوسيع الجهل بين السكان، هناك حيث الكبار "لا يسألون"، تجرأ إياد على إعمال العقل، وقال في حضرة الوالد رأيًا.

إياد الفتى الذي لا يُحسن تزيين عباراته، فيخرج كلامه كصخرٍ خشنٍ يثير ضيق النفوس.. لكنه كان أنيقًا كظلّ نخلة، شديد العناية بهندامه، يمشي وكأنه يعرف أن في حضرة الجمال شيء يُلفت، هكذا يقول الجد الحبيب" إن الله جميل يحب الجمال".

لفظ إياد صبره كما يُلفظ العفن من الجرح، بعد زوال اليوم المحموم، ونظر في وجه الأب نظرةً لا تخضع لميراث الطاعة، ولا ترضى بلغة القطيع المألوفة، وكسر قاعدة الأجيال "الكبار لا يسألون"، فكأن شيئًا فيه قد انكسر بصمت أو ربما اشتعل، من أين يأتي هذا التمرد؟ وهل يولد الإنسان ثائرًا أم تربيه القيود؟ وهل كل من كسر سياج الظلم مذنب؟ أم أن الذنب الحقيقي هو الجدار، وليس من قفز فوقه؟

كسر إياد عصى الطاعة، وقفز فوق جدار الخوف طالقًا رجليه للريح، ترك كل ما يتصل بالدار.. وكل ما يُشير إلى حرم الأجداد، كمن يخلع جلدًا لم يعد يتسع فيه، أطلق قدميه للريح، لا يعرف إلى أين، لكنه يعرف أنه لم يعد يحتمل البقاء، لم يتوقف راح بجسده النحيل يقفز هنا وهناك كما قفز فوق جدار الخوف.

جلس فوق رابية يستظل بظل شجرة العرعار، داعب شعره الحريري الهواء العليل، فإذا عادت إليه أنفاسه قام مثقل الخطى كأن رشاقة الصبى انقلبت إلى ثقل السنين، دق الباب.. كيف قاده القدر إلى عمته! تلك التي قطعت صلتها بالوالد، أو قطع والد إياد أواصل قرابته بها، اندهشت لمرآه، فما أن لمحت جسده النحيل حتى احتضنته دون سؤال.

دخل إياد وراء عمته سميحة، يحمل فوق كاهله النحيل تعب النفوس، لكنه رأى الهالات السوداء تحت عيني عمته فأيقن أنها ألاعيب الحياة تمارس سلطتها على هذا الجسد

الأربعيني، وأنها باتت ساهدة ليلتئذ من حمى أصابت وليدها أو مكروه أقعدها الفراش.

في دار العمة سميحة، إياد غائب عن الأنظار، غائب في العمق، منسيٌّ عن قصدٍ أو عن عجز، يسكن بيتًا تقطّعت بينه وبين والديه أواصل القرابة، يحسب انتسابه لتلك الجهة كما أنه سقط من شجرة النسب، وأن رابطة الدم قد تخثرت وفسدت بينهما؛ حين أودِع إياد في بيت عمّته، علم أنه لم يُستَقبل كـ"ابن أخ"، بل كفائضٍ عائليّ، نُقل من خانة الفوضى إلى خانة النظام، من بيت المشاجرات إلى بيت الصمت، من صراخ الأب إلى حواجب العمة المرفوعة.

دخل عليهم فجأة دون تمهيد، ودون أن يسأل أحد عن موافقته، فإياد يعي أنه لا ينتمي، وأيقن أن لا مأوى يأويه وآمن بالشتات والتيه في الأرض.

ضاق صدر إياد من الاحتكاك التكتيكي بأسوار الدار، حتى البرك المائية في عمق الوادي لم تعد تطفئ شعلة الضيق والضجر.

فإذا أصبح بعد أسبوعين في دار العمة، قام على الحركة قبل طلوع الشمس، فما فتئ أن خرج قبل أولادها فإذا به على مشارف باب الجامع، دخل قبل الداخلين، جمع شتات أفكاره وقال في حضرة الفقيه: (مدرس طلبة كتاب الله).

أنه ضاق ذرعًا بهوة الفراغ وشتات الأفكار، فإذا به لم يتوانَ في الحضور، ما لبث أن رحّب به الفقيه، فأدناه منه حتى التصقت ركبتيهما، وقد علم بتمرد إياد على أوامر السيد الوالد.

فإذا أزف وقت الدخول، سمعت خطى تلاميذ الفقيه المدرس في جامع القرية على الحصير، في حضرة المسجد تصمت الألسن عن الكلمة، لم يعِ إياد أكان ذلك احترامًا لبيت الله أم خشيةً من المحترم فقيه الجامع.

التحق إياد بالمسجد، حيث يحفظ أبناء عمته الأربعة القرآن الكريم، متكئين على جذوع النصوص كما يتكئ النبلاء على أرائك العراقة، رحّب الفقيه بإياد بين التلاميذ، ويسمونهم (المحاضرة)، هكذا كان يسمع إياد المنادين ينادونهم، شارك أبناء العمة سميحة في فصلهم، لكنهم لم يشاركوه، ولم يشاركوه نقاء الروح وصفاء السريرة، جالسهم، لكن لم يجالسوه، ردد معهم الآيات في لوحه المصقول، لكنهم لم يتشاركوا الإيمان.

ظن أبناء العمة سميحة أن إياد ابن خالهم دخيلًا متطفلًا، كما كان دخيلًا في الدار، لكن غابت عنهم مدرسة الجد الشيخ، والغريب في المجتمعات النائية الفقيرة التي يحوطها الجهل، ينبذون -صغيرهم وكبيرهم- من تطاول على كسر قيود الجهل، وكسر ملامح التشابه، ليس فقط من يختلف في ملامحه، بل من يُهدد توازن الانسجام النفسي المتواطئ بينهم.

احتار السيد الفقيه المحترم كيف يبدأ مع إياد، فإذا أشرقت شمس الضحى، قام من المجلس على مرأى "المحاضرة"، دخل بابًا يفضي إلى قاعة مفروشة، سيعلم إياد بعدها أنه مكان إقامة الصلاة، صلى ركعتي الضحى، وخرج بعدها يحك صلعته بأصابعه القمحية الكبيرة.

جلس إلى حصيره، فنادى في الحاضرين بصوت رصين ملؤه الهيبة، سكتت أفواه الجميع بعد أن قالوا بلسان موحد: "صدق الله العظيم"، قام إياد من مجلسه بعد إشارة الفقيه، فإذا جلس إليه والتصقت ركبتيهما، قال الفقيه:

«في الإعادة إفادة، لكن بما أن سي إياد مقبل على عام جديد من الدراسة.. سأتم معه الحفظ من حيث انتهى..»

قاطع كلامه ابن العمة عن غير عمد، وكان في كلامه شيء من الاستهزاء، وهو أكبر إخوته سنًا، وهو في سن إياد، قال:

«السي الفقيه، هذا لم يسبق له أن حفظ في اللوح، كيف سيتم؟»

شزره الفقيه، فأكمل حديثه مخاطبًا إياد، قال وهو يربت على كتفيه:

«عندنا من الوقت ما يكفي ويزيد، ستلقي عليّ ما وعى صدرك مما علمك السي عبدالله، وإن شاء الله يبارك الله في صحة الجد الشيخ ويشفي زوجته..»

لم يُظهر أولاد العمة كرهًا صريحًا، لكنهم أحاطوه بسياج من التوجس؛ كانوا يراقبون كل حركة تصدر عنه، كأن وجوده بينهم "امتحانٌ لصورتهم عن أنفسهم"، وكأن في اختلافه فضيحة لهم.

ألقى إياد على مسامع السيد الفقيه، وتحت أنظار أبناء العمة سميحة والآخرين، جزئين ونصف الجزء بالتمام والكمال، فإذا به ينال شرف التتلمذ على يد رجل مثل الجد، وإذا انتهى أثنى على حفظه السيد الفقيه، ونالت مقرعة التوبيخ أبناء العمة لكسلهم وفتورهم، فضحكت على استخذائهم أعين الحاضرين.

الطفل لا يولد دخيلًا... المجتمع هو من يقرر تموقعه، أو بالأحرى وعي الأسرة بأهمية الأواصر المقدسة التي تجمع بين زوج وزوجه، أما حين تُفرض على الطفل هوية "الآخر"، دون منحه أدوات الفهم أو مستلزمات الدفاع، فإنه لا ينزوي خوفًا، بل كرامةً.. قد يعي الطفل معنى الكرامة، وقد يجهلها، لكنه ينعزل.

داخل حرم المسيد، حفظ إياد الآيات كما يحفظ الغريب خارطة مدينة لا ينتمي إليها، على غير عادة الأولاد يقرأ إياد ولا يرفع صوته، بل يترك للكلمات أن تمشي على استحياء فوق لسانه، كمن يُجرب هوية لا تشبهه، لكنه لا يجرؤ على رفضها.

في أعماقه الفياضة، كان يسأل:

"هل يمكن للحفظ أن يصنع الفرق؟

وهل هذه النصوص تكفي لربط الأرواح إن كانت القلوب بعيدة؟"

لم تكن تساؤلات إياد تشكك في قدرة الله على قلب الحال من حال إلى حال، بل كان يبحث له عن مخرج يسلكه إلى بر الأمان والاستقرار، وهكذا، أصبح المسجد بالنسبة لإياد ليس فقط فضاءً دينيًا، بل مختبرًا اجتماعيًا قاسيًا، فيه تعلم أن ليس كل من حفظ قد فهم... ولا كل من جلس في صف الحفاظ ينتمي.

إلى المسجد، صباح أيام الصيف، تسلل إياد من فراشه، من عاداته المشي على رؤوس أصابعه، فإذا عبر الردهة إلى الحمام، مر قبالة المطبخ في ممر ضيق، فإذا بشبح جسد لا يكاد يكون مرئيًا في مثل هذا الوقت الباكر، اقشعر جسده النحيل، خيمت فوقه سحابة الكلمات، لكنه عجز عن كسر حاجز الصمت بصراخ مفزع، بقي كصخرة صلبًا لم يتقهقر.. فإذا بالشبح الأسود يقترب، وانكسر حاجز الظلام بينهما، حتى اختلطت أنفاسهما، رفع إياد رداء الوجل عن قلبه، وهمس بصوت خافت خفوت الضوء المنبعث من القبو:

«أرعبتني، مسخك الله..»

فلم يكن ذلك الشبح إلا "سيليا"، لم تقل شيئًا إلا أنها ابتسمت بمكر، مرت به، فسرت في جسده النحيل رعشة

أحيت كل ذكريات الطفولة، نظر إليها بعد احتكاكهما في الممر الضيق، فإذا بابتسامتها تشق ثغرها الحلو، هكذا قدر إياد ابتسامتها في عتمة الممر.

خرج بعد الاحتكاك التكتيكي بينه وبين سيليا، يشق طريقه إلى الجامع؛ بعد أن استوى في مجلسه، أخذت ذكرى سيليا تدغدغ ذاكرته.

يقرأ، ويواظب على الحفظ كمن يُكفّر عن خطيئة، يردد الآيات في صمت، لم تكن المعاني تسكن قلبه بعد، بل لأن العادة أصبحت شكلًا من أشكال الحياة، ولأنه يرغب في التفوق، في تكريس معنى التفوق أينما حل وارتحل.

أما السيد الوالد، فلم يكن إلا ذكرى تدنس شرف الأبوة، وشرف الشيخ الجد الكبير، رجلٌ ملطخٌ برائحة نساء منفلتات، يجر خلفه أذيال الخزي والعار.

صباح الخميس، إياد يجري، يقفز من حجر إلى حجر، يستحضر ذكرى المعلم خالد، تاليا، والعمة عويشة، يسابق الزمن للعودة السريعة.. قبل شروق الشمس، وجد العمة عويشة، حيث كانت تنتظره قبل أعوام حتى يغيب شبحه النحيل، ارتمى في حضنها الوفير.. قالت:

«الجن، وحدك في هذا الصباح...!!»

كانت الفرحة تشق خديها الحمراوين، ما لبثت أن استدركت بعد ما يقل عن نصف ساعة، تسترجل كلامًا

يخص الوالد، دخلت في صلب الموضوع بلا أدنى مقدمات:

«المسخوط! جلس معنا على المائدة، تدري أنه لا يأكل طعامنا، وخبط بيده الصماء على الطاولة ثلاثًا، حتى تاليا قامت مذعورة من تصرفه المنفلت، طرق بعدها مرتين وأصدر الحكم في غيابك، هكذا قالها، لن يكون ولدي ولن أكون أباه..»

نظر إليها إياد باسم الدم، لأنه أحب عمته كثيرًا، وسيبقى وفاء العام الذي قضاه معها قلادة في عنقه أبد الدهر، الطريق مائلًا كذاكرةٍ فقدت استقامتها، ترنح أمامه كأول يوم خرج تابعًا الخط المتعرج، ذاك الذي بدأ منه يومًا، طفلًا لا يدري ما ترك وراءه، واليوم... كان يافعًا ينظر إلى أثر أقدامه وقد كساها الشحوب، كما لو أن الزمن اعتذر عن المواصلة، وأن الأرض التي مشت معه والأشجار التي ظللته، لم تعد تتعرف عليه، انحنى، التقط ورقة نعناع يابسة على الهامش، شمها كما يُشم الحنين المدفون في التراب، لم تكن رائحتها قوية، لكنها تذكره أنه كان هنا، أنه مر ذات يوم من هذا الممر المتآكل، وبقي فيه شيء منه، لا يزال ينبت، ولو كان مجرد نكهة باهتة، نظر مرةً أخرى إلى عمته عويشة وقال:

«ابنه؟ هه... أي ابن هذا يجرؤ على التلفظ بالخرافات، يا له من هوة الخيبة؟»

فرك ورقة النعناع ببطء، حتى تناثرت كفتات ذاكرة منسية، نثرها في هواء الصباح كمن يشيع فكرة سخيفة إلى مثواها الأخير، ثم ابتسم ابتسامة باهتة، نصفها سخرية ونصفها وجع، وأضاف:

«الأب رمز الأمان والاستقرار، وأخوكِ يفتقر إلى كل معالم الأبوة، لا أمان ولا استقرار.»

العمة عويشة تفيض عذوبة كأنها اقتطفت من إحدى جنات الخلد، امرأة لم تكد تخطو إلى المجلس حتى ينقلب عيدًا، تبكي سريعًا، نعم، لكنها لا تبكي ضعفًا، فهي بألف رجل، تسقط منها الدمعة كما يسقط الورد من أغصانه دون أن يفسد ذلك من جمالها.

بانت بوجه يكسوه الجمال، نظرات عتاب، هي أم سلسلة من الأحزان ملتفة حول شغاف الروح، طلت تاليا بعينين ملؤهما الشوق، عينين كسهم عاشق الترحال؛ مائدة الإفطار كسرت هوة التوتر بينهما.

قام إياد بعد الإفطار إلى السطح، حيث كتب بأحرف لا يفهمها غيره، اسمه ملتحمًا باسم تاليا، كانت طقوس المحبة تربط الاسمين المنحوتين على الحجر في ركن السطح الذي يطل على الماضي، أضاف إلى الاسمين رسمتين رمزيتين، أحدهما رمز الذكورة وتشير إلى إياد، والأخرى رمز أنثوي ويقصد بها تاليا، بدت الرسمة واضحة، تشابك يدي الرمزين دال على التحام الحياة بينهما، وقف وقفة احترام، يلقي نظرة يبدو أنها الأخيرة

على لوحته الفنية آملًا أن لا تقسو عليها عوامل الطبيعة، ثم استسلم للنزول.. وقف مرةً أخرى وألقى نظرة أخيرة قبل أن يقفز إلى غياهب البعد الجغرافي القاتل.

تحسب أن الزمن لا يمر بل يتكاثر، مر أسبوع، لكنه لم يدركه إلا حين تآكلت أيامه وانطفأت على عتبة الغياب في عتمة الحاضر، في دار العمة عويشة، لم يكن إياد سوى ظل يحاصر بعينين لا ترحمان، من علياء - التي فاضت أنوثتها، اتسع خصرها وهاج ناهداها على اتساع قفص صدرها، وبدت للناظر أكثر اتساخًا من ذي قبل - تحاول أن تقيده بنظرات من عينين جاحظتين في وجهها الكالح الشاحب، تلك النظرات التي تختلط فيها سخرية السنين بخيبة الرغبة المكبوتة، نظراتها لا تلمس الجسد، لكنها تنهشه شهوة وتلذذًا، هذا ما عهده إياد داخلها من حب للرذيلة المفروضة، وما عكر روقان لياليه ها هنا، في ذكرى أليمة تربطه بجدران هذه الدار، ومع مرور الزمن، وجد نفسه يحتقر فعلها، ها هي ذي علياء تجني في صمت ثمار أفعال مغمّسة بالعار.

الآن، بعد أربع، أو ربما خمس سنوات، تغير شيء ما، لم يعد إياد نفس الطفل الذي ينفذ الأوامر، لا أوامر الوالد المستهتر، ولا حتى أوامر من يتبنى ثقافة "الكبار لا يسألون"، تمرد.. لم يجهر بتمرده، بل تمرد بوعي حكيم يشبه خيانة الموج للبحر، إن كان بين هذين خيانة.

في مشهد مؤثر، تلوح العمة عويشة بيدها، وداعًا عذبًا زلالًا، منسابًا في سماء الأقدار، يرافق إياد في وحدته في

مساء كسمفونية ربانية تعزف على أجنحة ملائكة السماء بطهر ونقاء.

عينان زرقاوان، وجه صبوح، نمش طفيف يحط بلطف على أنف بديع ووجنتين ناعمتين، أسنان بيضاء كالدر المكنون.

"قالوا به زرقة فقلت لهم

بذاك تمت خصاله البهجة"

شفتان بديعتان شقتا ثغرها الحلو بابتسامة لذيذة.

"عذبت في الرشف منه شفة

رشفها أطيب من نيل الأمل

وعليها حمرة في لعس

تستعير اللون من ورد الخجل"

داهمته سيليا "بهكذا" ملامح، من حيث لم يكن يتوقع، تختزن من التناقض ما يهبها جوهر الأنوثة، لم تكن مجرد فتاة رقيقة أنهت عقدها الأول فحسب، بل تحمل جمالًا يوهم الناظر بأنها تكبره بردح من الحكمة والفتنة، تمشي في غنج صبية تحسبها تحمل قرونًا خفية من الفتنة

المكتسبة، تبعها إياد عبر الممر الضيق، هكذا امتزج وقع خطواتهما بصمت الممر، حتى وصلا الردهة، انحنى يقبّل يد عمته سميحة، فردّت بإيماءة أمومية من عينين مسهدتين أرقتين، وقبّلت يده، سألته عن أحوال أختها الكبرى عويشة، بينما كانت جالسة يومها في مجلس تحيط بها الجارات، سيعلم إياد لاحقًا أن اجتماع الجارات كان لمواساة العمة سميحة، بعد أن فقد رحمها جنينًا لم يكتب له أن يرى النور.

عاد إياد إلى دار عمته، بعد أسبوع من الغربة الصامتة في دار عويشة العمة، لم يعد بذلك الشخص الذي غادر به يوم الخميس، بل بظل آخر يمشي بجانبه، أكثر وعيًا، أكثر رقة، وربما أكثر ضياعًا، في عينيه سؤال وحيد يستنكره الجميع:

هل ما نعيشه هو اختيار.. أم اضطرار متقن التنكر؟

ليلة قمراء، يتدلى البدر فوق القرى كعين ساهرة، يسكب ضوءه على الجدران العتيقة فيلبسها رداءً من الحنين؛ ومن دار الجيران، كانت أصوات الزغاريد تتعالى، تعلن نصب خيام حفل الزفاف؛ يختلط فيه الفرح بصدى الزمن، العمة سميحة هناك، بين الحضور، تحمل وجهها ابتسامة تحاول أن تخفي خلفها ظل خسارة لا يراها إلاها؛ ضحكات النساء، صخب الأطفال، ورقصات الشباب؛ كل ذلك يمر أمام عينيها المرهقتين كأنها تشاهد فيلمًا وثائقيًا بعيدًا عن ذاتها، وفي قلبها كان سؤال عقيم:

هل يمكن لفرح الآخرين أن يرمم كسور الروح، أم أنه يذكرها بمرارة الفقد؟

في الجانب الآخر من الليلة القمراء، كان إياد جالسًا على سطح الدار، وحيدًا تحت ضوء البدر، عيناه معلقتان بأترابه، أولئك الذين يرقصون بلا هوادة، يركضون ويسطون في كل جانب، خلف لحظة فرح قصيرة، كأنهم يحاولون أن يخدعوا الزمن، إيقاعات الموسيقى الشعبية تتصاعد من الطبول الجلدية والمزامير المحبوكة يدويًا، تضرب ذبذباتها جدران الليل، توقظ شيئًا في داخله... شيئًا يشبه الحياة لكنه لا يشبه الفرح، ابتسم إياد نصف ابتسامة، ثم أسند ظهره إلى الحصير فوق السطح، كأنه يختبئ من العالم ومن نفسه؛ وتساءل بصمت، بينما القمر يراقبه كقاضٍ قديم:

هل ما يسمونه حياة... هو هذا الضجيج؟ أم أن الحياة الحقيقية تبدأ فقط حين يصمت كل شيء؟

حين جن الليل، واشتدت صيحات الفرح بأذيال الظلام، كأنها تمزق صمت السماء، نهض إياد؛ قفز بخفة متمردة فوق درجات السلم الخشبي، كمن يهرب من قيد لا يُرى، ودخل الدار، وجده غارقًا في سكون مميت، الكل هناك.. حيث الصخب يلتهم سكون الليل وظلامه النقي، مد يده إلى سلة في المطبخ، تناول موزة كأنه ينتزع من العالم حصة صغيرة لذيذة لا ينازعه عليها أحد، ثم خرج بخطوات يكسوها التردد، يعبر الفناء نحو دار العرس، وهناك، وسط الأضواء المتراقصة والوجوه المشدوهة

بـدقات الطبـول وشـذى المزاميـر، هنـاك، حيـث اصـطف الشباب كتفًا لكتف يرقصون بلا هوادة، التقت عينـاه بعينـي سيليا، لم تقل شيئًا، لكنها أومأت له إيماءة واحدة.

كانـت ليلـة مقمـرة؛ لأن القمـر كامـل، ولأن الضـوء انسكب على القرية كحبر كوني يكتب على جدرانها تاريخًا مـن الطقـوس الموروثـة؛ فـي السـاحة، كانـت الموسـيقى الشعبية ترتفع كنداء بدائي، والرقصات الريفية تتناوب مـع زغاريد تخترق صمت الأفق، الطبول؟ لـم تكـن مجـرد آلـة جلدية، بل نبضًا جماعيًـا يعيـد للجمـوع يقينـهم بـأنهم كـائن واحد يتنفس فـي إيقـاع مشـترك، هكـذا كـانوا يظنـون بهـذا التراث الموسيقي المفعم بـروح ريفيـة أمازيغيـة، تحسـبهم لحمـة واحـدة لا تتجـزأ وسـط هـذا المشـهد التراثـي المفعـم بروح شبابية، أمسكت سيليا بيد إياد، لم يكـن فعلهـا مجـردًا من ثقل الإحساس، بل كسرت به قيود الهوة بينهما.

في مشـهد اسـتثنائي ينتـزع فيـه الفـرد ذاتـه مـن لحمـة المجتمع، وضوضاء اللحظة؛ هكذا همت منسحبة وتبعهـا.. لم يكن امتثالًا، بل لأنه انجذب إلى تلـك القـوة الخفيـة التـي تسحب المرء مـن بـين الآخـرين لتضـعه أمـام مـرآة ذاتـه، مرآة يرى فيها الحقيقـة، دخلـت عتبـة المنـزل وتبعهـا إيـاد بنقاء ملاك، أوصـدت البـاب خلفهمـا وكأنهـا أغلقـت الهـوة المطلة علـى العـالم الخـارجي بأكملـه، التفتـت إليـه بعينـين زرقاوين حادتين.. وقالت:

«لبست تحت القفطان أثقالًا فاختنقت أنفاسي...»

ثم أضافت هامسة، لم تصل كلماتها إلى إياد:

«تظن أني جئت بك لتساعدني، لا، بل لتشهد لحظة تحرري من هذا الذي يكبلني.»

كلماتها أشبه باعتراف مطرز بألوان جذابة مخفي بثوب الحميمية، أشارت إلى حزام القفطان المرصع بأزرار كهرمانية تلمع تحت ضوء المصابيح البيضاء، فكه إياد، وشعر للحظة أنه لا يحرر سيليا الصغيرة من ثوبها، بل يحرر صفحات من تاريخ زيفته أقلام مؤرخين يفتقرون إلى النزاهة، وتحررت سيليا من الأدوار والقيود المتوارثة.

تركها في غرفتها قليلًا، خرج يبحث عن جرعة ماء، ربما ليتخفف من وطأة ما يشبه الطقس التحولي الذي انخرط فيه دون وعي، أو ربما جف حلقه لبياض جيدها، لكن صوتها ناداه:

«إياد... أسرع... تعال.»

فإذا دخل وجدها هناك، وقد تجردت من كل ما كان يربطها بصورة المجتمع؛ ابتسمت، ابتسامة لم تكن للغواية، بل كانت إعلانًا ميتافيزيقيًا عن كائن سماوي ينسلخ من جلد العالم، تجمد إياد.. سأل نفسه سؤالًا أبستمولوجيًا: من هي سيليا الآن؟ أهي ابنة عمته؟ أم مرآة تكشف هشاشة كل تصنيف؟

شقت ثغرها الفتان ابتسامة، وكانت ابتسامتها أعمق من أي كلمة، أحدثت فجوة عميقة في اللغة، فجوة يتسرب منها بريق خلدته الروايات الجاهلية.

فوددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وفي تلك اللحظة، أدرك إياد أن البدر، الذي ظل يراقبهما من النافذة، لم يكن يومًا شاهدًا صامتًا، بل كان هو الآخر يكتب معهما نصًا جديدًا، نصًا لا يعرف الفرق بين الرغبة والتحرر، بين الجسد والأسطورة.

اقتربت منه خطوة تحمل رجفة ناعمة، لم تكن رجفة برد، بل رغبة تشكلت حين تلاقت الأرواح قبل الأجساد، الليل بلغ مداه، والبدر يطل بنوره كمرآة مفتوحة على تفاصيل الجسد، أما الفرقة الموسيقية، فما تزال تقرع الطبول كأنها تتحدى صمت التاريخ وصدى الوديان، بينما الضحكات في الخارج تخفي تحتها توجسًا قديمًا من انتهاء الفرح؛ داخل الجدران الساكنة جلس إياد وسيليا، يحيطهما صمت مهول تحسبهما آخر من بقي في هذا العالم، وكأنهما يدركان — في اللاوعي — أن العروسين هذه الليلة سيكتبان سطرًا جديدًا من حياة مشتركة...

أرادا بدورهما، أن يكتبا ما يشبه البيت الأول من قصيدة بلا اسم، ابتسامتها تشبه انحناءة قلب خلع عباءته

من بؤرة الخوف، تمددت على السرير، لم يكن تمددها ذلك خضوعًا، بل انتصارًا هادئًا للحنين القديم، للأنوثة حين تطمئن، وللرغبة حين تتحول إلى عناق وجودي، وللنفس الدافئ حين يختلط.

في زرقة عينيها ما يشبه سؤالًا حرجًا يعجز إياد الإجابة عنه، أما بياض بشرتها فلم يكن فتنة، بل كان صدقًا، لذلك أحس أنه يعانق جسد ملاك، يتقلبان بين حديث صامت ولمسة هادئة دافئة، كأنهما يختلقان لغة جديدة أو يشكلان جسدًا ثالثًا، ليس هو ولا هي، بل حالة مشتركة من التلاحم الذي لا يعرف الانقسام، وخلف كل ذلك، كان إياد يتساءل، دون أن ينطق:

هل نحب لأننا نعرف ما نقوم به؟ أم لأننا نحاول ملء الهوة داخلنا؟

ارتدى ثيابه على عجل، كمن يهرب من نفسه ومن الزمن، وقف خارج الباب، وفي قلبه صمت يضج بما لا يقال، لحقت به سيليا أكثر جمالًا من ذي قبل، تمسكت بذراعه، ثم افترت شفتاها عن ابتسامة دافئة، تلك التي تربك القلب أكثر مما تطمئنه.

وما إن دلفا عتبة دار العرس، حتى رشقته بابتسامة أخرى، مرسومة على ثغرها الحلو، ثم غادرت إلى حال سبيلها، تاركة إياه وحيدًا بين وجوه تتشابه؛ أمهات وبنات، ألوان وأصوات تتكدس فوق بعضها كغبار فوق رف مهجور، حاول أن يبتسم، لأنه_ والحق يقال_ قضى

سويعة نادرًا ما يمكن أن يفوز بها الواحد منا، لكنه وجد في داخله رغبة صامتة حثته على الفرار، ترك الصخب وراءه، وابتلع قطعة "شوكولاتة" ليعقد هدنة صغيرة مع العالم، صعد إلى السطح، حيث لا يسمع المعركة القائمة بين الطبل والمزمار إلا بأذنيه، واستلقى واضعًا يديه تحت رأسه محدقًا في تمام البدر، كان أبيض ناصعًا كلون بشرة "سيليا"، والنجمة المعلقة بجانبه تشبه عينيها الزرقاوين، تحسب أن السماء تعيد رسم ملامحها فوقه.

في تلك اللحظة أدرك أن اللذة ليست في ما يُلمس، بل في ما يتعذر لمسه في المسافة المعلقة بين الرغبة والخوف، بين ما يضيء القلب وما يظل حبيس الصمت، ابتسم لنفسه ابتسامة غريبة، مزيج من المرارة والسكينة، كمن وجد في وحدته ما لم يجده مع هؤلاء الحشد.

أحلام الصبي تكبر... تشب ثم تشيخ؛ بلذاتها المفرطة حينًا، وبمرارتها الحانقة أحيانًا أخرى، كان إياد يعرف ذلك حق المعرفة؛ ولد في بيئة سلبته معالم الطمأنينة والاستقرار، ما بقي له سوى لحظات خاطفة يلتقطها كغريق يتمسك بطوق النجاة، ومع ذلك، ثمة وجوه — حتى في مجتمع متعفن بالدعارة الروحية — تستطيع أن تنقذ قلبًا واحدًا من الغرق، ولو إلى حين.

إياد يتذكر تاليا، التي لم تكن مجرد فتاة، بل الروح التي ربطته بحياة لم يعشها بعد، كان يسمع همساتها كلما ضم سيليا إلى صدره، كأن الماضي يتواطأ مع الحاضر ليصنع وهمًا جميلًا، وهمًا يكفي ليبقيه واقفًا، أصعب من

الحب أن تجد مأوى لروحك في جسد آخر غير الذي آواك واحتضنك في عز الشتات، تاليا لم تكن غائبة، بل كانت كل الحضور.. كانت يدًا خفية من الزمن تضع كفها على كتفه، تربت عليه برفق، وتهمس بعينيها أكثر مما تهمس بشفتيها:

«لا تيأس يا حبيبي، الحياة ليست عدوك، بل قطار تمضي من خلاله إلى بر الأمان، كن صبورًا... ستجني نصيبك من الفرح، حتى لو جاء على هيئة قبلة مؤجلة أو حضن يتيم في آخر العمر..»

ابتسم إياد ابتسامة شاحبة، كان يعرف أن الوهم قد يكون أحيانًا أصدق من الحقيقة، نظر إلى ملامحه في المرآة، وقد بدا له انعكاسه كوجه يشيخ ببطء، لكنه رغم شيخوخته يظل مضيئًا، تمتم لنفسه وكأنه يعترف:

«كل ما أردته... لم يكن أكثر من ذراعين يليقان بالنجاة، ربما... ربما لم أوجد لأملك العالم، ولا حتى أبوين صالحين، أظنني ها هنا لأصغي لنبض الفجر في العتمة.»

ثم أغمض عينيه وفتح نافذة الروح على مصراعيها، كأنه يختبر تلك اللحظة الغريبة التي لا يميز فيها المرء بين الحب والخلاص، ولا بين الرغبة والنجاة.

الفصل الثالث

ما إن اِنبثق نور الفجر على جدران "المسيد"، حتى بدا إياد وكأنه يستقي من الحروف أنفاسًا جديدة، الفطنة والقدرة على الحفظ جعلت الشيخ يتطلع فيه إلى مستقبل مرموق، كأن الفتى وُلد ليكون صدىً للكتاب، وليس فقط حافظًا له.

ويشاء ربك عزيزي القارئ، أن يقلب موازين صيرورة الأحداث، وفي أواخر الشهر الثاني من فصل الصيف، إذ ذاك كان الحديث عن حفل تكريم الحُفّاظ يملأ أروقة "المسيد"، أطلّ خال إياد وكان اسمه داسم، بوجه يكسوه دفء زائف وقلب من القار، عازمًا على اقتياد الفتى نحو مدينة جديدة، تطوان، المدينة المعلقة بين الجبال والبحر، حيث الأزقّة تضيق كالأسرار وتتسع كعيني تاليا، والمآذن تعلو كأنها أنصاب شاهدة على ذاكرة الأرض، هناك بُعد مائة جبل وجبل عن إشراقة ابتسامة سيليا، ويد تاليا الدافئة.

لم يكن إياد يعلم أنّ الرحيل إليها ليس مجرد انتقال بين مدينتين؛ بل عبور من براءة الحرف إلى معترك الأسئلة، ومن دفء العائلة المؤقت إلى صقيع الوجوم الدائم، إلى كهف غونا.. إلى سجن محاط بتعاويذ محرمة.

فإذا أشرقت الشمس ومحى إياد لوحه و"المحاضرة "معه، انتظروا حتى يجف الصلصال، نظر في الأفق البعيد الهادئ لتنبعث الحياة في نفسه، لم يسع يوما لتعرية وجوها موسومة بالخداع.

في ذلك الصباح عزم الخال داسم على اقتطاف إياد من شجرة المعرفة؛ إنه الرجل - إن صح وصفه بالرجل - الذي ما فتئ يتقن فنون التمويه حتى بدا كأنه وُلد وفي فمه شهد الكلام، يُسقِط به فرائسه إلى الهاوية وهم يحسبون أنهم صاعدون إلى الجنة.

لم يكن داسم هذا خالًا بالمعنى الذي تعرف به الأرحام، بل إبليس تزيّى بملامح البشر، نزع عن نفسه ما يثقله من صفات آدمية، والتفّ بثياب الملائكة؛ ليغدو في أعين من حوله ملهمًا مخلصًا، أمّا إياد الفتى الذي لم يذق من الدنيا غير يقين الطفولة المنكوحة؛ فقد رآه كما كانت ترى العرب الفرسان المفوهين، لم يدرك وقتئذ أن كل يد تمتدّ لتُمسك به قد تدفعه أيضًا إلى القاع، نعم إلى غيابات الجب.

ارتدى الأفق إيزارًا أرجوانيًا باهتًا، كأنه يستعد لدفن آخر أنفاس النهار، عند نزولهما من سيارة زوج العمة سميحة، كان إياد يحدّق في الطريق بعينين لا تزالان تفتشان عن معنى الحياة في وجه هذه المدينة الغريبة، فجأةً دوّى صوت خاله داسم، حادًّا كالسياط:

«هيييه! جميلة... جميلة!»

توقفت "جميلته"، تلك المرأة التي بدت وكأنها خرجت من حاشية قدرٍ مقزم، أخت زوجة إبليس ذاك الذي يسمّونه خاله، تقدّم داسم بخطوات مسرعة حاملًا حقيبة إياد كأنه يحمل روح الولد، فإذا وقفا وجهًا لوجه أمام جميلة تلك انحنت وقبّلت وجنتي الصبي بحنان غريب، حنان يشبه متاهة أكثر منه ألفة، شعر إياد حينها بشيء غامض يتسرّب إلى لواعج قلبه.. كإشارة لن يشرحها سوى الزمن.

حين أسدل الليل ستاره بانوا هناك بين زقاق ضيق عند باب الدار، انسحبت جميلته وبقيا هما الاثنان أسفل الدرج، فتح داسم الباب بعجالة المنتصر بينما تبعه إياد كمستكشفٍ يسير إلى وكر غونا لأول مرة؛ حفرتان أكثر من كونهما غرفتان ضيقتان، حفرة للنوم وأخرى تصلح لتكون غرفة حياة بائدة، مطبخ صغير تنبعث من أعماقه رائحة لاذعة، وفناء بالكاد يتسع لأريكتين ومائدة مستطيلة إلا أنه يمتلك واحدة دائرية تمنع الحق في التنفس بحرية.

في تلك اللحظة أدرك إياد – دون أن يفكر – أن هذا البيت ليس بيتًا، بل استعارة كاملة لمعنى الحياة؛ عالم ضيّق، أبوابه تلقي بك إلى جدران أقرب إلى السجن من كونها سكن، وأنفاس ساكنها محصورة في ركن لا يرى الشمس، ومع ذلك كان فيه شيء ما يشبه الامتحان... امتحان يضعك بين براثن العدم إن استطعت أن تفر منه لتتكوّن كائنًا جديدًا، أو أن تسقط في غيابات جبه ولن تمتد إليك دلاء السيارة وقتها.

اللهمّ أنّ إياد كان ميّالًا إلى أسر كل عينٍ تجرّأت والتقت بعينيه، وسلبِ لبِّ من تشرّف بابتسامةٍ دافئةٍ تتسرّب من ثغره الملائكيّ كما يتسرّب النور إلى قلبٍ أرهقه العتم، على لسان الأفعى دميمة زوج خاله إبليس، انطلقت الكلمات ببطءٍ متثاقل، كمن يقطّر سُمًّا في كأسٍ مذهب:

«إنّ في ملامحه سحر... سحر يفتك بالقلوب ويتركها جثثًا لا يُشيِّعها سوى الندم.»

تحسبه أنت عزيزي القارئ الذي غابت عنك ملامحه واحد من الذين اصطفاهم الله بحسن الطلعة؛ لكنه ولد من أولئك الذين تنبئ سحناتهم على ما خفي من الضجر، إنما أنت قادر على تمييزه يا سيدي ويا سيدتي ما دمت تفرق بين ملامح التشابه والاختلاف، إنما في عدم الاستقرار سمة أو بمعنى أصح ندبة كتلك التي وضعها الله على جبين قابيل في رواية "قابيل" للكاتب البرتغالي، وهكذا صارت الأجيال تتعرف عليه والأبعد من كل ذلك... تصفه بصاحب الندبة، قريبًا مما تعتقد عزيزي القارئ؛ فالهوة داخل إياد تتسع ويظهر ذلك جليًا على وجهه، تمامًا كما اتسع نطاق الندبة على جبين قابيل.

قالتها دميمة وهي تحدّق في أختها الوسطى بعينين تشعّان خبثًا، لا لشيء بل لتُخفي خلف ذلك البريق شهوةً دفينة للانتقام، وكأنها تُلقي بظلالها السوداء على قلب الأخت الصغرى، تلك التي بدا أنّها لم تُدرك بعد خطورة هذا القادم الساحر؛ لكن ما دافع الانتقام يا دميمة؟

كـان فـي كلامهـا تحـذير لا يُصـرَّح بـه، ينسـاب بـين السـطور كمـا ينسـاب الظـلام فـي زقـاق المدينـة النائمـة؛ تحذيرٌ يُشبه النبوءة وكأنها تُخبرها أن من يحـدّق فـي الولـد أكثر مما ينبغي، يُصبح عبدًا لبراءته... عبدًا لا خلاص له.

بعد أن غادر إياد مدينـة الحسيمة، حـاملًا فـي صـوته صدى الجبال ووعورة الصخر، وجد نفسـه فـي "تطـاوين" – كمـا يسـميها جـده وأقرانـه – غريبًـا عـن ألسـنة سـكانها الملساء، غريبًا حتى عن نغمة الهواء الرطـب الـذي يتـردد بين أزقتهـا، كـان والصـبي تجـاوز الخامسـة ابتـدائي يُقبـل علـى السادسـة وهـو يجـرّ خلفـه إرث لسـانٍ ريفـيٍّ خشـنٍ كالحجارة التي نشأ في كنفها،

كيـف للسـانٍ أُشـرب فظاظـة العاميـة أن يتـذوّق فجـأةً رهافة الحروف العذبة؟

كيف له أن يستسيغ موسيقى لغة لا تُنطق، بل تُغنّى؟

لقد كانت حروفه – يومئذ – تُقرع على مسامع النـاس كما يُقرع الفأس جذع السـندان، حروفـا خشـنةً نـافرة، إيـاد بفطرته المتيقّظة يـدرك أن الانتقـال مـن لهجـة إلـى لهجـة، ومن نبرة إلى أخرى ليس تبديلًا في مخارج الحـروف، بـل هجرة وجودية من الأنا المطلق إلى الأنا الآخر، انتقال مـن عالم إلى عالم، انسلاخ من هوية إلى أخرى.

استسلم للصمت بـادئ الأمـر؛ فجعـل مـن أذنـه قنطـرةً يعبـر منهـا كـلّ لسـانٍ "تطـاونيّ" جبلـيٍّ رقيـقٍ يتسـلّل إلـى

روحه كما يتسلّل الماء إلى جوف الأرض العطشى، يصغي؛ ليفهم الكلمات، وليلتقط إيقاعها الخفي فيعيد بناءه بنفس جديد، لكنه ما لبث أن صار يتعرّض لهجمات لسانه القديم، ذلك اللسان الخشن الذي كان يطارده حتى في نومه، يأتيه كابوسًا ليذكّره بالأصل الذي لا يفنى ولا يهان.

وبعد صراع طال حتى أوشك أن يصير جزءًا من كينونته، وعى إياد معنى العنصرية، وكيف تبني الحواجز بين أهل بلد يعيشون في ظل ثقافة واحدة ولغة واحدة..

هل ننظر إلى العنصرية كجزء من مخلفات الاستعمار؟

بعد الصراع خرج إياد من براثينه لا غالبًا ولا مغلوبًا، بل خليطًا متفرّدًا بين النغمتين... جعل للحروف نعومتها حيث يلزم، وأبقى على شيء من صلابتها حيث ينبغي، صار صوته أشبه بجسرٍ يجمع بين جهتين متقابلتين؛ بين وعورة الريف ورقّة الجبل، حتى أن أساتذته ورفاقه في المدرسة وقفوا أمام لغته حائرين، أهو ابن هذه الأرض أم ابن تلك؟

لقد صار ابن الاثنين معًا، وفي ذلك سرّ تفوّقه.

وهكذا عاد لإياد حضوره بين الناس، عاد ليُرى ليس كغريبٍ تائه، بل ككائن استطاع أن يُعيد ترتيب العالم من حوله، وكان يقضي معظم وقته في فناء منزل والد دميمة، هناك حيث تمتزج ضحكات الطفلة الصغيرة التي كان

يرعاها قبل المدرسة ببراءة ملاك، كان يلاعبها حتى يغلبها النوم.. فيهدأ البيت، ثم يجلس وحيدًا أمام شاشة التلفاز، يتأمل الأفلام كمرايا صافية يرى من خلالها مصيره القادم.

حتى جاء ذلك اليوم... يوم اقتحمت أخت "الأفعى" الدار بلا سابق إنذار، كريحٍ عاتية تقلب هدوء المكان رأسًا على عقب، وكأنها نذير فصلٍ جديد، فصل سيقلب صفحة حياة إياد، ليضعه أمام امتحان آخر... أشدّ قسوة، وأعمق أثرًا، وجّه إياد نظره إليها مستنكرا، كأن عينيه تسائلانها عمّا تُقدِم عليه؛ فقالت بصوتها العذب المتسلّل إلى القلب كما يتسلّل أنين الناي إلى لواعج الروح في ليالي السهر، يذيب ما تراكم من قسوة في الصدور:

«أتنكر يا إياد مَمن يفتح لك قلب داره؟

ما أنا قاصدة بك شرًّا، وإنما أردت أن تصنع كأس شاي نلين به الحديث.»

ثم مالت برأسها قليلًا، وكأنها تمزح، أضافت:

«كيف ترى الفكرة يا ترى؟»

امتثل إياد تحت وطأة سحر حبال صوتها الشجية، ذلك السحر الذي لا ينفذ مباشرة إلى القلب، بل يلتف حوله في هدوء كيد ناعمة، وما له لا يقيم وليمة لهذه الحسناء التي وإن كانت تكبره بسنين عددًا؛ فإن تلك الأعوام لم تزدها إلا نضجًا في الملامح وجرأة في القول، كان فمها وهو يرسل

الكلمات أشبه بيد تنثر الورد على المستمع؛ لكن وردها لم يكن عطرًا بريئًا تمامًا، بل خليطًا من نوايا وتجارب وأسرار.

سألته، كأنها تريد بذلك.. أن تختبر جذور شخصيته، عن فكرة تركه كل شيء هناك وراء الجبال، وإقباله على هذه المدينة التي تضرب في عمق التاريخ، أرادت أن تعرف كيف كان مستواه بين أترابه في المدرسة، ليس بدافع الفضول السطحي، بل ربما لتعي مقدار تكوينه المعرفي، وهل كان يحمل عقدًا تقيّد تفاعله تجاه الغير، أم تراه متصالح مع ذاته حتى بين أحضان بيئة مغتربة، يتنافس فيها الأولاد والبنات على إثبات حضورهم بطرق صاخبة أحيانًا.

إياد، رغم أنه ليس ذا دهاء لكنه فطن، تجارب صباه جعلته يمتلك ما يكفي من الإجابات تخوله أسر الوسيمة، يومئذ، ذلك إن لم تكن وهبته من الإعجاب وسامًا، شيئاً من الفضول الذي يشدّها نحوه، ظهر ذلك جليًا على قسمات وجهها، أما تأثيره في قلبها فلم يكن من وعيه أو تخطيطه، بل كان ثمرة اقترابها المتكرر منه، زياراتها التي بدت عادية في ظاهرها، لكنها في عمقها محكومة بإيقاع دقيق، إيقاع نقي كحبة ندى على زهرة الاوركيد.

تظهر الجميلة بين جدران دار أختها دميمة التي تتخلف بعيد الفجر أحيانًا، لا تلبث إذا ما فرغت من مشاغل الدنيا حتى تطرق باب دار أختها بعد الضحى أو العصر، حسبما تسمح به حركة الحياة والتزاماتها، كان

نمـط حضـورها يـوحي بتـوازن غريـب بـين الالتـزام الاجتمـاعي والحريـة الفرديـة؛ فـإذا أقبلـت ضـحى وكـان الظهـر اسـتأذنت، وإن أتـت عصـرًا وكانـت المغـرب استأذنت، وكأنها تحفظ لنفسها شكلًا من أشكال الأصول، حتى وهي تدور حول الأحداث.

رافقته في دروبه، وتبادلا الأحاديث التي تمزج بين الجد والمزاح، إياد رغم فتوته كان ينجذب لعذوبة حديثها كما ينجذب النحل لزهرة نادرة؛ لكن الانجذاب هنا لم يكن رومانسيًا صرفًا، بل كان في جزء منه إعجابًا بالجرأة، وتوقيرًا لخبرة الحياة التي تسبق عمره؛ أما الحسناء في أحيان كثيرة، تميل إلى الحديث الجاد، تزن الكلمات بميزان التجربة، بينما كان هو يتلقفها بإنصات، مدركًا – ولو على نحو غامض – أن هذه العلاقة الصغيرة في ظاهرها، هي انعكاس لتشابك أعمق بين الفرد ومجتمعه، بين التطلعات الشخصية والقيود التي يفرضها السياق.

في علم النفس النمائي، تُعدّ السنوات الأولى من حياة الطفل، بين الثانية والرابعة أرضًا خصبة تتشكل فيها خرائط الوجدان، وتُرسم خطوط الملامح الأولى لشخصيته؛ وهنا لم تكن محاولة تلك الوسيمة - اسمح لي يا سيدي ويا سيدتي أن أُسمي لكم الجميلة بـ"نيرمين" في حوارها مع إياد الصغير – ذو السنتين بعد العاشرة – مجرّد تواصل عابر، بل كان تدخّلًا إنسانيًا عميق الأثر، أشبه بيدٍ تمتد وسط العاصفة، لانتشال الجسد، وكذلك لانتشال الروح أيضًا.

بعيدًا عن سوء الظن كانت تلك الشابة الجميلة "نيرمين" تدرك – بالفطرة أو بالتجربة – أن الطفل إياد يرزح تحت سحابة العزلة، وأن انغلاقه على عالمه الخاص قد يترك في قلبه بذور قلقٍ ووحدة تكبر معه؛ ولذا لجأت إلى أسلوبها السحري؛ ذلك الحضور الذي يُشبه زهور اللوتس المصطفاة، نادرة النقاء، التي تنبت وسط المستنقعات فتغدو رمزًا للخلاص.

لقد خاطبته بكلمات ترفل بإيقاع صوت يهدّئ الروح، وبملامح وجهٍ تُشبه شروق الشمس في صباح بارد؛ كانت تعرف أن الطفولة تُشفى بالاحتواء قبل أن تُربّى بالقوانين، وأن نظرة دافئة قد تهدم جدارًا بناه الخوف في قلب صغير، في تلك اللحظة أيتها السادة، لم يكن الحوار مجرّد تبادل للألفاظ، بل كان معزوفة من الحنان؛ فيغدو التواصل إلى جسر بين نفسين تُعيد عبره الروح الصغيرة اكتشاف دفء العالم، ومعنى ملموس للحياة.

هكذا، علّمتنا هذه الحادثة أن التربية الحقيقية تبدأ حين نرى الطفل على غير ما يبدو كما يشعر، وأننا حين نضع أيدينا في يد طفولته علينا أن نفعل ذلك برفق من يعرف أن زهرة اللوتس مهما اشتدت جذورها لا تزهر إلا في ماء هادئ.

أقبل إياد، يصحبه خاله داسم إلى مدير المدرسة في صباح من صبيحة ذلك العام، أما الصباح فكان مشوبًا برائحة البدايات، حيث تختلط رهبة المجهول بآمال صغيرة لا يعرف لها الطفل اسمًا؛ قُبِل إياد تلميذًا وافدًا

جديدًا دون نقاش، واستقبله المدير بحرارة مبالغ فيها، كأنها "بروتوكول" محفوظ لا صدى له في القلب، جلس إياد يتأمل الوجوه المنثورة في ساحة المدرسة، وجوهٌ تتزاحم كزبد البحر على حواف الشاطئ، حاضرة بلا أثر، عابرة بلا ملامح.

توارى الخال تاركًا الصبي بين الحشد، بلا دليل إلا فطنته التي تحاول شق طريقها وسط خجله الكثيف، لا شك في أن الخال داسم قد أسدى لإياد خدمة جليلة حين تركه وحيدًا؛ بدافع الغريزة أكثر من الوعي، اتجه نحو الحارس يلتمس منه العون فما كان منه إلا أن قاده هذا الأخير إلى باب القسم مستأذنًا المعلم قبل أن يتركه بين المقاعد الغريبة والأنظار الفاحصة، بات ذلك اليوم بمفارقات براءته ووحشته، قد انطبع في ذاكرة إياد كوشمٍ لا يبهت.

ومن بين الوجوه، كانتا هناك عينان لسمراء تترصدانه منذ اللحظة الأولى، عينان تحملان شيئًا لا يخص الآخرين وكأنهما تخاطبانه بلسان لا يسمعه سواه، لكن أين كان إياد من الحب؟

لم يكن له منه سوى رماد التجارب - إن صح قول تجارب؛ فالسنوات التي مضت كانت كافية لتزرع فيه نفورًا من كل ما يتصل بالجسد، نفورًا مريضًا نشأ في بيئة لم تدع له فرصة البراءة.

ومع ذلك، فالسمراء تتعقبه بنظراتها، ترقب حضوره وغيابه، تحصي خطواته وكأنها تحرس سرًا بينهما (جلس

إياد يحاول بعد مضي سنوات على هذه الذكرى، يحاول تذكر اسم السمراء، لكنكم كما تعرفون سادتي هناك أشياء تغيب فيبقى منها الذكرى الجميلة، فمثلًا لم ينسى سمارها، وعينيها الحلوتين وكذلك أسنانها البيضاء)، كان يرى في ابتسامتها دعوة غامضة، ويقرأ بريق عينيها كمخطوطة لا يعرف إن كان يريد قراءتها حتى النهاية.. غير أن الواقع خارج أسوار المدرسة كان أشد قسوة؛ فما إن يعود إلى بيت الإقامة - أقرب منه إلى سجن الإقامة - حتى يقع أسير عيون الزوجة دميمة، ماكرة النظرة، تستغل غياب زوجها داسم؛ لتكشر عن أنياب السيطرة بخشونة أنيابها تترصده دوام بقائه بين جدران ذلك البيت الموبوء، حيث يتعلم أن الخوف قد يتخذ هيئة جسد، وأن النجاة ليست دائمًا في الهرب، بل في أن تبقى روحك عصيّة على التلوث.

جاءت أخت دميمة الصغرى - والتي هي في عمر إياد - وكان اسمها "لبيبة" عصر يوم السبت تلتمس منه مساعدة، كان جالسًا جلسة تأملية يحتضن فيها ركبتيه النحيلتين إلى صدره، جهاز التلفاز يعرض فيلمًا وثائقيًا عن حياة برية على صفحة الثلج البيضاء، الجليد سيطر على الأفق البعيد والقريب إلى أن ينجلي الظلام في حلقة مفرغة من البحث عن طريقة يتأقلم بها الإنسان بين أحضان الطبيعة البيضاء وقسوة عواصفها الهوجاء... وشدة برد المناطق النائية...

جلست بمحاذاته، تطلب الدفء!؟

لا بل تختبر حدود فريستها؛ أما عينيها فتبحثان في صمت اللحظة عن منفذ، بانت ابتسامتها الخافتة تخفي وراءها يقينًا بأن القرب قوة، وأن السيطرة تبدأ من كسر المسافات، تسلل البرد إلى الفناء الضيق كما يتسلل القدر إلى أعمارنا، فجعلته قوة تدخل من خلالها، هكذا تسللا بطيئًا، حتميًّا وكان إياد ساكنًا غارقًا في صور الشاشة حين شعر بملمس يدها وهي تغلّفه بالغطاء، كأنها تخط حوله دائرة ملكية لا خروج منها، لم يدرِ حينها أن هذه اللحظة ليست لحظة حنان، بل لحظة اختبار للهيمنة.

انسلت "لبيبة" إلى جواره كما تنسل الأفعى في جحرها؛ حركاتها هادئة مدروسة، لكن نيتها صاخبة متأججة وفي ملامحها البريق الممزوج بالخداع، حيث تتحول الرغبة إلى سلاح يفتك بالمدافع عن حدوده الجسدية، لم ينتبه إياد إلا حين تسللت أناملها أسفل بطنه، حينها أدرك أن اللعبة لم تكن عن القرب، بل عن الانتصار على حياء الآخر.

لم تكن تسعى إلى الحب ولا إلى اكتشاف روحٍ غريبة، بل إلى إثبات سلطة الجسد على الجسد، وإرادة الرغبة على الخضوع، كانت تعرف أن لحظة السيطرة هذه لا الواجب ولا المسؤولية، هي ما يمنحها شعور الوجود، كأنها تجسد مقولة الحياة الخفية: "من لا يملك قوةً على الآخر، لا يملك نفسه."

لو كان إياد يعِي ماهية القول هل كان ينصاع لرغبة لبيبة؟

أم أنه كان سيدحضها كما يدحض الذكريات المؤلمة؟

كلما خلا إياد إلى نفسه كانت ذاكرته تستحضر التباين الصارخ بين تصرف نيرمين وأختها لبيبة، هذه الأخيرة بما فيها من طيشٍ وسرعة انجرار، كانت أقرب إلى مرآة لبراءة مكسورة، أو ربما لبراءة لم تُمنح فرصة أن تكتمل؛ فإقبالها على فعلها الذميم لم يكن في عيني إياد مجرد نزوة، بل لغزًا يحاول أن يشرحه، أهو فضول مستعار من أحاديث الكبار؟

أم معرفة سابقة خلسةً عن طريق من لا يعرفون حدودًا؟

أم أن غزو الإلكترونيات وما تحمله من صور وأصوات هو المسؤول عن هذا الاهتزاز في وجدان الجيل، حتى بات القلب يشيخ قبل أن يبلغ حدود الحلم؟

أما نيرمين، فقد كانت على النقيض؛ أوسع أفقًا، وأكبر سنًّا، وأعمق وعيًا بخريطة المخاطر التي تنتظر شابًا في مقتبل عمره؛ لم تتعامل مع إياد بسطحية النصيحة، بل كانت تمهّد له الطريق ليرى الخطر قبل أن يقع بين فجواته، تحذره من حبال المخدرات التي تلتف حول رقاب الغافلين، ومن رفقة السوء التي تُغري بالهلاك قبل أن تمنح دفء الصحبة، تدرك أن الهشاشة الأخلاقية والاجتماعية ليست قدرًا، بل نتيجة تراكب بيئاتٍ مهملة، وأن المعرفة قد تكون طوق النجاة الوحيد لمن يعرف كيف يتمسك به.

فلا تبرح هذه الجميلة نيرمين، وبين الحين والآخر تفتح له أبواب أسرار المرحلة الإعدادية والثانوية، على سبيل الإغواء، وعلى سبيل التنوير، وحين علمت أنه انقطع عن القِبلة بدا عليها الغضب؛ لأنه ترك عادة ومسعى، ولأنها رأت فيه انحراف البوصلة التي كانت تسعى لتثبيتها على خارطة المستقبل، ومن قلب هذا المزيج من الحزم والعاطفة أهدته كتيبًا صغيرًا بين وريقاته فرائض الوضوء وسننه، وفرائض الصلاة وآدابها، كأنها تقول له:

هذا سلاحك، وهذه خريطتك.

وقبل أن تغادر، استأذنت، ثم تركت عبارتها المعلقة كجسر بين اليوم والغد:

«إذا كان الغد، جئتك بإذن الله، وحاجتي في شرح الكتيب... إن شاء الله.»

ثم أشارت بسبابتها إلى الكتيب؛ لتؤكد الموعد، ولتغرس في ذهنه أن ما بين دفتيه قد يكون أثمن من أي متعة عابرة أو صحبة زائفة،

في تلك اللحظة، أدرك إياد أن نيرمين لم تكن مجرد فتاة تكبره، بل كانت تمثل صوت الضمير الجمعي وسط ضجيج الرغبات، وأنها — بوعي أو بدونه — تحاول أن تُعيد بناء حصونه الداخلية قبل أن تلتهمه عواصف المجتمع.

فـإذا أطـلّ الصـباح التـالي، غـدا إيـاد إلـى المدرسـة ضحىً، ضحى خريفيٍّ متقلب المزاج؛ شمسٌ آخرَ الموسم كانت تلوح كملكة هرمة، تبتسم للحظـة ثـم تتـوارى خلـف حجاب السـحاب، كأنهـا تتـردد بـين العطـاء والبخـل، عبـرَ ساحة المدرسة بظلّها البارد تارة وحرارتهـا الخاطفـة تـارة أخرى، ثم انقضـت السـاعات حتـى إذا نـادى المنـادي إلـى صلاة الظهر، كان إياد قد تخطى باب المدرسـة عائـدًا إلـى الوكر.

تأخرَت دميمـة – زوجـة الخـال – عـن موعـد عملهـا دقـائق قليلـة، ودخلـت إلـى المطـبخ بثقـل خطـواتٍ تجـرّ وراءها رائحة طعام وشيء من رتابة النهار؛ أما هو فتمدّد على ظهره، يُسند رأسه إلى راحتي كفّيه، تاركًا عينيـه فـي مواجهة سقفٍ كئيب، كأنما يبحث عن فراغٍ ينسل منه، مـن المطبخ، جاء صوتها الرقيق – أو ما خُيّل إليهـا أنـه رقيـق – وهي تشدو:

«صـدّقوا الحبايـب لـو قـالوا... زمـن الهـوى تغيّـر حاله...»

كان الغناء في أذنها زقزقة بلبل علـى غصـن طـريّ، لكنه لمسـامع إيـاد لـم يكـن إلا نعيـق غـرابٍ يختبـر صـدى صـوته فـوق أرض جـرداء، ارتعـش فـي داخلـه شـعور غامض، مزيج من النفور والسخرية؛ فهي في عينيـه أنثـى تحاول عبثًـا أن تكسـو قـبح الواقـع بثـوب لحـنٍ قـديم، فيمـا الزمن من حولها يواصل تبديل ملامحه بلا رحمة.

صلى إياد الظهر، كانت دميمة قد انصرفت ببضع دقائق، ثم عاد يواجه فوضى الدار كما يواجه المرء الفوضى في داخله، من المطبخ حتى عتبة الباب الخارجي؛ كانت الشمس تميل عن كبد السماء، والنهار يتثاءب في سكون ما بعد الصلاة بساعتين ونيف من الزمن، حين سمع طرقًا خفيفًا على واجهة الباب، طرقًا بدا وكأنه يخشى إيقاظ شيء ساكن في الأعماق، فتح، فإذا نرمين تقف أمامه بقدها المياس، ووجهها الذي لا يطلب إذنًا ليدخل القلب قبل المكان، خطت خطوتين، ثم قالت، وفي صوتها خيط من الخجل تشدّه جدية خافتة:

«وهبت وقتك لتهذيب هذه الفوضى؟

أختي ـ تقصد تلك التي تغفل عن التفاصيل ـ لا تعي أن الفوضى تُثقل الروح والمكان؛ يجب أن تُبقي لنفسك فسحة من هذا كله... لتتفرغ لذاتك، ولما هو أعمق من مقررات تُحشى في جوف الورق.»

ابتسم إياد في سره كمن يدرك أن الكلمات ليست عن الأواني المتناثرة ولا الأثاث المبعثر، بل عن ترتيب ما يتجاوز الجدران؛ جلسا حيث أتيح لهما أول مجلس، وحين استوت في جلستها، نظر إليها، وفي ملامحه سؤال لم يُنطق بعد، سؤال عن الترتيب الذي يبدأ من الداخل، عن الحضور الذي يُشعر المرء أن الفوضى أحيانًا ليست في الأشياء، بل في غياب من يمنحها المعنى.

تحسب أن المساء نفسه تأهّب لموعدهما؛ الهواء ساكن إلا من همس بعيد، والضوء يتسرب من النافذة كذاكرة متعبة، تقدّمت نيرمين خطوة، وفي عينيها بريق من يعي أن المعرفة ليست ورقًا يقرأ، بل روحًا تُنقل... سألت:

«أترانا في حاجة لمناقشة أمر الكتيب؟»

لم يُجب إياد ببنت شفة، بل قام وتخلّف عن مجلسهما لحظة، ثم عاد وفي يده الكتيب، ماثلًا بينهما كوثيقة عهد، وعلى شفتي الوسيمة ارتسمت ابتسامة دافئة وناعمة، لا تكتفي بالترحيب، بل تمنح لحضورها سلطة صامتة، ألقى بالكتيب إليها، ثم اتخذ مجلسه أقرب ما يكون منها، وسأل بصوت مزيج بين الخجل والبحث:

«أما الكتيب فأحفظه عن ظهر قلب، غير أن كلمة "إسباغ الوضوء" ثقُل معناها وبعدها! فإن جُدت عليَّ بشرحها، كنت لك من الشاكرين.»

كان سؤاله، أكثر من طلب تفسيرٍ لمصطلح؛ كان اختبارًا لقدرته على الإمساك بما وراء الألفاظ، ازدادت في نيرمين حرارة الحضور؛ فامتحنته في سنن كذا وفرائض كذا؛ لتعرف جودة الحفظ، ولتقيس فيه عمق التلقي، وحين أيقنت أن فكره لم يترك شاردة ولا واردة إلا ووقف عندها، مالت تمسح وجنتيه بأناملها، كأنها تختم على جبينه شهادة عبور من الجهل إلى المعرفة، ختمًا محمودًا، يناقض ختم "الرب" في رواية "قابيل" على جبين البطل المسافر عبر الزمن 'قابيل' نفسه.

شرحت له معنى "الإسباغ" كتجلٍّ لفلسفة الاكتمال:

أن يبلغ الفعل حدَّه الأتم، وأن ينقّي الجسد كما تُصفّى النية، ظلّ الحديث يتأرجح بينهما حتى إذا ناداهما منادي أذان المغرب، انقطعت نيرمين عن الكلام المباح، وانقطعت الكلمات كما ينقطع النهر عند مصبه، وانصرفت تاركة موعدًا معلّقًا في الغد... موعدًا لمناقشة الكتيب، أو ربما لمناقشة ما لا يُدون في خبايا الكتيب.

جميلة اسمها، قد سبق ذكرها في سياق الحديث، أما نيرمين ولبيبة النقيضين كان لهما حضور وفير، أختين ظلتا على هامش الكلام، كأسماء تنتظر أن تُنطق في القصائد، واحدة تكبر إياد بعامين أو ثلاثة، حضورها عنده كظل شجرة في آخر النهار، جميل لكنه لا يمس القلب إلا الشيء اليسير.

أما التي تفصلها عن جميلة سنوات قليلة، فقد كان لها في قلبه مقام آخر، لم تكن فاتنة الجمال ولا دميمة الخلقة، بل عوان بين ذلك، حيث لا تُبهرك الملامح بقدر ما تأسرُك الروح، لم تكن تسعى وراء ضجيج المجالس ولا بريق الأحاديث، تميل إلى عزلة هادئة، وكأنها تحفظ سرًا لا يليق أن يُذاع؛ أما إذا كان الجالس إليها إياد، فأبواب الحديث تُفتح على مصراعيها؛ ليدخل إليها ببراءة وذكاء معًا، يحسن العزف على أوتار قلبها، ويعرف أن طرفًا من الفكاهة الصافية قادر على إذابة جليد عزلتها، فإذا بدت عليها نفحات البؤس، يأبى الرحيل حتى يرى ابتسامة

تنفرج معها أسارير وجهها، وكأن الشمس أشرقت من نافذة صغيرة في صباح بارد.

وفي أثناء هذا الجو المرح، تذكرت جميلة كلمة أختها دميمة التي لقّبها أهل الدار ـــ مازحين أو قساة ـــ بـ"الأفعى"، حين قالت ذات يوم:

«هونوا عليكم، فسحر الساحر يسري كما تسري النار في الهشيم.»

تلك العبارة، وإن قيلت عرضًا، بقيت عالقة في ذاكرة البيت، وكأنها حكمة سرمدية عن الحب؛ لأن القلوب تُفتح أحيانا بالملامح وبالعمر، وفي أحيان أخرى تفتح بذلك السحر الخفي الذي يتسلل دون استئذان إلى الأرواح؛ فيجعلها ترى في الآخر وطنًا صغيرًا.

وكما لا يخفى عليكم سادتي، لا تكاد تتفتح زهرة البؤس تلك حتى تتناثر وريقاتها عبثًا، فلا يروق لي أن أنغص عليكم لطافة المشهد حتى أجدني أمام مشاعر من رماد، هكذا سادتي رماد اشتدت أذياله بحبال الريح، فلم يلبث إياد هذا أن انقطع ويا أسفي عليه... عن هذه المدينة، ألم تمر عزيزي القارئ بقول الجدة:

«يبدو هذا الولد من سحناته البائسة، انظر لجمال قسماته الجافة، وتذكر كيف سيتعب، هذا إن أطال الله في عمرنا، وأرجو ألا أراه يتعب... »

لـم يكـد إيـاد يقطـع نصـف العـام الدراسـي حتـى شـدّ الرحـال عـن دار الخـال داسـم، هاربًـا مـن قسـوة لا تليـق ببراءة قلوب الأطفال، تاركًا وراءه وعـظ نيـرمين ورقـائق اللذة التي كانـت لبيبـة ـــ علـى قلتهـا ـــ تجـود بهـا كمـن يمنح الغريب جرعة ماء في صحراء.

أما في باحة المدرسـة فقد نسـجت الأيـام خيوطًـا بينـه وبين السمراء كما تنسج العناكب بيوتها بانتظام ميكـانيكي، خيوطًـا مـن حـديث هـامس ونظـرات تتـرنح بـين الحيـاء والشوق، اعتمدا لهما فسـحة مـن الوقـت تكفـي لأن تنحنـي نحـوه، وتسـكب فـي كيانـه مـن دفـء الأنثـى مـا يبـدّد عـن روحه وحشـة الغربـة، وحـين جـاء يـوم الرحيـل، أشـرقت الـدموع فـي عينيهـا الحلـوتين كنـدى الفجـر علـى ورقـة مهزومة، وقالت بصوت فيه من الرجاء والانكسار:

«أحقًا ما سمعت؟

أتراك تارك هذه المدرسة؟

أمتحول عنا؟

أترانا قصّرنا في حقك؟»

كان وقع غيابه على زملائه ثقيلًا كرحيـل شـمس عـن قرية اعتاد سكانها على الدفـء، أكثرهم قال في حسرة:

«أراغب عنا أنت يا إياد؟

أما من سبب يبقيك بيننا؟»

لقد ألفوا فيه البشاشة، واعتادوا أن يجدوا في حضوره انشراحًا لا يمنحه المنهج ولا تخلقه الجدران، أما ضيق الحياة عليه في جوف الوكر، فلا علم لهم به، إذ لم يكن إياد يبوح بجرح قلبه تمامًا كمن يخفي الجمر تحت الرماد؛ حتى لا يحرق لذة الدفء الذي يمنحه للآخرين.

وهنا يتبدى السر الأبدي في تواصل الأرواح؛ لم يكن القرب مسافة تُقاس بالأمتار، بل هو لمسة يتركها الإنسان في أرواح من أحبوه؛ فإياد وإن رحل بقيَّ فيهم كما يبقى العطر بعد أن ينقضي العناق، وكما تظل الكلمة الطيبة عالقة في الذاكرة تتردد كلما أظلم الطريق.

الفصل الرابع

حين دَنَتِ الخامسةُ مساءً، توقّفت الحافلةُ على مشارفِ مدينةِ العرائش، تلك المدينة التي تحمل في أحجارها صدى القرون والانتصارات، وتمتاز مساءاتُها بشفقِ الغروب.

نزل إياد ووالدُه إلى يمينه، وفي خطاه ثِقلُ المسافة، دويُّ الفُرقة يُلهب قلبه، كان الأفق يتلظّى بدم الشفق، والشمس تُلقي آخر أنفاسها في صدر البحر، كعاشقٍ يُسلّم روحه لحبيبته... لحظاتُ وداعٍ أبدي.

ساعةٌ ونصف منذ انطلقا على متن حافلةٍ متهالكة، لكنه لم يزل يبتسم، لأطياف أحبّته، تعبر أمام عينيه كما تعبر السحب فوق السهول، يُحيّيها كعابرِ سبيلٍ أمام غصنٍ يذكّره بحديقة الغياب.

سادتي من المستقبل البعيد، يُنادي إياد طيفَه، أو لنقل جزءًا من ذاكرته.. ويقول: "إننا لا نغادر الأمكنة يا إياد، بل نغادر بعضًا من أنفسنا، ونتركه هناك ينتظرنا بلا عودة".

آمن بالقضاء والقدر، ورأى في تخلّفه ذاك عن أحبّته صدى لهجران والديه، غير أنه ظل وفيًّا لرباط القلب بينه وبين من أحب، فإياد سيؤمن أن الخيط بين الأرواح لا تقطعه المسافات.

كان هذا الفصل من عمره مملوءًا بالمسرّات والابتسامات، لكنه كان يعلم أن للحياة ميزانًا يؤرجحها بين دمعة وابتسامة، وأن بين الجدّ والعقبات معركةً خفية لا يكسبها إلا الصابرون، أما القانطون فحصادهم الخسران؛ لأن اليأس أرضٌ لا تُنبت إلا الرماد.

انقضى السفر، وذهبت أيامه إلى زمنٍ طُوي بين دفّتي الكتاب، فلا وسيلة للبشر أن تُعيده، الماضي ذهب ولن يعود.

أما المستقبل، فبين يدي الله وحده، يكتبه كيف يشاء، أودع الله فيه من الوسائل والفرص ما يمكن لك يا سيدي أن ترضى وترضخ للقدر، كان نعمةً أو ربما كان نقمةً، إن صدق العزم وتوكّل العبد على مولاه، رأى أنه من الحكمة التمتّع بهذا الغد مهما بلغت نعمته أو نقمته.

ولا يحقّ للمرء أن يحكم على ما لم يقع بعد، فالغيب لله، ولا أن يقطع بما يجري في غيبته عنه، فالله وحده يعلم ما تخفي الصدور وما لا يُعلن الناس؛ لكن خوض التجارب -وإن شقّ على النفس- سبيلٌ إلى بناء روحٍ صلبة، ونفسٍ صابرة، وقلبٍ لا يلتفت إلا إلى ربّه.

والمؤمن الحقّ يتقن تدبير أمره، ولا يتوكّل على الخلق، بل ثقةً بالخالق، فيكون حرًّا من رقّ الحاجة، عبدًا لله وحده، أما إذا أدرجنا في نصّنا هذا التجارب، وإن كساها الألم، فتبقى هبةً من ربّ العزّة، تصوغ المرء على هيئة خيرٍ مما كان، وتورثه من النضج ما لا يناله في

الرخاء، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

"من لا يرى الأحزان لا يرى الفرح"

تمتم إياد، وتحسبه يُلقي آخر كلماته في غيابات الجب، ثم انصرف إلى طريقٍ يبتعد عن العيون ويقترب إلى بؤرة النفس، طأطأ رأسه، وأسند ظهره إلى جذع شجرة لا تورق... أو ربما لم تكن شجرة، شجرةُ البؤس التي تشرب من عرق السنين وتزهر بالخذلان، أغمض عينيه فرأى بعين القلب عتمة المسار، حيث يختلط البرق بالظلام.

انهالت عليه من كل حدبٍ وصوب خناجرُ البؤس والقنوط، فإذا بالقدر قد اختار قلبه ساحةً لمعترك البؤس، تلك البقعة التي كان الجدّ الراحل - وقد أوى إلى دار القرار- يسمّيها "البقعة المباركة"، لم يرها إياد إلا منفىً منسوجًا بخيوط الشؤم.

لا شيء فيها تطمئن له الروح، ولو مثقال ذرةٍ من المعنى، بين جدرانها يتسكّع إياد في مسارٍ معتم، وفي طرقاتها يتربّص الصدى بنفسه، أما وجوه أهلها فمرايا مشروخة تعكس الغياب المشؤوم أكثر مما تعكس الحضور.

متشعّبات هذه القطعة المشؤومة من المدينة تشبه متاهةً، كلما همّ إياد إلى الخروج منها، وجد نفسه عند ذات

الجدار وذات القرار، أمام الباب القصديري الصدئ ذاته، الذي لا يُفتح إلا على مزيدٍ من العراء.

وجد إياد في كنف الدار خالًا لا يكبره إلا بعامٍ واحد، وخالاتٍ تتوزّع ملامحهن بين الحنان الحذر والفضول الصامت... لم يكن البيت صغيرًا، بل كان متاهةً من العلاقات الصغيرة، كلّ من هؤلاء يحمل سرًّا لا يبوح به إلا لخبايا نفسه.

بعد العطلة، وفي صباحٍ غائم، ارتدى إياد ما تيسّر له من هيئةٍ تليق بالعودة، وخرج إلى المدرسة بخطوات ليست سريعة ولا بطيئة، كأنه يختبر الطريق من جديد، عند بوابة القسم الجديد أحسّ وكأنه على وشك اقتحام أرض معركةٍ مجهولة، ألفى الباب مواربًا، لكنه بدا له أثقل من سياج قلعة.

ودون أن يبادل أحدًا نظرة، اقترب وتسلّل بين المقاعد حتى احتل مكانًا فارغًا تركه صديقٌ قديم انقطعت صلته بالدراسة منذ زمن... لكسرٍ تمكّن من ساقه، إياد يعلم أن على الداخل إلى عالمٍ جديد إتقان فنّ التخفي حتى لا تلتهمه العيون قبل أن يألف المكان.. ويألفه المكان.

أناقة المعلمة، إذا نظرت إليها من قريب حسبتها نجمةً سقطت لتوّها من برجها السماوي، شعر أنها تراقبه منذ دخوله حتى استوى على الكرسي، لكنها آثرت أن تتركه في صمته، ربما لتختبره، أو لتدع الغريب ينعم في أحلام

غربته، ابتسامتها، التي وزعتها على القسم بداية، يؤسفني أن أقول: لوثةٌ هزلية أصابت وجدانه.

كان القسم مكتظًا... حوالي خمسة وثلاثين تلميذًا وتلميذةً، وقد دمجت الأستاذة بين الصفين؛ الخامس والسادس الابتدائي، كما كان الأمر بدايةً حين جُمِع الصف الأول والثاني في ماضٍ يلوح لإياد كحلمٍ قديم، هذا المزج لم يكن في الأرقام فقط، بل في الأرواح أيضًا؛ أرواحٌ ناضجة قبل أوانها، وأخرى عالقة في براءةٍ لم تعد تصلح للزمن -إن صحّ التعبير-.

هناك، في زاويته... كظم إياد غيظه كلَّ الغيظ، وشعر أن صوته انحطم في حلقه، ذاق طعم الغربة بين جدران لا تعرف اسمه، وبين وجوه تتصنّع الألفة، وهي تخفي حساباتها الصغيرة؛ راقب الشفاه وهي تتحرك بكلمات مدروسة، تبدو ظاهرًا كلمةً محسوبةً على أصحابها بالدين والقرض.

لم يشارك في أي نشاط، ولم يسعَ إلى المشاركة، الصمت كان عقدًا بينه وبين نفسه: أن يراقب أولًا ويحكم لاحقًا، خُيِّل إليه بدايةً أن العيون، بما فيها عينا الأستاذة المليحتان، تتعقبانه، لكن ربما كان ذلك وهمًا نسجه الخيلاء.

أما الأستاذة فكانت في قرارة نفسها كمن يزن الذهب في كفة، والسكوت في كفة أخرى، وتقول في سرها: "لا

يمكن أن يكون هذا الفتى مجرد كرسي إضافي... ألا تكفي هذه الجماجم الصامتة حتى نضيف إليها واحدة جديدة؟"

فيما يخص إياد، كان القسم أكثر من جدران وألواح؛ ربما مرآة يرى فيها نفسه كما لم يرها من قبل، هنا أدرك أن الغرباء لا يختبرون المكان بقدر ما يختبرهم المكان، وأن الدخول إلى عالم موازٍ يشبه الدخول إلى قلب إنسان: قد يرحب بك أو يبتلعك، لكنك لن تخرج منه كما دخلت أبدًا، يا لغرابة الأمر!

حين نطقت الأستاذة باسمه، التفت إليها، فوجد الابتسامة قد شقّت ثغرها كما يشقّ سَنَى الفجر صدر الليل في تلك القرى النائية. بدت في خطواتها خفيفة، لكنها تحمل ثقل جمال لا يُضاهى، وكأن كل خطوة منها تعزف لحنًا يستطيبه القلب قبل أن تدق طبلة الأذن.

«إياد.. كيف وجدت حال القسم والزملاء الجدد؟»

انسكبت كلماتها في أذنه دفعةً واحدة، كما ينسكب النور في جوف نافذة ظلّت موصدةً طويلًا، أراد أن يجيبها فورًا، لكن الصمت أثقل لسانه، فراح يكتفي بقراءة ملامحها كما يقرأ المسافر - قديمًا - خريطة النجوم.

ثم جاء عرضها: عقد اتفاق، مشاركة، هكذا سمعها تقول، أو ستطلعه على سر.

ابتسم إياد أخيرًا، وقال بصوت مسموع:

«موافق! وأنا عند حسن ظنك من الغد.. لكن إن أفصحتِ عن الأمر حالًا، فأعدكِ أيتها الأستاذة أن لا تنبس شفتاي بحرف مما تُسرّين»

اقتربت حتى كاد عطرها يكتب تاريخًا على جلده، ومدّت أصابعها الرقيقة إلى وجنتيه، لم تكن لمسة تعليم، بل كانت لمسةً تُعيد المرء إلى طفولته، ثم دنت منه قليلًا، كأنها تهمس بالسرّ في أذن الوقت، قالت وهي تشير بسبابتها إلى حيث تريد:

«إذن غدًا، قبل دخول الجميع، أجدك هناك.. تنتظرني.»

وقف إياد بعد رحيلها ونظر إلى مكان الإشارة، ثم همس لنفسه بصوت كله رقة وعذوبة:

«أيتها الغريبة التي صارت مألوفة في لحظة، غدًا سأجيء.. لا لأنتظر الموعد، بل لأنتظر ما ستفعله بي كلمتك حين تُقال.»

راجع إياد ليلتئذ ما ينبغي مراجعته، وأرهق يده بعشرات من التمارين، حتى باغته نعاس ثقيل، فلما أسفر الصبح، حمل نفسه إلى المدرسة بخطى مترددة، يود لو يغيب عن عيون كل من يرمقه بنظرة الغريب.

دق الجرس، الذي كان عبارة عن تصفيق المعلم، وشرعت الأبواب كما تُفتح أبواب مسرح كبير، كلّ تلميذ

يعتلـي خشـبته ليـؤدي دوره، جلـس إيـاد حيـث اتفـق مـع معلمته، كمن يلتزم عهدًا خفيًا.

دخل التلاميذ أفواجًا، فإذا بها تظهر: المعلمة كانت في غاية الأبهة والجمال، مهيبة الطلعة، أنيقـة الملـبس، رشـيقة الممشى، في يدها نظارات شمسية تحجب نصف أسرارها، وتكشف النصف الآخر، تقدمت نحوه بخطى ملائكية، حتى صارت وجهًا لوجه معه، تكلمت بصوت رقيق، لكنه مشبع بصرامة غامضة، كأنّه منبعث من شجن النايات:

«إذن، نحن على اتفاق، لا مزيد من هؤلاء...»

وأشارت بيدها إلى القسم الممتلئ؛ ثم أضـافت، بعينـين تلمعان خلف لونهما البني الداكن:

«لقد رأيتَ أن هنـاك فتـاة واحـدة فقـط، ومـا أود قولـه اليوم أن هذه الزميلة... لا يجـب أن تكرههـا، ولا أن تكـره زمـلاءك، الكراهيـة لا تبنـي، بـل تهـدم، مـا عليـك إلا أن تتحداها، وأن تتحدى الأخريات أيضًا، تفوّق عليهن، أو كن مثلهن، إنهنّ مغرورات نعم، لكـن الغـرور أحيانًـا لـيس إلا قناعًا للقوة، وقـد منحـتهن هـذه الغطرسـة سـلطةً علـى جـوّ القسم.»

صمتت قليلًا، ثم تابعت بصوت أقرب إلى الوحي:

«أنـا أقـف إلـى جـانبهن، لـيس لأنهـن علـى حـقّ، بـل لأنهن أثبتن لي بجدارة القـدرة علـى السـيطرة، وأنـت أيهـا الغريب صرت دخيلًا غير مرغـوب فيـه، فلـتكن شـجاعتك

في أن تدخل الحلبة، أن توقعهن في شراك المنافسة، أن تجعل من تفوّقك إعلانًا لوجودك، وإن أنت ظفرت بهنّ، فسيكون لنصرك هذا هدية مني... لا جائزة للتلميذ المجتهد، بل شهادة على أن المختلف قد غلب الجماعة.»

تردّد في قلب إياد صدى الكلمات، لم يرَ في عينيها معلمة فحسب، بل فيلسوفة تُخفي تحت مظهرها الأنيق درسًا أعمق من الدرس المطبوع على الورق: أن المجتمع فصلٌ طويل من الصراع بين الداخل والخارج، بين القبول والرفض، بين الفرد الذي يبحث عن ذاته والجماعة التي تسعى لتطويعه.

قالت ما قالت، ثم صمتت كأنها تختبر صدى كلماتها داخل الوافد الغريب، لم يجب إياد، إنما اكتفى بابتسامة هادئة، كابتسامة من يدرك أن المعركة لم تبدأ بعد، قادته إلى مكان جديد خصصته له، كأنها تمنحه مسرحًا صغيرًا داخل المسرح الأكبر، ليختبر ترددات صوته بعيدًا عن ضجيج الآخرين.

أما درس صباحئذٍ فيحتاج من صفاء الذهن ودقة الإدراك الشيء الكثير.. لكن، هل علمت المعلمة ـ أو علِمن الفتيات ـ أن إياد قد هيّأ نفسه لهذا الموعد، وسهر نصف ليلته يروض عقله كي لا يتعثر في حضرة الاختبار؟

ومع تقدمه، بدأ الحقد ينسلّ بين الناهدات زميلات المدرسة، لم يكن صمت إياد خضوعًا، بل كان مكرًا،

والمكر في عينيه كالنور المخبوء في خمود الرماد، لم يقف عند حدود الرد على استهزاء المتعجرفات، بل خطط أن يُحيي في غريزة الذكور الذين همّشتهم سطوة الفتيات روح التنافس، بثّ بينهم شعلة التحدي، وردّ إليهم بعضًا من مكانتهم المسلوبة.

تبدّل المشهد وانبثقت الفوضى بين طاولات القسم، لكن ليست فوضى العبث، بل فوضى الميلاد الجديد... صوت يريد أن يعلو، وصوت أبى الرضوخ للأمر الواقع، كل فرد يطلب أن يكون محور الكون، أما تلك اللحظة فمجرد صورة مصغّرة للمجتمع: السلطة في يد من يتجرأ، والصمت موت صغير.

ذات مساء، وقد اشتد الصراع، ثارت زعيمتهن في وجهه.. لم تثر على زملائه، بل على إياد وحده؛ لأنه صار رمزًا لانكسار هيبتهن، خرجت كلماتها مثل شرر يتطاير من فم النار، تلطخ الجو برذاذ غضبها:

«كان الجميع ينعم بالسلم والسلام، حتى أقبل هذا المتعجرف، من تظن نفسك أيها الوغد؟ حتى تنكس رفعتنا! سحقًا لك أيها اللعين...»

لحظتئذٍ، لم تكن زعيمة الصف تتكلم باسم نفسها، بل باسم الجماعة التي شعرت بتهديد الفرد، لقد صار إياد الغريب الخارج عن الطاعة، ذلك الذي يعلن أن المكان لا يُمنح، ولكنه يُنتزع.

أما المعلمة ـ وهي تراقب من بعيد ـ فتعرف أن ما يجري ليس درسًا في الحساب أو اللغة، بل درسًا في السوسيولوجيا: كيف يواجه الفرد جماعة تأنف من المختلف، وكيف يولد التوازن حين يُلقى في النهر حجر يكسر سكونه.

قبل أن تستشيط غيظًا وتكشف عن حقدها الدفين، قبض إياد على معصمها برفق، وسحبها إلى زاوية بعيدة لا يبلغها صخب الزملاء، قاومت لحظة، لكنه أصر، ليس بسطوة اليد، بل بإصرار الروح التي ترى أبعد من نزق اللحظة، شعر بارتجافها، باضطرابها الذي لم يكن وليد كراهية، بل وليد خوف من فقدان السلطة التي أوهمتها أنها ملكت زمام العالم.

قال ببطء، وكأن كلماته تُبنى على صخر:

«يا صديقتي، أنا لم أهِنكن يومًا، لا قولًا ولا فعلًا، وما أردت من هذا الصراع مجدًا ولا عرشًا وهميًا، إنما أردت أن أمد يدي لهؤلاء الأصدقاء، لعلهم يجدون في العلم ملاذًا لا يُخدش بالغرور، الدراسة ـ صدقيني ـ روح مقدسة قدّسها الله حين جعل أول كلماته للبشر: "اقرأ" هي ليست تنهيدة حسد، ولا دمعة قهر، إنما هي ابتسامة توقظ القلوب من غفلتها.»

ثم توقف قليلًا، كأنما يصغي لصوت داخلي يتردد في أعماقه: هل يسمعونني حقًا؟ أم أنني كالغريب الذي يصرخ

في وادٍ مقفر؟ ولكن، أيكون الغريب أقل شأنًا لأنه وحيد؟ أليس الغريب هو الذي يمنح المعنى لوجود القطيع؟

استأنف بنبرة أشد عمقًا:

«لا يمكننا أن ندع الغرور والعاطفة السقيمة تحكمنا هنا، إن كنا طلاب علم، فلنكن فريقًا، نتقاسم النصر كما نتقاسم الخبز..»

قال هذا، وأخذ من بين يدها قطعة حلوى.

«لست أبحث عن علوٍّ فوق أحد، بل عن لقاءٍ صادق يجعل من القراءة لعبتنا الجماعية.. أما أن نظل أسرى الأنانية، نتصارع على فتات وهمي، فذلك عبث لا أرضاه»

أطرق لحظة، ثم رفع بصره إليها، في عينيه حزم وشفقة:

«قولي ما شئت: متعجرف، غريب، دخيل... كل ذلك أقبله، الغريب يعرف أنه لا يملك غير صدقه، وأن الغربة ليست عزلة، بل مقام من يرى بوضوح ما يتعامى عنه الآخرون. وإن فهمتن يومًا قصدي، فمرحبًا بكن زميلات الدرب، وإلا فالذنب على من يختار العمى.»

اقترب قليلًا، ومد يده بخفة كمن يطفئ جمرًا، لا كمن يشعل نارًا، داعب وجنتها بحنوٍّ فيه عتاب خفي، ثم سار بجانبها حتى بلغا باب الساحة. قبل أن يبلغا الأصدقاء،

همس بصوت خافت، صوته هذه المرة لم يكن وعظًا، بل رجاءً إنسانيًا صادقًا:

«هيه... ابتسمي إنك حين تبتسمين، تربحين معركتك قبل أن تبدأ»

وفي داخله ارتجف سؤال آخر لم يجرؤ على البوح به: لكن من يربح معركتي أنا، غريبًا كنت أم شريكًا؟ أأنا الذي أعلّمهم معنى الجماعة، أم الجماعة التي ستعلّمني مرارة الغربة؟

أما الأستاذة، فكانت تراقب المشهد من وراء حجابٍ شفاف، عيناها معلّقتان بما يجري، دون أن تنبس ببنت شفة، كأنها تعلم أن بعض الصراعات، نضجها بالسكوت يكتمل لا بالتدخل. في القسم، كان الجو مشبعًا بروح المشاركة الجديدة، كأن نارًا أُخمدت في صدور الذكور، وشمعةً أُطفئت في قلوب الفتيات الناهدات.

لاحظ إياد ما ارتسم على وجوههن: خيبة، اندهاش، أم ارتباك؟ أحس بتيار خفي يسري داخله، تيار لم يكن فرحًا بالانتصار، بل ثقلًا يتذكره الغريب كلما لمس أثره في الآخرين.

أهكذا أبدو؟ كمن يهدم لا من يبني؟

سأل نفسه في صمت..

«لكني لم أظلم أحدًا... أنا فقط أعيد توزيع الأدوار كما يجب أن تكون، حتى لا تبقى شمس التفوق حكرًا على الناهدات المتعجرفات، أيمكن للغريب أن يحمل شعلة للآخرين دون أن يحترق؟»

مد يده إلى ورقة، كتب بخط متردد، فيه شيء من السخرية وشيء من الرجاء:

«سمية، أنا لست سيئًا إلى هذا الحد.. يمكنني أن أصل إلى العصفور في صدرك، أن أمد يدي أداعبه ليعود إلى الغناء. لا تُحمّلي الناقة ما لا تطيق.. أنا معكن أيضًا، أقسم إن لم تشاركي، فسأخبر الأستاذة بكل شيء»

وصلت الرسالة إلى سمية، قرأتها، رفعت بصرها نحوه بابتسامة كسرت سياج الحزن الذي كان يطوّق وجهها، ثم كتبت بمرح طفولي:

«إياد، نسيت كتبي، اليوم أنا في عطلة، على ما يبدو إذن، أنت صديقي، ويمكنك التغطية، أليس كذلك؟»

ابتسم إياد.. ولم يتردد، حمل كتبه كلها، ومضى بها إلى سمية، بعد أن فاءت المعلمة، اندهشت، احمرّت وجنتاها كطفلة اكتشفت أن العالم لا يزال يخبئ بعض الحنان.. وبين يديها، ورقة أخرى:

«التغطية إذن! ستجدين كل الشفرات مفعّلة، لقد قمت بحل الواجبات مسبقًا.. أما أنا فسأتدبر أمري مع هذا الصديق، إياكِ أن تنسي: ابتسمي... كوني أنثى قوية»

حين رأى توهج وجهها، سمع صوتًا داخليًا يوشوشه:

أتراني أضلّلها بابتسامة عابرة، أم أنني أزرع في صدرها بذرة مقاومة؟ هل الغريب يملك حقًا أن يداوي جراح الآخرين، وهو نفسه مثخن بالجراح؟ أم أن غربته وحدها تمنحه تلك القدرة، لأنه لا ينتظر شيئًا لنفسه؟

ابتسم في سرّه، ثم قال في قرارة نفسه: في مجتمع نرجسي قذر، حيث الكل يريد أن يظهر متفوقًا على الكل، ربما يكفي أن أكون "المُغطي"، الذي يكتب عن الآخرين، الذي يترك لهم مكانًا يبتسمون فيه.. الغريب لا يملك مجدًا شخصيًا، لكنه يملك رفاهية أن يمنح المجد لغيره.. وهذا وحده عزاءٌ عظيم..

ولما انقشعت الغيوم عن صدور الفتيات، عدن بالدفء إلى فضاء القسم، وعاد إياد، يُحِطْنَه بصداقةٍ مترددة، كأنهن يكتشفن فيه ما لم يرينه من قبل.. قلن إنهن صديقات، ربما، وكان يتهامس بعض الصبية بالترهات: "أن من بينهن عاشقات". لكنه كان قد أخذ على نفسه عهدًا: ألا يقترب من جسدٍ بعد.

فالاقتراب صار مرادفًا للسقوط، وصار الجسد عنده أشبه بوعاءٍ ملوث، تُسقى فيه خمرة الرغبة حتى يتعفن؛ إنه تاريخ قديم محفور في أعمق تجاويف قلبه، تاريخ روائح جنسية قذرة، لمسات دافئة، لكنها محمّلة بالسمّ، همسات تثير فيه الحنين إلى شبحين لا يغيبان: علياء وأختها الكبرى.

كانتا أولى الشرارات، بوابتين فتحهما شيطانان، عقربان لم ينالا أبدًا القصاص على جريمتيهما؛ فمن ذا الذي يقيم حكمًا شرعيًا على اغتيال الطفولة؟ ومن ذا الذي يملك أن يعيد إليه ما نُهب منه في لحظة سهو المجتمع؟

لقد كان إياد لقمة سائغة لكل من تشتهيه وقتئذٍ.. جسده لم يعد ملكًا له، بل صار حقلًا للتجارب، أداةً للتسلية، وجد نفسه أحيانًا أسير نزوات بنات عماته، وأحيانًا أسير أفكار خبيثة... هناك، بين الجبال، في القرى المشؤومة النائية، لا أحد يبالي بطفولةٍ تُغتصب، لا أحد يسمع صراخًا يضيع بين جدران الصمت.

كان يدرك، كلما أغمض عينيه الدامعتين، أن حياته ليست سوى نصًا سوسيولوجيًا معقدًا:

مجتمع يصوغ أجساد الأطفال على أنها متاع.

عائلات تكمم الأفواه حفاظًا على الشرف المزعوم.

صمت أخلاقي يغطي على أبشع الجرائم.

أما هو، فبقي يتأمل ذاته: هل أنا ضحية أم شريك؟ هل أنا طفل مكسور أم رجل مبكر؟

لم يعد يطيق تلك الأسئلة، لكنه لم يجد عنها مهربًا؛ يشعر أن الغرباء الذين مرّوا بجسده قد تركوا فيه أوتاد حقد غائرة، لكنهم لم ينتبهوا أن ما صنعوه لم يكن شهوةً عابرة فحسب، بل كان نفيًا لبراءةٍ كاملة.

وكلما تذكر ابتسامة "سيليا"، أو حنان "نيرمين"، أو صمت "تاليا"، كان يتساءل: كيف أميز بين عاطفة بريئة وجرح قديم متجدد؟ كيف أتعلم الحب من جديد، وأنا لم أعرفه إلا كقهر؟

هكذا صار إياد غريبًا حتى عن نفسه، غريبًا في المجتمع، وغريبًا في جسده، لكنه، رغم كل شيء، ما زال يقسم سرًا: أنه سيحوّل هذا الجرح إلى درس.. أن يجعل من نكبته سؤالًا اجتماعيًا خالدًا:

من يملك جسد الطفل؟ هو أم المجتمع؟ من يغتصب حقه أولًا: المعتدي أم الصامت؟

فإذا أوشكت الشمس على المغيب، جلس إياد عند واجهة البحر... الشمس، كعادتها، تهوي ببطء في جوف المحيط في العرائش، تتدرج السماء بلون أرجواني فاتح، تحسبها تاركة للمدينة آخر تحية قبل أن تغادرها..

هناك، في تلك اللحظة المعلقة بين النور والعتمة، همّ إياد ليودّع الأيام، يودّع الأحداث، يودّع الملذات والمشقات، كل وداع يولّد في قلبه وداعًا آخر، حتى غدا عمره سلسلة من الانطفاءات الصغيرة.

الظلمة تضمّه كما ضمته الوالدة بعينين جافتين وفؤاد مسلوب، لكن ابتسامة عابرة تفلت من بين شفتيه، فينتعش للحظة، قبل عودته إلى القوقعة الضيقة، يتسع صدره

لأوجاع السنين، لكنه لا يجد متسعًا لراحته هو، كراحة أبدية.

تنهيدة طويلة، بدت ككيان مستقلّ يرحل إلى الماوراء، عالم لا يضيق، لا يخذل.. هناك ستبقى تنهيدته تنتظره كما انتظرته "تاليا" في غابر الأيام، حتى يحين اللقاء.. وهناك، إذا أزف وقت اللقيا الموعود، أقدّر أنه سيفرغ جوفه من مستحاثات خلفتها السنون.

رفع رأسه إلى السماء، وقد تناثرت النجوم كعين شاهدة على ضعفه، دمعة ثقيلة انحدرت من محجريه، تساءلت بصوتها الخافت: إلى أين تأخذني هذه المنحدرات؟ ما نهاية هذا الانحدار، هوة أم خلاص؟

سقطت الدمعة على الرمل، وهنالك، في صمت الليل، بدت كأنها تُنبت زهرة.. زهرة شائكة قاتمة، عبقة برائحة فاسدة، طلعها كابتسامة شيطان، زهرةً لا تشبه الورود، زهرة سماها إياد في سره: زهرة البؤس.

وكان يعرف، وهو يراها في خيلائه، أنها ليست إلا مرآة لروحه...

توارت الأيام، كما تتوارى الشمس في آخر النهار، وها هو إياد يقف عند عتبة التحول، بين صبي يجرّ وراءه أثقال سنوات الابتدائية وبين فتى يوشك أن يُلقى في بحر الإعدادية، عند بوابة المدرسة انتصب لوحٌ أسود، كشاهد قبر، كتب عليه اسم الميت ورقم القبر، تقدّم بخطوات

بائسة، مترددة، لكنّ ابتسامة خفيفة كانت تختال على الشفاه، وشرارةٌ مستترة تلمع في عينيه؛ زملاؤه يرونه قويًّا واثقًا، فينادونه من بعيد، يستنجدونه؛ أمّا هو فيغالب رجفة الداخل التي لا يراها أحد.

اللحظات الفاصلة بين مرحلتين دراسيتين. قنطرة عابرة بين وعيين: وعي الطفولة المطمئنة إلى قوانين اللعب، التي سلبت من طفولة إياد سلبًا، ووعي الناشئة الذي يُلقى فجأة في معترك الوجود، حيث النجاح ليس عبورًا وامتحانًا، بل امتحانًا في العبور، قليل منهم سيظل أسير الصف القديم، أما الآخرون فسيركبون القطار الجديد.

حين انقضى الامتحان، وانتهى الصيف بما فيه من فراغ وضجر، عادت الحركة تصبغ طرقات المدارس، مصحوبةً بصراخ الأطفال وضحكاتهم وأحلامهم الصغيرة، الخريف قد بدأ يخلع رداء أوراقه، والإعدادية تمدّ ذراعيها مثل وحشٍ ضخم فاتح فمه، يبتلع الداخلين إليه، هناك إياد، وسط الزحام، يتخبّط بلا جهة، كأنه غريب في سوقٍ صاخبة، غير أنّ رأسه، وإن كان تائهًا، قد بدأ يلتقط الخيط: خيط الوعي بأن الصراع الحقيقي ليس داخل المؤسسات ولا يخص المعلمين، بل مع تلك البنية الملتوية التي اسمها "الأسرة".

في البيت كان يواجه فساد الدم العائلي: نزعات الغريزة، سطوة الخال، الأنثى التي تُستَخدم كأداة ابتذال وليست الروح المشرقة، وفي المدرسة كان يواجه صورةً

أخـرى لـذلك الفسـاد: غـرور الفتيـات الناشـئات، تسـلّط المعلمات، صراع الذكور على إثبات الوجود، القدر وضـع إياد في مختبرٍ اجتماعي؛ ليرى كيف يتصرّف الغريب فـي حضـرة الجمـوع التـي لا تعتـرف بـالمتخلف عـن سـرب القطيع.

شيئًا فشيئًا، بدأ إياد يفهم ما له وما عليه، وكيف يكـون أكثر من مجرد تلميذ يكتـب وينسـى، عليـه أن يُنصـت إلـى صـوته الـداخلي: ذاك الصـوت الممـزّق بـين البـراءة والانحراف، بين الفضيلة والتمرد، بين الحلم والخذلان.

لقد كانت المدرسة بالنسبة لـه مجهـرًا صـغيرًا للعـالم: قاعـة الامتحـان ليسـت سـوى صـورة مصـغرة لقاعـات المحاكم التي يحكم فيها البشر بعضهم علـى بعض، سـاحة اللعـب مـا هـي إلا برلمـان ضـاحك تـدار فيـه مـؤامرات صغيرة فاسدة، والمعلمة، تلـك التـي تحـاول أن تـزرع فيـه حافز التحدي، بدت كأنهـا قـاضٍ علـيم أو صـحابية يائسـة؛ تعرف أن الفوضى ستأكل الجميـع، لكنهـا مـع ذلـك تمنحـه قبسًـا مـن أمـل، كأنهـا تقـول لـه: اصـنع مكانـك بعرقـك لا بانسحابك، اجعل من وحدتك سلاحًا، ومن عزلتك مرآة.

وهكـذا كـان إيـاد يتهيـأ لـدخول ملحمـة جديـدة، ككـائن يبحث عن معنى وجـوده فـي مجتمـع نرجسـي قـذر، حيـث البراءة مهد الوأد، فإذا انقضى العشاء، يُرى إيـاد مـا يـزال على كرسيه يتأمـل أركـان البيـت، تلـك الأركـان المنطفئـة التي لا يشع منها نورٌ ولا أمل، في صمتِ المائـدة البـاردة، كان الطعـام موضـوعًا علـى الطاولـة كجثـة لا شـهية لهـا،

الخبز يابس، الشاي مرّ، واللقيمات موزّعة بلا اكتراث، كأنها صدقة لبطون عابرة.

جلس... يمد يده إلى كسرة الخبز، ثم سحبها كمن يخشى أن يلمس شيئًا محرمًا، هل تكمن ماهية الأكل في سدّ فوهة الجوع فقط؟ أم أنه طقس يومي يعيد إنتاج عبودية الحياة، حيث يلتهم الإنسان ما يقيه من الموت لا أكثر؟

كان يفكر: الغريب لا يأكل، الغريب يتأمل الخبز كما يتأمل الفيلسوف الحجر، الغريب لا يشرب، بل يتجرع الغربة بامتعاض.

في كل لقمة كان إياد يرى مرآةً؛ مرآة الخال الذي يلتهم نصيبه بشراهة، مرآة الخالة التي تلوك الطعام بفتور...

وفي نفسه تمتم:

"يا ليت الطعام كان خبزًا من يد جدتي أو العمة عويشة، أو قهوة سوداء تُدار في مجلس الجد الذي لا يعرف معنى الخيانة، إنما ها هنا طعام يتيم، بلا روح، بلا دفء... حتى اللقمة صارت غريبة، وأنا غريبها."

أكل إياد بصمت، لكن في داخله يمضغ شيئًا آخر: لاكَ أسئلته. ماذا يعني أن يعيش في بيت يشاركه فيه آخرون الخبز دون أن يشاركوه الروح؟ ماذا يعني أن يمتلئ البطن ويبقى القلب جائعًا؟

لقد أدرك في تلك اللحظة، وخمن: أن تأكل يعني أن تستعير حياة من شيء آخر، أن تنجو مؤقتًا من الموت، أن تؤجل الفناء في لقمة تدفعها في جوفك، ومع ذلك، كان في داخله جوع آخر لا تملؤه الموائد: جوع إلى معنى الوجود، جوع إلى حبّ طاهر، جوع إلى حضن لا يخن، جوع إلى وطن لم تدنسه مسؤولية خاملة فاترة، رفع رأسه المطأطأ، نظر في الأركان المنطفئة، ثم قال في سره: "كلنا نأكل... لكن قليلًا منّا يعرف لماذا يعيش."

في الهزيع الأخير من الليل، كان صوت الأذان يتسلّل إلى مسامع إياد، لا يعرف إن كان يستيقظ به أم يُعاد من سباته الأبدي، نهض متثاقلًا، غسل وجهه بماءٍ بارد، ماء يُذكّره ببرودة العالم من حوله، توضّأ وصلى، الصلاة لم تكن سوى وقفة قصيرة بينه وبين الله، استعاد بها إدراكه الحاد بأن الوحدة تغطي وجدانه، جلس على الكرسي، يتأمّل نفسه، ثم تمتم بهدوء: "لو كان لي الحظ، لحظيت بكوب قهوة يبدّد هذا الصمت الثقيل... لكنّي محاط بضجيج آخر لا ينتهي، ضجيج خالي الصغير الذي يملأ المكان بشخيره، كأنّما يسخر مني وأنا أبحث عن السكون."

جلس خلف المكتب، مدّ أنامله المتثاقلة إلى كتبه ودفاتره، وأحس أن دفء الورق يخفّف قليلًا من برد الروح، الكتابة، الحساب، الكلمات، لم تكن مجرد واجبات منزلية، بل كانت جدارًا يحتمي خلفه من زحف الفراغ إلى بوتقة الروح.

حين توهّجت أشعة الشمس عبر النافذة، أحس أنها تجرحه بدل أن تضيء يومه، بدا النور له كحبل خشن يُسحب على جلده، طوى كتبه على مهل، ثم نهض بخطى واثقة، دخل المطبخ، دقائق معدودات، وكان الفطور أمامه: خبز، شاي، الزيت والزيتون، أكل بصمت، أنهى طعامه ونظف أسنانه بعناية شديدة، لم يكن ذلك عشقا للنظام، بل لأنه يهاب أن يزيد الفوضى فوضى. كان ترتيب الأشياء بعد الأكل طقسًا صغيرًا يذكّره أن العالم — مهما بدا غريبًا — يحتاج أن يعاد إلى مكانه، ولو شكليًا.

حين غادر البيت، لم يشعر أنّه يخرج، بل كأن خطواته تجرّ جسدًا أثقل من أن يُحمل، كأن روحه لم تعد تعرف إن كانت تمشي إلى الحياة أم إلى اللاشيء.

يتوجه بخطى مترددة نحو باب المطبخ، في كل خطوة شيء يقوده إلى قدرٍ مكتوب منذ الطفولة، ما إن يعود من المدرسة، حيث حلمٌ صغير بالعلم يضيء قلبه، حتى يجد في انتظاره مهمات تجثم على صدره.. وإن رفض، أو حاول الاعتراض، صبّت عليه الحياة المنكوحة عباراتها الداعرة، على مائدة العشاء، تشدقات أشد من الجوع.

يعرف أن الصبر درعه الوحيد، وأن المشؤوم لا يملك إلا أن يحني رأسه في وجه العاصفة؛ فالحياة هنا لا تختلف عن خبايا الغاب: استيلاء القوي وتسلطه، والضعيف يُسلب لقمة عيشه وصوته معًا.

دامت نحافة إياد مثالًا تتناقله الألسن: "إنه من المتفوقين، من المجدين، من المؤدبين" كلمات تُقال كما تُعلَّق الأوسمة على جسد جندي مبتور الأطراف، لكنها لا تُطعم ولا تدفئ، الفتى يعيش على فتات الحياة، يتغذى من صبره ومن رحمة قليلة ينثرها القدر بين حين وآخر.

في الليل، حين يغمر السواد الأزقة وتغلق البيوت أبوابها، كان إياد يجلس في ركن وحيد، يستحضر وجوه المدمنين على الأرصفة، كأنهم أشباح المستقبل التي تنتظره، يرتشف من وهمه بدل القهوة، ويبتسم ابتسامة صغيرة تظهر مرارة مساءاته، قليلًا ما ينام، وكثيرًا ما يسأل نفسه: أي حياة هذه التي يُترك فيها الفتى يصارع البؤس وحده؟

الفصل الخامس

وكاستراتيجية دفاعية للعقل الباطن، يميل هؤلاء الأشخاص –مثل إياد– إلى فكرة الهجر قبل أن يُهجَروا، يعيشون وهم التَّخلي بوصفه مصيرًا محتومًا حتى يصبح رفيقهم الدَّائم، يلوّن كل علاقاتهم بالقلق والرَّيبة، تتسلل إليهم "فوبيا الهجر"، فتغدو أجسادهم مشدودة كالأوتار، وعقولهم متأهبة لانكسار، كأنهم ينسجون لأنفسهم دروعًا وقائية؛ يراها البعض أنانية أو برودًا عاطفيًا، لكنها في حقيقتها مجرد انعكاس لتجارب مريرة متراكمة.

من بين هؤلاء كان إياد في مرحلة نادرة من الاطمئنان والثِّقة، وجد نفسه فجأة بين مخالب الهجر وأنياب الخوف والتِّرحال هناك، حيث ينتظر الطِّفل عادةً أنْ يُحتضن ويُدلل، وجد نفسه يواجه فراغًا موحشًا، حُرم من أبسط حقوقه: حق الأحضان التي تبث الطَّمأنينة، حق القُبَل التي تلجم فوهة البكاء، حق اللعب والمرح الذي تُبنى بهما هوية الطُّفولة، كل ما حُرم منه يتراكم في داخله كعُقد نفسية دفينة، فأُغتصب حقه في أن يكون طفلًا.

تلك المرارة أنبتت في أعماقه بذرة نفور، سرعان ما تحولت إلى ميل دائم للهرب بعيدًا عن الآخرين؛ بعيدًا حيث لا أحد هناك، في عزلته الدَّاخلية الموحشة يقضي أوقات فراغه غارقًا في أوهام الأمد البعيد، كأنَّ خدر الوحدة يسكّن آلامه مؤقتًا، لكن في باطنه تتشكل شخصية

على هيئة كيان مأزوم: بين حاجة ملحة للحب، ورغبة عنيفة في رفضه سلفًا خشية الفقد.

هكذا تجهّم وجه الحياة في نظره، لم تعد الطُّفولة عنده ذكرى براءة بل مسرحًا للخذلان، ذاق المرارة فارتسمت على ملامحه قسوة لم يخترها، قسوة انتشرت داخله كشرارة لا تهدأ، كان يعود إلى ذاته المثقلة ليبكي –لم يبك على فقدٍ محدد– بل على أطلال الرَّأفة كلها، تلك التي لم يعرفها إلا كحلم بعيد أو كذكرى لم يعشها قط.

استئناف الرِّحلة أمر طفولي طبيعي، يتوغل فيه الصِّبية الذين انتُهكت طفولتهم، كأنهم يسيرون على جراحهم دون وعي.. هناك، على بياض الصَّفحات التي كان يُفترض أنْ تُرسم ملامح مستقبل حافل بالمسرات والملذات، أسودّ البياض مبكرًا وتحوّل رمادًا منثورًا بين أثداء حياة داعرة، أحلام الطُّفولة التي وُئدت قبل أنْ تنضج، تحولت إلى كوابيس متجهمة وإلى عبء داخلي يثقل الكيان الصَّغير، يدنس نقاءه كما تدنس الأهوالُ الثَّلج النقيّ ببقايا العفن.

تابع إياد دراسته الإعدادية وهو يتقاذف بين ضفتين متناقضتين: لذة التَّفوق التي تمنحه لحظة خادعة من النَّشوة، وأمواج المشقة التي تعيده إلى واقعه المحموم.. لم يكن تفوقه مجرد تحصيل دراسي، بل كان أشبه بمحاولة لا شعورية للانتقام من الشُّعور بالوحدة والحرمان، ووسيلة دفاع يائس يثبت بها –لنفسه قبل الآخرين– أنه يستحق أن يكون موجودًا.

في البداية أقنع نفسه بأنَّ بعض التَّضحيات ضرورية من أجل غدٍ مشتعل بالأمل، لكن تلك التَّضحيات سرعان ما تحولت إلى نزيف داخلي، توقف عن الاستجابة لانفجارات ذاته المغتربة، كبت ردود أفعاله وكأنَّ الصَّمت درعه الأخير ضد القسوة، والرِّضا المزيّف هو الثَّمن الوحيد ليستمر، يداه المرتعشتان –اللتان لطالما اشتهتا كسر غرور أفراد أسرته– انكمشتا عن الفعل، وارتضتا أنْ تنكفئا على الورق.

يكتب بريشته قبل أنْ يعيدها إلى المحبرة، إياد يعي أنَّ الكتابة نفسها فعل مقاومة صامت، يسكب فيها ما لم يستطع أنْ يصرخ به في وجه العائلة، ويجعل من الحبر سلاحًا رمزيًا تعويضًا لدموعه التي لم يجرؤ أن يذرفها علنًا، كل كلمة تنبثق من قلمه أشبه بجمر صغير يطفئ داخله بعضًا من لهيب القهر، وكل سطر يُسطره لم يكن مجرد كتابة، بل كان ضربًا من العلاج الخفي، أو ربما محاكمة سرية للحياة التي يداومها.

كتب:

"لا بد للقيد أنْ ينكسر، لا بد للشرارة أنْ تنطفئ، لا بد للمهزوم – المظلوم – أنْ ينتصر، لا بد للشر أنْ يندثر... لا بد لي أنْ أُشهر سيف التَّمرد في وجه الحياة، لا بد لي أنْ أكسر أصفاد المعاناة، بعد عام أو أعوام سأنظف قرح الجرح بالضِّمادات، وأسبح عكس التَّيار، لعلي أجد نفسي بين جبال الوحدة أو منفى قرب الأهرامات".

كانت هذه الكلمات أقرب إلى مناجاة طفل جُرّد من طفولته، لكنها أيضًا كانت طوق نجاته؛ فإياد لم يكن يكتب فقط ليحلم، بل ليقنع نفسه بأنَّ للحلم معنى.

بنى إياد علاقات جديدة بين أسوار المؤسسة، بات يتقاسم السُّويعات رفقة من يطلق عليهم في سرّه "أصدقاء"، لكنه في أعماقه لم يؤمن يومًا بالصَّداقة؛ إذ يرى أنَّ العلاقات محطات عابرة، أشبه بظلال تتلاشى مع أول خيوط الضَّوء، لقد أكلت السُّنون تلك الرَّوابط الدَّافئة العامرة بالمشاعر، فكيف له أنْ يصدّق الجافة القاحلة منها؟

كان يراهن في صمت على أنْ يتخلى عنه أقرب النَّاس عند أول شدّة، وهذه القناعة لم تكن سوى آلية دفاعية صاغها عقله الباطن ليهيئ نفسه للهزيمة قبل أنْ تأتي، فيخفّف بذلك وقع الخذلان، لم يكن رفضه المطلق للثقة سوى درع نفسي هش، يقيه طعنات الآخر أكثر مما يمنحه سلامًا داخليًا، وكأنما داخله يردد: "إن توقعت الخيانة، فلن تؤلمني حين تحدث".

ومع ذلك، لم يمنعه هذا التَّشاؤم الوجودي من المشاركة أو الاقتراب من بني البشر؛ بل كان يختلط بهم كمن يخوض حربًا باردة، يبتسم ويستحضر في ذهنه فكرة الوقاية قبل الطَّعنة، كان يعرف أنَّ اتقاء الشُّرور لا يمنع الشَّر كله، لكنه على الأقل يقلل من هول الصَّدمة.

لقد تَشكّلت لديه قناعة خفية: أنَّ الثِّقة بذرة فاسدة لا تُنبت إلا النَّدم، وأنَّ العزلة، وإن كانت مؤلمة، أرحم من خيانة رفيق الدَّرب.

تفوق إياد في المدرسة الإعدادية يضيء مثل شرارة صغيرة في العتمة، لكن هذه الشَّرارة كانت تُطفأ عند عتبة البيت؛ حيث لا أحد يراها، أدرك باكرًا أنَّ خذلان أسرته لم يكن شذوذًا، بل مرآة لمجتمع بكامله؛ مجتمع يصفق للنجاح في العلن، ثم يدفنه في الإهمال، كما تفعل سلطة سياسية فاسدة، تنهب أحلام أبنائها وتتركهم يذبلون في صمت.

يقضي إياد عطلة الصَّيف في دار الوالدة والوالد، فيعبر الشَّهران كما تعبر سحابتان في سماء لاهية، يمران ولا يتركان وراءهما سوى ظل عابر على جدار القلب.

يخرج إياد مع أول حافلة - بعد انتهاء الإجازة الصَّيفية - عند السَّابعة والنِّصف، كأنما يركب قدراً من حديد يتعثر فوق طرق مغتصبة.. المنعرجات والحفر، تمتد الرِّحلة كعقوبة طويلة حتى مدينة تطاوين عند العصر، لتبتلعه حافلة أخرى نحو العرائش. ساعة من التَّمايل كافية ليشعر أنَّ معدته تتمرد، فينقذ نفسه بقطرات ماء يغسل بها وجهه، كمن يحاول أنْ يوقظ روحه من غثيان الوجود..

لكن ما أبعد المسافة بين صدق طوني "الكلب" الأخرس وبين زيف البشر النَّاطقين! كان إياد يهمس لنفسه أنَّ الكلاب لا تعرف المكر بينما البشر لا يعرفون غيره، تلك المفارقة الصَّغيرة لم تكن مجرد عتاب قلب طفلٍ يتيم

الحنان، بل كانت صورة مُصغّرة لوطنٍ كامل؛ وطنٍ لم يعلّم أبناءه إلا القسوة، ولم يترك لهم إلا قلوبًا مغلقة كالأبواب الصَّدئة.

فالمجتمع الذي يجعل طفلًا يبحث عن صدقٍ في عيني كلب، هو مجتمع مريض، ينهش أفراده بعضهم بعضًا باسم الشَّرف أو الخوف أو الجوع، إنَّ إياد ليس مأساة معزولة بل هو سطر في كتاب طويل كتبه الفقر والسُّلطة الرَّأسمالية واللامبالاة السِّياسية، كتاب لا يقرأه أحد؛ لأن الجميع يشارك في تأليفه، يهمس إياد سارحًا:

- طوني، أيها الكلب الودود الوفي، لو كان النَّاس على شاكلتك لكان العيش رَغَدًا لا ينضب، ولو أحبّتني هذه الشَّرذمة كما تحبني، لنلت نصيبي من نعيم الحياة، لكن هيهات، فلا أحد يبلغ مبلغ صدقك أيها الطَّيب الأمين، أنا أحبك، نعم... أحبك يا طوني.

لا يلبث حتى يقطع سرحانه نباح طوني، كأنه يجيبه بلغة لا تعرف الخداع: "أحبك... أحبك."

لم تكن عزلة إياد انعكاسًا لضعفه وحده، بل كانت تردد لمرضٍ أعمق، مرضٍ عشعش في أوصال الأسرة كما يعشعش العفن في جدران بيت متصدع؛ فكل ذكرى من ذكريات الطُّفولة لم تكن تُستحضر في ذهنه إلا لتفتح جرحًا جديدًا، كأنَّ الماضي قد أقسم أنْ يطارده، إن كل لحظة حنان غائبة تتحول داخله إلى سكين بارد، يذكره أنَّ صدر الوالدة كان مشغولًا بغسيل لا ينتهي، وأنَّ ضحكات

الطُّفولة تكسّرت أمام قسوة الخالات والأقارب الذين لم يرَ في وجوههم غير العبوس والاحتقار، وما كان فساد الذِّكرى سوى مرآة لفساد الرَّوابط العائلية، وما كان هروبه من الجوع والحرمان إلا صورة مصغّرة لانهيار القيم التي صارت تُشترى وتُباع.

وفي قلب إياد، كانت تتصارع قوتان: رغبة في الانتماء إلى أسرة حقيقية، وجدار صلد من المرارة يمنعه من التَّصديق أنَّ ذلك ممكن، يهرب إلى المدرسة حبًا في العلم، وهربًا من أشباح تطارده من الماضي، من روائح البئر التي تذكّره بقذْر الفاصولياء، من صرخات تملأ أذنيه كجرس إنذار لا ينقطع، لم تعد طفولته مجرد فقدان للحب، بل وثيقة إدانة تُثبت أنَّ الأسرة التي كان يفترض أن تكون الحصن الحصين، تحولت إلى ساحة صراع.. يُعيد إنتاج قسوة المجتمع، ذلك المجتمع الذي يُلقي بأطفاله في العراء ثم يطالبهم أن يكبروا مستقيمين كأشجار بلا جذور، وهكذا لم يعد إياد يرى نفسه ضحية عرضية، بل يرى في ذاته مرآة لفسادٍ جماعي، لعنة عائلية ممتدة تفضح عورات نظامٍ اجتماعيّ لم يعرف يومًا معنى الرَّأفة.

قلّت عودة إياد إلى الدَّار، كأنَّ جدرانها لم تعد تأويه بل تطارده، وكأنَّ الوجوه التي يهرب منها في النَّهار تتسلل إلى نومه ليلًا، تنسج له أحلامًا كمحاكمات سرّية تقيمها الذَّاكرة على أنقاض طفولته، وفي إحدى الليالي كُتب له أنْ يرى فيما يرى النَّائم كابوسًا يُلقي به في هاوية الماضي: كان بين أترابه في "المسيد"، قبالة الباب

الخارجي، حين لمح والده يلوّح له من بعيد بإشارة قاطعة، كأنها قدر لا فكاك منه امتثل إياد، خرج حافياً، وقبل أنْ يستوعب ما يجري وجد نفسه بين ذراعي الأب، مسلوب الإرادة كغنيمة حرب، هناك في إصطبل عابر أخفاه والده كمن يسرق ما هو حقّ له، ثم ساقه خارجًا نحو الطَّريق الكبير؛ حيث تبدأ الغربة ولا تنتهي، في الحلم لم يرَ سوى والدته المنكسرة، بطنها المنتفخ يثقلها أكثر من ثقل الدُّموع، عيناها تصرخان.. أو ربما كانت دموع الفرح وإياد يمد يده في فراغٍ لا يرد اليد ولا يُمسك قلبًا استفاق مذعورًا والفجر يوشك أنْ يُعلن حضوره، كأنَّ السَّماء تشاركه هوس الأنين، نهض دون تكاسل يلبي النِّداء، إنّ الصَّلاة وحدها قادرة على أنْ تمنحه لحظة توازن وسط هذه الفوضى، ولا ريب في كونها حبل رفيع يشده بعيدًا عن هوة الماضي التي لا تكف عن النِّداء.

جلس إياد بعد أنْ غمرت خيوط الشَّمس النَّافذة، مقرفصًا تحت شجرة تطل على المدينة وحدها شاهدة على هشاشته، أخذ يقارن بين قصة قرأها وبين ذاته؛ هناك طفلة أفاقت مذعورة من حلمٍ فوجدت صدر الأم وذراع الأب يطوقانها بالطَّمأنينة، وهنا إياد أفاق مذعورًا فلم يجد بشرًا ولا حتى طيفًا يسكب عليه حنانًا أو يأويه من وحشة العالم.

تلألأت عيناه من قسوة المقارنة، ثم انسابت دمعتان أو ربما أكثر، كسرتا صمته إحدى الدَّمعتين انحدرت إلى شفتيه فذاق ملوحتها، ابتسم ابتسامة مُرّة كأنه ما ارتشف من الزَّمان لم يكن سوى قطرات مر الحنظل... ورغم ذلك

عاد بعض الدَّم إلى وجنتيه الشَّاحبتين مع شروق الشَّمس من وراء حجاب النَّهار رق له فأراد أنْ يمنحه قبلة عزاء.

دخل فناء الدَّار متثاقل الخطى، ليقابل خالته التي رمقته بنظرة فاحصة، تفحصت ملامحه الباهتة ثم توقفت عند وجهه الكئيب، وقالت مشيرة إليه وهي تتفحّص ملامحه المتعبة:

- ما بال وجهك مكفهرّ وعيناك حمراوان؟ أبكيت؟

أسفر عن ابتسامة خفيفة ذابلة، قبل أنْ يجيب بصوت خافت تحسبه يتهرب من نفسه أكثر من سؤالها:

- أبكي؟ هه... لا شيء، غير أنَّ الضَّباب والأشعة البيضاء تلهوان ببصري، تُضعف الرُّؤية لا أكثر.

انحطمت الكلمات في حلقه؛ إذ اجتاحه اختناق مفاجئ قطع أنفاسه، حاول الحفاظ على صلابة ملامحه، وترك على شفتيه تلك الابتسامة المصطنعة الذَّابلة، ثم تقدم بخطاه البطيئة حتى جلس على الكرسي، جلس جلوسًا أقرب منه إلى السُّقوط.

هذه الخالة تدرك ما يخفى خلف ابتساماته الشَّاحبة؛ فهي الوحيدة التي تلمح تلك الرُّوح المنهكة كلما رأت عينيه شارِدتين في العدم، قالت وهي تقطع عليه تيهه:

- الله الله... تحفر بئرًا إذن؟ وجدت ضالّتك هناك؟ اتركها لربّك أنت مَن يراك النَّاس على هذا الحال... كأنك أب الأيتام!

شزرها بنظرة طويلة لكنه لم يقل شيئًا، اكتفى بتغيير جلسته، يهرب من مواجهة ما يراه في مرآة كلماتها، لكن الخالة لم تهدأ؛ زادت حدّتها، حتى سألته بنبرة أشبه بالتحقيق:

- إياد... هذه الأيام أو قل هذه السَّنة، يعلم الله ما تخفيه، إياك والاقتراب من تلك النُّخبة المنحرفة، أنت تعرف عواقب لجاجة المخدرات وذاك الشَّيء.

حينها فقط ارتسمت على شفتيه ابتسامة خاطفة هشّة انكسرت بسرعة، قال ساخرًا يضحك على جرحه:

- المخدرات؟! ما ينقص العريان سوى المخدرات!

ثم نظر إليها بنصف ازدراء، ونصف سخرية من ذاته قبل أن يردف:

- أو لهذه القامة الفارعة، الجوفاء، ما ينقصها إلا المخدرات! يا الله... أي عبث!

صمت لحظة، مرّر أصابعه بين جذور شعره، ينبش في داخله عن جرح قديم، ثم قال بصوت أكثر عمقًا:

- أنا أعرف جيدًا معنى الخراب... الخراب الذي يبدأ بالرُّوح قبل أنْ يصل إلى الجسد؛ لهذا لم أحتج إلى المخدرات لأتصدّع، حياتي البائسة وحدها تكفيني، وما جرعات التَّبغ والمخدرات إلا زيادات في فاتورة الشَّقاء، أنا أعرف ذلك جيدًا، ولهذا اتخذت كل ما أستطيع من احتياطات؛ حتى لا أزيد جوعي جوعًا جديدًا.

همَّت الخالة أنْ تقول شيئًا، لكن إياد لم يمهلها، استأنف الكلام مقاطعًا، وقد تلألأ في عينيه بريق الغضب:

- المشكلات.. آه المشكلات، كأنها لا تولد إلا من رحم المشاكل! لكن لا أنا لست جبانًا لأرتمي في أحضان هذا الهراء الذي يسمّونه خلاصًا، كلهم يقولون إنَّ هذه المرحلة هي الأصعب، مرحلة التَّحول من الطُّفولة إلى ما بعدها، وأنا أقول: نعم، هي مرحلة خطيرة، لكنها أيضًا الشَّرارة التي توقظ في الإنسان رجولته أو أنوثته، إما أن تجعل من الولد رجلًا يحمل جراحه كمعول يحفر به عتمة مساره، ومن الفتاة امرأة تعرف معنى الصُّمود أو تسحقهما معًا فتخلّف ولدًا جبانًا ضعيفًا زائغًا، وفتاة ساقطة سافلة.

ثم توقّف، مرّر يده على جبينه المثقل، وأضاف بصوت مبحوح:

- أعلم أنني في وضع مخزٍ... وضيع، وأتفهم معنى أن يكون الإنسان محرومًا منبوذًا... أفهم ذلك، بل أعيشه

في كل لحظة لكن ما لا أقبله، أنْ يدفن المرء رأسه في الطِّين هاربًا من عذابه.

مدّت الخالة يدها محاولة أنْ تُمسد شعره، لكنه صدّها بحدة كأنَّ اللمسة تُذكّره بجرحه العميق، ارتبكت ثم قالت برجاء حزين:

- كان مجرد سؤال، تبدو في حالة مزرية، بالله عليك خبّرني... ماذا أصابك؟

ابتعد عنها قليلًا ثم استدار فجأة، كأنه يخطب في محفل غائب لا تراه عيناه، فارتجف صوته وانفجر:

- أصابتني لعنة يا خالة... لعنة! أي لعنة هذه، وعلى ماذا؟ لا أعلم، لكني متيقن أنها تسري في دمي منذ الطُّفولة، ربما قبل الطُّفولة، حين كنا أجنة محبوسين في الأرحام، تتنازعنا مصائر لم نخترها، نعم أنا من الملعونين الذين سُيّروا على درب الضَّياع قبل أنْ يفتحوا أعينهم.

توقف هنيهة زفر بمرارة، ثم تابع:

- قولي لي كيف يربون الأطفال؟ أيُّ يد تهدهدهم وتهديهم السُّبل؟ أما أنا، فقد نشأت بين الشَّتات والضَّياع، وسرت على درب معتم، فأي مخدّر أشدّ فتكًا بالإنسان من مخدر الضَّياع نفسه؟ أي مخدّر؟! هل رأيتِ طالبًا يتفوق على أترابه ثم يبيت في غرفة مظلمة كقبره؟ هل رأيتِ تلميذًا يحصد المراتب

الأولـى، بينمـا أبـواه لا يعلمـان أو لا يكترثـان! كأنـه يزرع في بيداء مقفرة؟

رفع رأسه كمجنون يخاطب السَّماء، ثم عـاد يخفـض صوته بنبرة مأساوية:

- أتراني أنتمـي إلـى زمـان؟ أتراني أنتمـي إلـى مكـان؟ لا... أنا عالق في العدم، غريب بين الغربـاء، مطـرود من كل معنى، فأي لعنة أثقل من هذه؟ بـالله عليـك، أي لعنة؟

أشاح بيده في السَّماء، كأنه يـرفض وجودهـا، وأردف بحنق:

- لا أطلب منك إجابة، ولن أسمع من أحد جوابًـا... ولـن أسمح لأحد أنْ يقحم أنفه فيما يخصـني، كفـاكم أوهامًـا وخرافات، "المخدرات"! هـه! مـا أشـد سـخافة الكلمـة أمام ما أعانيه!

لم ينتظر ردّها، إذ بدا له وكأنها هـي الأخـرى شـريكة في جريمة وجوده، ثم ولّـى مبتعـدًا بخطـى متثاقلـة، يـذوب في العدم حتى غاب عن الأنظار.

قبالة أمواج البحر العاتية، عند انكسار ضوء العصـر، استيقظ في داخل إياد يقين مريـر: لا جـدوى مـن الدراسـة، إنها مهزلة أخرى من مهـازل هـذا العـالم، المدرسـة كتـاب فارغ، والصَّف مقبرة صامتة، قـرر أنْ ينقطـع، أنْ يـنفض عن كتفيه غبار الأقسام والطَّباشير، ويعود أدراجه إلى دار

الجد العتيقة؛ حيث ترقد الجدة في مثواها الأخير، والجد الشَّيخ ما يزال يصارع.. يتشبث بالحياة كما يتشبث الغريق بحبل النَّجاة، هناك لن يكون القلم رفيقه، بل المحراث الخشبي والمعول، وهناك لن يقاس الزَّمن بجرس المدرسة، بل بوقع الأقدام في التُّراب ورنين الفأس على الحجارة.

يجد في هذه الفكرة عزاء غريبًا، كأنَّ الانقطاع خلاص، والحرث يضمد جراح الرُّوح أكثر مما تفعل دفاتر مشبعة بالزَّيف الملون، وإن كان تقشّف الخالات والجدة والخال الصَّغير يثقل صدره، فإنَّ جهل الأب وشتائمه النَّابية لن يكون إلا استمرارًا طبيعيًا لمهزلة الوجود، جزءًا من قدره المكتوب، قدر فلاح يقتات من العرق.

قبل أنْ يطوي آخر صفحات أيام من العام الإعدادي الأخير، وقبل أنْ يخط خطوته نحو عتبة الثَّانوي التَّأهيلي، قرر إياد أنْ ينسحب بصمت من مسرح الدِّراسة، وأوشك أنْ ينهي العام كما أنهى السَّنتين السَّابقتين، لكن شيئًا ما في داخله انكسر، خيطًا رفيعًا انقطع بينه وبين المستقبل المرسوم، لم يكن الأمر سقوطًا مفاجئًا، بل كان انسحابًا بطيئًا، بدا واضحًا في عينيه الذَّابلتين وفي دفاتره المهملة.

رأى الأساتذة ذلك رُأى العين، بعضهم استفرده يسأل بلطف الوصي الحريص: ما الذي حدث يا إياد؟ من أي باب تسللت هذه الهزيمة؟ لم يكن يملك جوابًا سوى ابتسامة باهتة، يضعها كقناع فوق وجهه، ثم يهمس: {إنها مسألة

ضغط... تراكم المواد...}. وهو يعلم في قرارة نفسه أنَّ الأمر أبعد من ذلك بكثير، أنَّ العزوف ليس عن الامتحانات وحدها، بل عن وهمٍ كامل اسمه المستقبل.

انطفأت في قلب إياد آخر شعلة الأمل في الدِّراسة، كما تذوب شمعة صغيرة في قاعة مظلمة أمام عاصفة ريح هوجاء، بدا مقتنعًا بأنَّ هزيمته الأسرية ليست عابرة، بل قدر يلاحقه حيثما ولى، لم يكن يعرف آنذاك عن تلك المهزلة المسماة بـ"الجمعيات المدافعة عن حقوق الإنسان"، التي تصرخ في المنابر ولا تسمع أنين طفلٍ واحد في صمت الليل، لكنه حتى لو انفتح على أناشيدها الفارغة، ما كان ليحرك ساكنًا؛ لأن الجرح أعمق من أنْ تضمده شعارات مزيفة، لقد وجد في استسلامه لقدر الله، بخيره وشره، قوة لا يفهمها من يلهثون خلف أوهام الإصلاح؛ قوة الإيمان وحدها كانت تشكل الرَّكيزة الأخيرة لنفسه الذَّابلة، نفس تجرعت العلقم وما زالت تتمسك بخيط رفيع من السَّماء، حين خانها كل ما في الأرض.

حزم حقائبه ـ أو لنقل حقيبته الوحيدة ـ بما حملت من مرارة، فارًّا من دار البؤس كما يفرّ الطَّائر الجريح من شجرة يابسة، ترك خلفه بقعة مشؤومة لا تُنبت سوى زهور ذابلة، ترك شمعدانات تنزف دموع شمع بارد، وفراشات ربيعٍ تدور بلا جدوى حول أزهار اختنقت في أكمامها..

ترك عصافيرها تغني ألحانًا حزينة، كأنها أناشيد وداع للعالم، وترك البحر يثور بأمواج هوجاء صارخًا في

وجه المدينة، ولسان حاله يهذي: أيها النَّاس، هذا الفتى حمل لعنتكم جميعًا على كتفيه ورحل، أيتها الفراشات... أيتها الطيور انتظرن فجر الرَّبيع.

مع فجر صيفي متوهّج، هبّت نفحات جافة تُنذر بيوم حارق يُطل من وراء الأفق، والشَّمس تكشر عن أنيابها كوحش يتأهّب لالتهام المدينة، لحظتئذ كان إياد حبيس هيكل الحافلة، يغادر أرض الخراب كمن يقتلع نفسه من تربة ملعونة، لم يترك خلفه سوى أطلال صراعاتٍ تلاعبت بعواطفه كما يتلاعب الجلاد بجسد الضَّحية، ويتراءى له في كل زاوية من زوايا الطَّريق شبحُ ذاك الصَّبي المضطهد، الذي صُبَّ على صباه من العذاب النَّفسي ألوانًا.

حين بلغ باب الحافلة أحس بوهج آخر يسري في عروقه، الحياة تبعث إليه ومضة من طمأنينة مسروقة، هنالك ظنّ أنَّ البؤس لا يفسد طعم الحياة كله، وأنَّ الإنسان قد يجرع المرارة من الكؤوس، ومع ذلك يبتسم؛ لأن كأسًا واحدة من الألم لا تكفي لتعليم الحكمة، إنما الحكمة كامنة في التِّكرار في امتلاء الجرح مرةً بعد أخرى، حتى يصير الوجع معلّمًا، والحرمان معبرًا نحو البصيرة.

كانت الحافلة على مشارف مدينة الحسيمة حين أفاق إياد مذعورًا، ظن أنه سقط من هاوية حلم إلى هوّة واقع أشد قسوة، الشَّمس هناك تميل إلى الأفول، تصبغ الأفق بلون الشَّفق الأرجواني، كهالة تحت عين الكون أسفل جبل شامخ، تقبع قرى ذليلة، قرى هي الصَّدى للزمان

المسروق؛ قرى مغتصبة الحقوق، من التَّعليم إلى التَّطبيب، من البنية إلى الكرامة، بل حتى الحق في الحياة مسلوب بلا هوادة.

بين تجاويف تلك الجبال الوعرة تسكن لغة خفية، لغة لا تُنطق بالألسن بل بالموازين، ميزانٌ لا يعرف العدل بل يعرف أثقال الذَّهب، هنا يُهان الضَّعيف أمام محكمة القوي، ويُسفك دم المعوز بين جدران أهل الجاه، ويُباع الحق في سوق السُّلطان لمصلحة ذوي النُّفوذ، كان إياد ينظر إلى المشهد وكأنه مرآة خرافية؛ ما يعيشه الفرد، تعيشه القرى، وما تتجرعه القرى من إذلال، يتجرعه هو في دمه، حتى ليخال أنَّ لعنةً واحدة توحّد مصيره ومصير هذه الأرض: لعنة أنْ يولد المرء في مكان لا يرحم.

تُقام ليالٍ احتفالية من حين لآخر، احتفال الغني بغناه، واحتفال الحقير بمهانته كالذي يرقص في قاع الجبّ على أنغام سجانه، لغة الغاب تحكم القرى المقفرة؛ حيث تنهش أنياب الدَّراهم لحم الفقراء، وتُغتصب الفتيات النَّاهدات في ظلمة الليل، ويسيل دم عذريتهن على مذبح عبدة المال، فيما دموع الشُّرفاء تجري أنهارًا وأنهارًا فلا تجد مصبا لها، تُشنق رقاب الضُّعفاء بدنانير المترفين، وتُدفن الكرامة تحت أقدام أصحاب النُّفوذ، حتى غدا العدل ضيفًا منفيًّا عن أرض هذه القرى، وعندما ينبلج الصُّبح، تتزيّن الليالي بثياب بيضاء طاهرة، كأنها نبيّة كاذبة تواجه المظلومين بطهر الأنبياء، وتخفي بين ثنايا طيّاتها خطايا الليل وآثامه.

تناهى إلى مسامع إياد صياح الدِّيك، كإعلان عن نهار جديد لا يختلف عن سابقيه إلا بمرارة أخرى، فرك الخمول عن عينيه بكلتا يديه، بينما كان الضَّوء قد بسط سلطانه على الغرفة، ظل يحدّق في السَّقف الخشبي بحيث تتدلى خيوط العناكب؛ تلك المخلوقات الهزيلة التي تبني بيوتًا أوهى من الحلم، وتنتظر فريسة تائهة كي تمنحها معنى لوجودها، شعر أنَّ بينه وبين تلك العناكب قرابة خفية؛ كلاهما عالق في شبكة واهية لا تنجو من أول هبّة ريح، رقد لساعات طوال أثقلته وعورة الطَّريق وحرارة السَّفر، وبدت قدماه متورمتين من فرط المسير، كأنهما شاهدان صامتان على ثُقل الرِّحلة وثُقل الحياة معًا.

لماذا أظل هكذا؟ تمنى إياد لو كان بإمكانه الصُّراخ في وجه هذا الفراغ الذي يبتلع حياته، لكن الصَّمت هو ما يحيط به، لابد لي من بداية جديدة... حياة حقيقية، مرور يحمل معنى، نظر حوله ثم أعاد الكرة إلى أفعال تشبه الانحدار المطلق، إلى عالم يذكره بالجاهلية والبيع والسِّحر والظُّلم، هؤلاء، ما أجد ما أناديهم به! لا أحد يعرف معنى القيم والأخلاق.

أدرك إياد أنه ليس مثاليًا، لكنه شعر بالاشمئزاز من القرية ومن العالم معًا، خمن: أنا أعترف بنقائص نفسي... لكن هذا؟ هذا الانحدار؟ كيف يجرؤ البشر على الاستمرار في هذا الجحيم؟

كل شيء حوله كان صراعًا: الزِّيجات المستعبدة، المال الذي يحكم القلوب، الأرواح التي تُباع، الطُّقوس

الغريبة التي تمارس بلا وعي، أين العدل؟ أين الإنسانية؟ أين أنا وسط كل هذا؟

تنفس ببطء محاولًا تمالك أعصابه، لا سلطة تعلو سلطة الصَّبر! نعم، الصَّبر فقط؛ سأتدبر أمري سأبحث عن معنى، سأقاوم هذا الانحدار، سأظل حيًا رغم كل شيء.

لكن داخله كان الصِّراع مستمرًا كرياح تعصف بلا كلل، والظَّلام الذي يختلط بضوء باهت تحسبه يقف منتصبًا بين عالمين، أحدهما متوحش والآخر شبه معدوم، كيف يمكن للإنسان أنْ يعيش في عالم كهذا ويحتفظ بنفسه؟

نظر نظرة خفيفة إلى الكرسي أمامه مُستلقٍ على سريره، ثم مد يده إلى ديوان الشَّاعر نزار قباني، واستأنف القراءة بصوت خافت، كأنه يهمس: "ستكون أنت رفيقي... أليس هكذا اتفقنا يا نزار؟".

"سئمت الانتظار...

ولعبتي مع النار...

لم تبقَ سوى دقائق خمس...

وتغربُ عن سماء حبنا الشمس...

وتستحيل أجملُ أيام حياتي...

برواية تتكلم عن مأساتي"

ألقى مرة أخرى نظرة على الكرسي ولاحظ بعض أعمال جبران خليل جبران، ومحمود درويش، ومؤلف عبدالله بن المقفع "ألف ليلة وليلة" موضوعة بعناية، نهض واقفًا وضع ديوان نزار فوق الكتب الأخرى، كأنَّ ترتيبها يعطيه شعورًا بالسَّيطرة على الفوضى التي تحيط به، ويضيف لواعج صدره الشُّعور بالطَّمأنينة: هنا، بين هذه الصَّفحات يجد رفقة لا تخذله، عالم من الأفكار والمشاعر، وسيلة للهروب من الفراغ الذي يحيط به.

أغمض جفنيه للحظة ثم حلق بخياله: «إذن، فلتذهب القرى المقفرة إلى الجحيم، ولتذهب فاطمة المشعوذة إلى زمهرير، ولتقرع بأموال هؤلاء الشَّرذمة الحقيرة قارعة الأهوال»، ثم تحولت أفكاره نحو الغد: "غدًا... سأحيي زيارة لعمتي عويشة، لا بد أنَّ تاليا أينعت وأثمرت، ولن يقطف ثمرها سواي."

ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة، شعر بالانتصار الدَّاخلي، بالحياة التي تعود شيئًا فشيئًا، وبصيص الاستقرار الذي يحتاجه قلبه المشتاق للهدوء، نهض ببطء يسير بخطوات واثقة نحو يومه، ثم تنادي من وراء الباب أخته:

- إياد، الفطور جاهز...

لحظتها بدا العالم أقل قسوة، كما لو أنَّ حياته رغم الفوضى والاضطراب، يمكن أنْ تستعيد القليل من نسيم

الصَّفاء، وشيء من الرَّتابة الآمنة التي تمنحه توازنًا مؤقتًـا بين غضبه وطموحه وهدوئه اليومي.

الفصل السادس

ظهر إياد راكبًا الحمار، يسير على مقصورة الطريق غاديًا بين الفدادين الممتدة، حيث الأرض متعبة والهواء مثقل بالغيوم، يحاول سبر غور ما آل إليه، يتمتم في صمت مع قرارة نفسه، كأنه يفاوض روحه على البقاء:

«أين الطريق الذي يقودني إلى شيء أشبه بالحياة؟

أليس كل هذا مجرد عيش بلا معنى؟»

نظر حوله ليرى قسوة الطبيعة: المراعي الشاسعة حيث ترعى الماعز، والقرى المبعثرة التي تشبه هياكل مهجورة أكثر من كونها مساكن حية، لكنه يرى أكثر من ذلك؛ يرى انعكاسًا لمجتمعه في كل زاوية:

الفقر المستبد، السلطة الغائبة، التقاليد تكبل الأفراد، والطقوس تمارس كآليات اجتماعية تفرض النظام على الفوضى.

يمضي بين التفكير بالغضب والرهبة، متسائلًا عن دوره في هذا العالم:

«أنا لست مثاليًا، لكن هل من المقبول أن يبقى الجهل والظلم سائدًا بهذا الشكل؟

هل سأبقى مجرد شاهد على انهيار كل شيء حولي؟»

ومع كل خطوة يخطوها الحمار، يشعر إياد بثقل الوقت والواقع الاجتماعي على كتفيه: يرى الأطفال يلهون في التراب، النساء يكافحن من أجل الخبز الحافي، والشيوخ يتحدثون عن أمجاد المنطقة... لم تعد سوى ذكريات متلاشية، في داخله يولد صراع مزدوج:

رغبة في الهروب إلى الذات، رغبة في تغيير ما حوله؛ لكنه يعلم أن التغيير لا يبدأ إلا من فهم أغوار الذات، ومن الصبر الذي يختبره كل يوم، بين الغضب والهدوء، بين المرارة والأمل.

يتذكر صوته الداخلي الذي يهمس له:

«ابدأ بخطوة حتى لو كانت صغيرة، حتى لو كانت مجرد مراقبة، مجرد وعي، الحياة هنا، رغم كل شيء، تستحق أن تُعاش، ليست مجرد مرور.»

فكر إياد وقدر، وعاد بذاكرته إلى جدّه، إلى الأيام الخوالي، لما أصاب القرية من بطش الفساد وسيادة الخونة.. شعر بثقل هذا الإرث، وكأن الدماء القديمة تسري في عروقه، وتعلّمه كيف يكون مسلوب الوجدان، كيف يقبل بالواقع؛ فرغم قسوته كأنه مجرد مشهد متكرر في مسرح الحياة الحي، ما عساه يفعل في حضرة السيف.

تمتم بصوت شبه مسموع، حتى الكلمات تتسرب من بين شفتيه بلا طاقة كافية لإكمالها:

«غادرت للتوّ، حلمٌ لا أستطيع أن أتمه، الحلم الذي يقتضي مني طاقة جبارة، أراهُ يتبخر بين يدي، وكل وجه من وجوه هذا الكابوس يتحول طالما لم يوجد في الواقع، لقد جفاني الحلم... كيف يمكن لي أن أتغنى بالحياة بعده؟»

ألجم إياد الحمار للحظة يحدق في الفراغ، حيث يختلط الغياب بالخيال، ويشعر بثقل الفراغ الذي تركه الحلم في داخله، وكل شيء من حوله صار بلا طعم، بلا صدى، بلا معنى:

"ماذا بعد.. لِمَ فرطت في الدراسة؟"

نسيم صباح أيام نهاية فصل الخريف قبل طلوع الشمس بين التلال وضع متاعه، هناك كانت بداية جديدة، بداية تحمل بين متشعبات أحشائها مفاجآت، لم يضق صدره، ولم يشكُ بثَّه لمخلوق، بدأت أسارير وجهه تنفرج، وجد سعادته في الطموح، في الاستمرار والجهاد المتواصل، بدا له عند مقاومته هذا الجلد أنه بلغ الغاية، وانتهى إلى المبتغى...

ولكن أين هو؟

هل وجد نفسه حقا؟

كان يسعى إلى معرفة نفسه، ويخفى دائمًا عليه منها بعض الشيء، يقدر أحيانًا أنه يحب انكبابه على العمل، وأحيانًا أخرى يجد نفسه تائهًا بين الحب والمعرفة، فهتان اللفظتان - الحب والمعرفة - تحببان له مفهوم الحياة

وترغِّبانه بخوضها، حسب ما تقتضيه ظروفها لمن هم يرزحون في ظل الوهم، ومن أثقلت خطاهم الأهوال التي تراكم بعضها فوق بعض على مر السنين واختلاف الأجيال، يستريح فيها إرادة وقوة من سؤدد العوز والفاقة، من الخير أن تنعم نفس ذاقت وبال أمرها بإجازة تتنفس فيها من جأش وبأس جبروت النفس، كما أن النفس أمارة بالسوء، قد تتآمر على صاحبها، وتحقنه من سمها الزعاف...

فرغت محبرة إياد، ماتت الكلمات في حلقة القلم، غابت الأفكار كما يغيب قرص الشمس في جوف المحيط، انتحرت القراطيس من فوق شجرة البؤس، تحول بياض الأيام سوادًا، نثر القدر زهره الشائك، نفذت ذخيرة الحيل، هنا امتثل إياد لاقتراح زوج عمته سميحة دخول سوق الشغل، ذات ليلة ربَّت إياد على كبده، بدا كأنه يخبرها سرّا..

ليلةً مقمرة، هكذا قدّر إياد، تخلّف من باب الدار قاصدًا السيارة المركونة قبالة القرية، هناك كان وميض الأمل يتلألأ في صدرها الحديدي، كجمرة تحت رماد الليل، خطا خطًى شعواء حتى ألف بؤبؤ عينَيه عتمة الطريق، فإذا بالظلام ينساب أمامه كستار شفيف.. بخطاه الحذرة يرى رائقًا؛ نسيم المساء يلاطف وجهه، والبدر يتربع عرش السماء، وقلبه يحافظ على إيقاعه المتزن، كطبول خافتة في عمق صدره، مرَّ بالمقبرة المُوحِشة؛

فترجرج ثباته لحظة، ثم تجاوز هول النهر، وصعد بين أحضان الشجر والصبار والقفر.

هناك حيث تختلط أصوات المجهول:

صراصير تُصرصر، خفافيش تمزق العتمة بجناحيها، بوم ينعق، وحيوانات وطيور وحشرات... كلٌّ يملأ الليل بلغطٍ غريب، الطبيعة تعلن أسرارها في سيمفونية غامضة.

الساعة العاشرة ليلًا، دلف إياد إلى السيارة المركونة عند حافة الهاوية، وأدار زوج العمة سميحة المفتاح، بعد هنيهة رن هاتفه، قال بلكنة ريفية ثقيلة واضعًا هاتفه جانبًا:

"البداية يا إياد، أمسك زمام أمرك، ولا تكن هشًا سهل الكسر."

قاد زوج العمة سميحة السيارة بنفس وتيرة السرعة، كأنه يخوض سباق سيارات الفورمولا، الطريق كان وعرًا، مليئًا بالمنعطفات والحفر، لكن يحفظه عن ظهر قلب، تخلف عن السيارة كلٌّ من إياد وزوج العمة بعد ساعة ونيف، بينما تقدم نحوهما رجل أصلع - ينعكس نور البدر على صلعته - بخطوات بطيئة، قال وهو على بعد متر ونصف فقط:

«كما العادة، لنا من الغنائم جزء ضئيل، ولكم البقية، أنا أقدّر لكم التعب...»

لم يفهم إياد بداية، لكن زوج العمة أخرج من جيبه رزمة ومدّها تحت ضوء القمر؛ فأمسكها الرجل الأصلع.. أدخلها في جيبه قبل أن يتوارى عن الأنظار، ساق زوج العمة السيارة بهدوء مطمئن، ثم قال عند أحد المنعطفات:

«أتعلم من كان؟ كان الضابط المسؤول عن الدوريات الأمنية هنا، لولاه لما نعمنا أمنًا وأمانًا، أقصد لولا وقوفه إلى جانبنا لكانت مغامرتنا خطر بلا فائدة، نستغل فساد السلطة لكسب المال، نشتريهم بنسبة ضئيلة، والباقي... ها هو ذا».

قبل أن يكمل سرد تفاصيل العمل، تراءت مشوبة، فأشار زوج العمة بسبابته نحوها وقال:

«قرب ضوء النار هناك، سنحمّل ما أتينا من أجله

هل أنت مستعد؟»

كان إياد لا يشكو غائلة، جالسًا كأنه ذو خبرة، قرب المشوبة ركنت السيارة، وتخلفا منها... حمل تلك الليلة ما يزيد عن خمسة وعشرين صندوقًا، وفي الصندوق الواحد ثلاثون كيلوغرامًا، أجهد ليلتها، خال نفسه وسط قفر يحارب مسلحين غير مرئيين، ذابت شعلة الخوف تحت ضغط جبهته المتصبّبة عرقًا.

نهار إياد يقضيه بين الفدادين، يراقب حركة الكون في البذور المدفونة تحت التراب الشريف، اليوم هنا وغدًا هناك، حتى حكمت حكمة الله وقدّر للبذرة الضعيفة

المدفونة شق الطوب، لتخرج إلى وجه العالم حاملة وعد الحياة.

تتزين الفدادين المحروثة بأثوابها الخضراء، وتدور الأفلاك كأنها مدخل لفصل الربيع من أوسع الأبواب، نفحات الجنة تتسلل إلى البسيط، تزهر منها الأشجار وتفتح أوراقها على ضياء الشمس، تغرد الطيور بفرح، وترتع الحيوانات بحرية بين الحقول.

يجلس إياد على صخرة، عينيه تتبعان كل حركة يمكنه التقاطها، كأنها تهمس له بأسرار الأرض والحياة، كل تفصيل صغير في الفدادين يحمل له درسًا، وكل نبضة من نبضات الطبيعة تعيد إليه توازن روحه.

على جرف الوادي، انحنى يغطس رأسه داخل بركة الماء، أطال شعره آنذاك إلى كتفيه، وخيوط الماء تتسرب إلى جسده، فتوقظ فيه رعشة تبقيه أسير لحظة السعادة الصافية، غير بعيد منه يُسمع هديل طائر اليمام، كهمس الطبيعة الذي يرافقه في صمته.

قرر إذا كان الغد يكون في خلوة تحت أشجار اللوز، بنوّارها الزهري والأبيض، وهناك تحت إحدى الشجيرات شجرة تطل على قرية ضاربة في عمق التاريخ، شاهدة على حروب وهجمات وهرق دماء الشهداء الأبرياء، جلس تحت الشجرة، وبيده ورقة مكتوب عليها...

وافى الربيع وأشرقت أنوارهُ

وافترّ في خُضر الربا نُوارهُ

وشدت بلابله على أفنانها

فتراقصت في شدوه أشجاره

وسرى عبير الزهر بين خمائل

نشوى فطابت بالشذا أسحاره

وجرت جداوله لُجَيناً ذاب فيـ

ـه مع الأصيل جماله ونُضاره

ومباسم الأزهار يغشاها الندى

سَحَرا ويرشف ثغرها أطياره

حام الفراش على كؤوس رحيقها

ثملا فزاد أوامه وخُمَاره

وعلى الروابي الخضر بين شياهه

راعٍ يغني للهوى مزماره

يشدو لليلاه لواعج حبه

لحنا تدغدغ قلبها أوتاره

وكأن كل حرف فيها يحمل صدى المكان والزمن، ورائحة الماضي الذي لا يمحى....

استحضر إياد طيف من مجلسه ليلة إلى جوار جده العجوز، وكان الشيخ يناديه بـ: «جدي»، لم يعرف إياد سرّ هذا النداء، لكنه أحسّ أن وراءه ما يشبه الرابطة القوية، ابتسم الشيخ ابتسامة مثقلة بالذكريات، ثم قال بصوت رخيم:

"سأحكي لك يا جدي قصة من أيام اللوح والأقلام والمحبرة... أيام كان العلم في صدور الرجال، وساحات المساجد مفتوحة للصغير والكبير، كنا طلبة في الجامع الكبير (الحمراء)، نرتشف العلم كما يرتشف العطشان ماء الينابيع البارد، نحفظ ألواحنا، ونعلّم من يصغرنا سنًا، ونجتهد رغم قسوة البرد شتاء وحرارة القيظ صيفًا.

عادة أهل القرى أن ينتقل الطلبة من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، يحملون معهم العلم والبركة حتى جاءنا طالب غريب، رقيق المعشر، ذكيّ اللسان، بارع في التعامل مع الأقلام والألواح، أحبّه الناس وأكرموه، وظننا أنه منّا، فإذا به كان دخيلًا مدسوسًا، تنهد الجد، وبدت في عينيه غمامة حزن قديم...

لم تكد تمضي الأيام حتى اندلعت الحرب، وبدأت الطائرات تحوم فوق الربوع، تهدر في سمائنا كما يهدر القدر حين يقترب الأجل، قريتنا كانت في حضن الوادي، يحرسها جبلان: من اليمين الجبل الفلاني، ومن اليسار

الجبل العلاني، كانا لنا سترًا ووقاية، فما إن تقصف الطائرات من جهة حتى يتلقّى الجبل الضربة، كأنه درعٌ يحمي أهل القرية.

لكن خطط العدو بعد توالي الفشل، أدركتها الخيبة، لولا المدسوس الذي انسل من بين صفوفنا، لا ندري كيف ولا متى، فإذا به يظهر في معسكر المغتصبين يوشوش في آذان قادتهم، دلّهم على الوادي وأفشى سرّ حصن قريتنا: كان خائنًا مدسوسًا، جسوسًا في ثياب طالب علم يحفظ القرآن."

خفض الجد صوته كأنه يستحضر طيف الواقعة...

"حين نفذ العدو مشورته، جاء على القرية من بطن الوادي؛ فهدم البيوت، وزرع الخراب، وخلّف النار والدخان، لكن رحمة الله سبقت، فقد فرّ الناس ببهائمهم وذراريهم إلى أخاديد النجاة، قبل أن يقع البلاء، وكأنهم شعروا أن بين أيديهم عيونًا غريبة تفشي الأسرار ولولا ذلك يا جدي لكنا اليوم في عداد المفقودين"

سكت الشيخ وغاص في صمته، أما إياد فقد شعر أن ما سمعه لم يكن مجرد حكاية عن ماضٍ بعيد، بل كان درسًا في الحاضر والمستقبل:

أن الغريب قد يكون غرسًا مباركًا أو سُمًّا زعافًا، وأن القلوب وحدها لا تكفي لحماية الديار إن لم يحرسها وعيٌ وبصيرة»

تمتم إياد تحت شجرة اللوز، وقد تساقطت من حوله أزهار بيضاء كأنها أرواح الشهداء تتجسّد هيئة نورانية، رفع يديه مترحمًا على أولئك الذين احتضنوا الموت ليحيا الوطن، كان صوته هامسًا، لا يسمعه سوى التراب الذي شرب دماء المقاومين، والسماء التي ما تزال تحفظ صدى تكبيراتهم الأخيرة، دعا على الجواسيس والخونة بمثل ما دعا الجد؛ إن روح إياد ما تزال نقية، لم يخدشها الشر ولم تثقلها النقاط السوداء، يؤمن أن العدالة قد تتأخر لكنها لا تموت، وأن الدعاء الصادق أقوى من الرصاص الغادر حين ينطلق من فوهة الظلام.

وذلك لقول الجد:

«احذر يا جدي؛ فالتاريخ لا ينام، والخيانة لا تنطفئ جذوتها»

كان الربيع يفيض بأنفاسه الشذية، يحمل نسيم الأزهار وصوت الطبيعة وهي تعج بالحياة: الطيور تغني سمفونية الزقازيق، والليل ينزل خفيفًا كستار يحجب الرؤية على خشبة المسرح، في مثل تلك الليالي عاش إياد تجربته مع العناء، كانتا ليلتان فقط، ولكنهما كافيتان لاختصار معنى المخاطر الداهمة، لم يكن يحمل سلاحًا، ولم يدخل حربًا، لكنّه كان يقتحم عالَمًا آخر، عالَم الممنوعات والمحروقات.

يمرّ بالبضاعة في جوف الظلام، يقبض أجرته، ثم ينسحب خمسة أيام متواصلة بعيدًا عن الأوامر والثرثرة، أجرة الليلتين فقط، لكنها كانت تذوب سريعًا في نار الحاجة كما ينصهر الحديد حين يُلقى في فم اللهب، وهكذا ظلّ إياد عالقًا بين ما يفرضه الواقع وما تلتهمه الأيام.

اشتدت المشدات، كرّ وفرّ بين يدي الأيام، كانت مهنة الوالد إثارة القلاقل والفتن، والقيل والقال، جلس إياد القرفصاء ذات ليلة، والراية السوداء تحلّق في الأفق، دنت الحشرجة من السقف، وتلا الليل زبور الرهبان على مسامعه، همس:

"ألا أيها الليل، قِ هذا العبد الضعيف من رماحك الشائكة."

دنا الليل وتدلى، تلا دون تأنٍّ، وأبى النوم أن يحضر ساحة المعركة، ثم انسَلَّ الليلُ هاربًا، وبانت الجبال الشامخات، غدت العصافير ساعية راجية، تبكر لملء بطونها، نهض إياد على حركة الكون الصباحية، ودق الباب طرقًا خفيفًا، فجاءه صوت الوالدة من ورائه خاملًا...

الوالدة من وراء الباب بصوت متثاقل تقول:

«انتظر... أنا قادمة، إنها السادسة صباحًا، إلى أين؟»

صمت إياد، ثم دخل المطبخ، يهيئ فطوره ببطء، تطل الوالدة، تلتحف لحافها، تفرك من عينيها بقايا الخمول، ينهي فطوره، يلتفت إليها، ويقول بنبرة بين الهمس والإفصاح:

«اليوم سوق الخميس القرية، الدار.. لقد مللت من هذه الوجوه المعوَّجة، أعطيني شيئًا من نقودي»

تحدّق فيه الوالدة متعجبة:

«كم؟ المبلغ كبير! ما الذي تنوي أن تفعله بكل هذا؟»

يجيب إياد مقاطعًا، كأنه يهرب من السؤال:

«سأشتري هاتفًا، ربما أجد نفسي فيه، أو لعلّه يكون لي فسحة أنفذ بها من هذا الخراب... إلى مكان آخر.»

كان ما أراد؛ فالوالد الظالم غارق تحت وطأة دفء الفراش، أمّا إياد فجلس داخل عربة تقطع بُعد المسافات وتكسر مشقّتها، الطريق تتلوّى على واجهة الجبل، مرّة تصافحه أشجار الأرز بعطرها البارد، ومرّة أخرى يظلّله البلوط واللوز، توقّفت عجلات العربة عن الدوران، وهبط إياد بخطى متثاقلة، دخل مقهى صغير كأنما يبحث عن مأوى من تعب الطريق، وعندما خرج في الضحى، كانت المدارس من حوله تضجّ بالحياة؛ نفر من التلاميذ يقبلون ويدبرون، خطوات متسارعة، ووجوه صافية.

لفتن نظره فتيات ممشوقات يحملن دفاترهن كزهور الربيع بين أيديهن، يتبادلن الضحكات ويملأن الفضاء بألوان خفيفة من الفرح، عندها هبّت داخله نسمة حنين، أعادته إلى مقاعده القديمة وإلى دفاتر ضاعت بين البارحة واليوم، انبثقت فكرة المدرسة جعلت تدغدغ عواطفه.

قبل أن ينحشر بين التلاميذ وضجيجهم، انحرف عن المسار قاصدًا ساحة مسجد بالجوار، جلس دقائق تحت ظلّ الصومعة، يرقب صمتها المهيب حتى خفتت حشرجة الطلاب وتلاشت أصوات الحقائب والأقدام، ثم نهض بخطوات محتسبة نحو بائعي الإلكترونيات، يسعى وراء عزاء جديد، هناك اقتنى هاتفًا صغيرًا.

الآلي العجيب سيؤنس وحدته، ويصبح صندوق أسراره، فيه وجد ما لم يجده بين جدران البيت ولا في ضجيج الطرقات، وعند عتبة المنتهى أدرك إياد أن النهاية ما هي إلا بداية أخرى، وأن القادم من التاريخ سيُحمل إليه بأفكار متجددة، وعوالم معاصرة متفتحة.

فلتنطفئ فتيلة القنديل إذن، وليُدفن معها وجع الماضي؛ فما أظلم الدروب إلا حين نفتقد ما ينيرها، وما أبهى الغد حين يُستقبل بعين ترى الإختلاف.

الألف ليلة وتلك الليلة، أنس حيّ ابتلّت منه أعماق إياد، الكتب ظلال وأرِفَة باعثة الحياة في هجير الفيافي،

ثغور مسفرة المبسم، وبحور الشعر رواء لظمإ الروح، كما أن الكتب لُهْيَةً وأسْنع اللُّهَى ... وأجزل العطايا.

جلس إياد ذات ليلة تحت صفاء صفحة السماء المزينة: النجوم مسفرة، والبدر محجوب، جالت عيناه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وهكذا باقي الجهات، عظمة الخالق كبيرة، وحرصه على جمال خلقه أكبر، يرى بين الفينة والأخرى شهابًا تارة هنا وتارة أخرى هناك، رنّ جرس الهاتف، رقم مجهول يقتحم عزلته، كان الصوت أنثويًا، دافئًا في ظاهره، متطفلًا في عمقه:

«سلام... كيف الحال يا حبيبي؟

آمل أنك بخير»

اهتزّ قلب إياد لحظة، ثم تذكّر أنه لم يعد ذاك الفتى المرح، فمنذ أن انكشف له سر "تاليا" وابن خالها، انطوت روحه على صمتٍ ثقيل، وصارت زيارته لبيت عمته أمرًا نادرًا... بل معدومًا، هكذا غدا الهاتف رمزًا لاختراق وحدته، وذكّرته المكالمة بأن جراح الخيانة تظلّ حاضرة، ولو تجلّت في صوتٍ ناعمٍ يدّعي الود، استحضر إياد في خلوته بعد العشاءين حديث الجد الذي روى له ذات مساء، حديث شريف عن النبي ﷺ:

"ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء."

تذكّر كيف كان الجد يوضح له أن الإنسان يولد بنقاء فطري، وأن ما يحيط به من تربية وعلم يؤثر في تكوين شخصيته، وعادت صدى كلمات الجد إلى الوجود، بعد سنوات سيقرأ إياد قول أحد الكتاب وهو طبيب نفسي أمريكي؛ ليقتنع تمامًا بصحة فكرة من جملة ما كتب:

"لا يوجد مرضى نفسيون؛ أنتم من تصنعون المرضى النفسيين.".

هكذا قدر إياد:

حين تصمت، يقولون متكبّر، وحين ترفع رأسك لئلا تنكسر ينعتونك بالنرجسية، وحين تختار العزلة يرمونك بالعنجهية، لم يكتفوا بسرقة ثقتك، بل حمّلوك وزر صنيعهم.

دامت المحادثة ما شاء لها أن تدوم، تتكرر تكرار الليالي، لا يبددها نوم ولا يحدّها زمن، وإياد آنذاك متطفل على عالم الإلكترونيات... حديث عهده بها، لم تألف

أصـابعه بعـدُ حـروف الأزرار، ولـم تتعـوّد ذاكرتـه حفـظ الأرقام.

اتخذها لحنًا يكسر عزلتـه، بعـد صـراع داخلـي، جعـل من ذبذبات صـوتها سـمفونية خالـدة، أمـا ملامـح الغريبـة، فتفصـل بينـه وبينهـا مسـافة طويلـة الأكمـام، التحمـا حبـال أنثوية تسربت لتقرع جـرس عزلـة إيـاد، فـإذا بـه يجـد فـي صوتها ملاذًا يقضي به أربه، بـات بمقـدوره الإفضـاء لهـا بما يعج قلبه ويمج، هـي مـن العاصـمة.. ضـجيج العربـات وضوء النيون، وهو من الحسيمة جبـال وديـان وقفـر؛ هـل سـتذوب بينهمـا المسـافات كمـا يـذوب الجليـد فـي حضـرة الربيع؟

رن الهـاتف عنـد الميعـاد؛ العشـاء صُـليت، والمائـدة لُمّت، وأهل الدار اضطجعوا فرشهم، إلا إياد الذي تـاه بـين ألفاظ القريض، لا فقيه ولا أديب يفك رمـوز الـنظم ويسـبر غور الحيرة، كان معظم الفقهاء والأئمـة حفظـةً لكتـاب الله وجملةً من الأحاديث الشريفة، لا يلقـون مـن أعلـى المنـابر إلا ما تمليه أقلام الوزارة، فجـأةً اختطـف الـرنين إيـاد مـن عالم الحرف إلى عالم الصوت الشجي...

كأن صوتها الرقيق معزوفـة.. مـن سـمفونيات الـزمن الجميل، همسها يذيب القلب، يرفرف به حمامُ الأحـلام إلـى

القمـم، عـابرًا القـارات، حيـث الزهـور ألوانًـا، والجبـال والوديـان، والسـهول والهضـاب، والشـيّب والشـباب، والعزف والألحان، والتغريد والزغاريد...

هروب من هول الواقع المعاش، إلى أحضان الأسلاك النحاسية والأزرار الرقميـة، أيـادٍ خفيّـة تربّـت علـى ظهـر الهرّ الشقي، فتُلين مخالبه، وتُذيب ما تبقّى من هيبته.

تبدأ محادثتهما الليلية بكلمات محكمة، كمن يقـرأ كتابًـا بتأنٍّ، ينتقلا من سطر إلى سطر، ومن فقرة إلى فقرة، ومن صفحة إلى أخرى، يبدأ حديثهما من حيث انتهـى البارحـة؛ جعلا من أحداثهما سلسلة لا تنقطع؛ ليلتئـذ بادرتـه بسـؤال! وكان له إجابتان:

- أولاهمـا الحقيقـة، مهمـا كـان نفاذهـا جارحًـا، فإنهـا تظل أوفى سبيل.
- أما الأخرى فهي الكـذب، زينـة عـابرة سـرعان مـا تنكشف.

لكن إياد – قد أخذ بالأمر اللازم – غاص بين النفقين: لا إلى هذه ولا إلى تلك، كمن يحاول النجـاة، هكـذا زعمـوا أنه اتقى الشر، وما هـلاك - الإنسـان -إلا فـي اقترابـه مـن عرين الأردن.

لم تشعر الشعيبية – صاحبة الصوت الشجي، البعيدة بجسدها والقريبة بوقعها – بمراوغة إياد لسؤالها الأول، فما لبثت أن جاءت بآخر، لا يقل خصوصية عن سابقه، غير أن إياد هذه المرة لم يجد في الأمر حرجًا، بل رأى فيه فرصة سانحة يخرج من خلالها - من القوقعة، قرر أن يفتح لها نافذة تطل على خبايا الأسرار، وأن يبوح لها بالتجارب التي تطلبها الشعيبية في ليالي البوح، وكان اسم "تاليا" محور الحكاية، فشرع يسرد قصته الطفولية معها، كمن يعود إلى درج قديم يلمسه فيتطاير الغبار، قال إياد بصوت متردد:

«إذن، كان يا مكان قبل أعوام، فتى لم تحكِ عنه جدات ولم تكتب عنه أقلام، ذاق من الويلات والآلام، تنام أعين الصبية وعيناه تأبى أن تذوق طعم النوم»

ظرافة إياد في رواية الحكاية الشعبية مستوحاة من الخرافات، خرافات الجدة أيام الشتوية، وقصص الجد أيام الصبا... حكى لها: "ما حكيت لكم آنفًا عن تاليا ابنة العمة عويشة، لم يزد إلا الشيء القليل...

«عدت من العرائش، كانت تاليا لا تفارق خلدي، رافقتني على متن الحافلة، وصلت للقرية بعد طول السفر، قضيت ما يقضيه المسافر من الراحة، كان يومًا يحمل من الجو ما أحب، سلكت سبل الصبا هاربًا من الهرب، ممسكًا بثوب العشق، وصلت إلى القرية المجاورة، جلست على

أطلال الدار، تغمرني فرحة، كمن عاش في منفى لا يحلم بالحرية إلى أن وجد نفسه على مشارف مدينته، لا أخفي عليك يا "الشعيبية" أن غصة... لا أعرف سببها»

عينيه تلمعان بين الحنين والخذلان، كأنه يعيش الرحلة من جديد، تنهد واسترسل:

«قبل أن تطأ قدماي حرم الدار، سمعت ضحكات مكتومة، كنت على جرف بسببته السيول، تفقدت مصدر همسات بالجوار، وكما يقال: "صائد النعام يلقاها يلقاها"، وأنا كذلك لقيت النعامة بين أحضان الحبيب.

وقفت على الجرف، كان قلبي يخفق كطبول الحرب، يوشك أن يفضحني، وداخلي ينهار كذاك الجدار الطيني الذي ضربته السيول فجرفته، ليتني لم أقف، ليت الذي كان ما كان ولا الذي صار ما صار، وجدتني أنظر إلى "تاليا" من الفوق وهي تنظر نحوي، الذي كان بصحبتها ابن العم، ابن خالها.

لم يرني، أمامي ابن العم، وهي... عيناها وقفتا عند عيناي، قالت عيناها في تبرير الموقف:

لم أكن أعلم أنك راجع إليّ، أعذرني على هذا الموقف السخيف... لكنني يا "الشعيبية"

تخلفت دون أن يشعر بي أحد، لم أدخل دار العمة يومها، ولم أذكر أنني دخلتها بعده، عدت أدراجي أجر أذيال الخذلان، وكنت كمن يسحب خلفه جثة قلبه، لم أجد أحدًا أشكوه بثي ليلة إذٍ، خجلت حتى ذبت في ملابسي، كنت أشكو بثي إلى الله لكن هذا الأمر لا أجرؤ عليه، داهمت وحدتي أشواق بنت العمة..»

يبتسم ابتسامة كسيرة، ترتعش شفتاه منها وهو يحاول أن يخفي انكسار صوته، ثم يتمم مجهدًا...

«قضيت الليلة يا الشعيبية ونذير الشؤم، أي نعم الشؤم، فهمت الاضطراب الذي ألم بي قبالة الدار وقتئذ، كان إنذارًا... لكن من يصغي؟

يومين مضت بعد الحادثة، وجدت نفسي جالسًا مغرورقًا، مسافرًا مع شهرزاد وقصصها اللذيذة وشهريار... حتى سمعت جلبة اضطرتني إلى الانقطاع عما كنت عليه، لكن لم أكن أهتم لمصادر الجلبة؛ قد يكون الوالد يلعن الأيام والآباء والأجداد على كأس وُضع في غير موضعه، وقس على مثل هذه التفاهات، كنت في معزل عن الأسرة، لا يكثر لغطي بينهم، ولا يأتيني آتٍ إلا للضرورة.

هكذا وجدت من يقف قدامي ثابتًا، كانت هي (تاليا) يا الشعيبية، إنها هي بعينيها الواسعتين، وقدها الميّاز، هنا تجمدت أنفاسي، شعرت بجسدي يختنق رغم اتساع المكان، أصبحت ناهدة، آه، يا الشعيبية لو تعلمي حجم اشتياقي لهذه الجميلة، لولا ما أقدمت عليه، لأخذتها في حضن أبدي والله شاهد على ما أقول، كم كانت رغبتي جامحة في عناق تاليا، لكني كبّلت نفسي بقيود الكبرياء.

المهم، لم أحرك ساكنًا، نظرت إليها نظرة جافة، ولو كنت مكانها لعدت أدراجي، لكنها لم تفعل، ويا ليتها رجعت...تقدمت إلى أن صارت بيننا مسافة محصورة بين الشبر والنصف الشبر، وقتئذ كنت جالسًا على كرسي بينما هي كانت ثابتة، انحنت على ركبتي، قلبي ارتجف كطفل مذعور، لكني أبعدتهما... سماؤها توشك أن تمطر، عيناها أحن منها، عيناها أوفى منها، عيناها الحلوتان أجمل منها، هما يعتذران وهي تقسو.

والله يا الشعيبية، إن قلبي كان ينزف شوقًا، كان الألم يسري في عروقي سريان دمي، لم أشعر بهذا الخوف، أو شيء مثل الخوف... كنت أشعر بالعضلة داخل جوفي ترقص، كالطير المذبوح، لم أكن أعرف ما هي الخيانة، أو لنقل كنت أعرف الخيانة لكن لا أعرف كيف يشعر المغدور والخائن! وهل الخائن يشعر؟»

فكر هنيهة في السؤال، ثم استرسل...

«لكن يا الشعيبية كان قلبي إن لم يكن يعني لها شيئًا فإنه يعني لي كل شيء، قلت لها وقتئذ وصوتي يخرج محمّلًا بأنين الدهر:

الطائر الذي كان يخفق لك، والقلب الذي كان يحبك، قدمته لك قربانًا، ذبحته على النصب، ما عاد يخفق إلا لضخ الدم.

ظلت صامدة، لكن يا الشعيبية كانت دموعها تنحدر من عينين حزينتين، وكنت أشعر بحرّ الدموع كأنها جمرة تلسع جلدي، ومن غيري يشعر بهذا الحرّ يا الشعيبية؟

لكن حقيق علي نصر قلبي، تذكرت شهريار، كيف انتقم من بنات قومه، انتقم منهن لجرم اقترفته زوجه الخائن، تذكرت شهرزاد الودودة مقدام الربح وجنيها على نفسها، تذكرت أن هناك الخير في مكان ما، إن لم يكن في تاليا الماثلة أمامي.»

همس إياد نهاية، بحة صوت تنحدر إلى عوالم الحزن:

«أخبرتني وقتها أنها لم يسبق أن فعلت مثل فعلتها تلك، كانت البداية والنهاية، وأنها بعد أن التقت أنظارنا يومها تخلصت منه فورًا، وقالت أيضًا:

عجزت عن نسيان موقفي البشع، وكانت فكرة زيارة دار الجد من تخطيطي...

قالت الكثير، ومن يهتم؟

أنا يا الشعيبية تركتها واقفة وناديت أختي، دخلت أختي وجدت تاليا غارقة في مدامعها، هكذا خرجت دون أن أسمع ولم أجب... كنت قاسيًا جدًا أعلم، وكنت يا الشعيبية على يقين أنها كانت صادقة، لكن هذا ما اجتررت من أثداء الحياة، إنها القسوة يا الشعيبية...شابت قلبي الشوائب، لم أعاقر الكأس ولم أدخن سيجارة...»

استسلم إياد لصوت الشعيبية بعد سرده هذا، والحق يقال إن هذه الغريبة تملك من اللين ما يثقب الرخام، ومن حلو اللسان ما تلين له المعادن...

آه، لو يتّسع الوقت، وتُسعف الذاكرة، لرويت قصة إياد كما ينبغي لها أن تروى، وليت لي قريحة لنسجت عروضًا تروى منه أفئدة القرّاء، المهم سادتي أن ختام اليوم كان مسكًا فواحًا، يرشح منه لين الكلام وعذوبة

اللسان؛ حيث تنداح النشوة قلبيهما (إياد والشعيبية) كأنهما في شرخ إدراكهما لِكُنه الحياة، تحسبهما طفلين يتوسدان فخذي جدتهما العجوز وهي تروي مسامعهما بخرافات التراث الأمازيغي المتوارث؛ فتنهمر على خيالاتهما شطارة الكيّسين، سؤدد العفاريت، ويزداد شغفهما بتخيل السُّعلات، الغول والمخلوقات الأسطورية المتوارثة جيلًا بعد جيل، وتمضي الأيام بهما من يوم إلى آخر، في دنيا قليلها لهو وكثيرها جدّ وعمل، أمّا الشعيبية فكان نصيبها من اللهو والنوم قليلًا، ومن الإقدام على الدرس كثيرًا.

وجد إياد مكانًا له بين أحضان الملذّات، لا يقبل أحدًا عند حرم حفرته، ولا يتخطى أحد فوهة وكره ذاك، وهكذا تكسّرت محاولات تاليا عند عتباته... جلسا على المائدة ذات عشاء، لم يكن منه إلا أن قال فأجاد، وإذا سُئل أفاد، الجد يؤثره على كل أحفاده، فإن سألت الجد:

أيّ الحاضرين أنفع؟

أجاب بعينيه الضعيفتين، لكنهما مشعتان حكمة:

وهل ترى عيناي غير إياد؟

ثم يبتسم الجد كأنه يرى في حفيده جزءً من ماضيه؛ كأن الماضي الذي عجز عن إصلاحه قد استحال إلى بذرة

في صدر الفتى، إياد أكثر من حفيد، استمرارا لروح ظنّها الجد قد أرهقها الدهر.

حدث ليلة أن كان الجد في كنف الدار، فأصابته نوبة ظنّ معها أن نهايته قد دنت، هرع إلى البيت صغير العائلة وكبيرهم؛ اجتمعوا حوله قلوبًا واجفة وعيونًا دامعة، وفي ليلة الغد، جلس في مجلسه وحوله ما شاء الله من بناته المتزوجات وأزواجهن وأولاده وزوجاتهم، ناهيك عن أحفاده الذين ازدحم بهم البراح.

فلما ندي الفقيه إلى صلاة المغرب، فتح الجد عينيه الذاويتين، فلم يجد إلى جنبه إلا إياد، صامدًا، صامتًا، كأنه حارس لروحه، لم يحرّك الجد نفسًا بادئ الأمر، ثم استوى في جلسته بثقل الشيخوخة، التفت إلى حفيده الوفي وقال بصوت متهدج:

«جدي، يا حبيبي... أشعر بالغثيان... ما هو الوقت؟

في أي ساعة نحن؟»

الجد يستعيد قواه رويدًا رويدًا، بينما إياد لا يفارقه، كأن ليس له في الدنيا إلاه، استعاد وعيه بالأشياء في قرابة

الساعة، أعانه إياد على الوقوف، وقد أعدّ إناء الوضوء سلفًا، فقام الشيخ من مجلسه متثاقلًا، وحين أقيمت صلاة العشاء، أداها الجد بصوته الحليم، ثم خرج إلى فناء الدار، حيث تجلّت الفرحة على وجوه الأولاد والأحفاد، ذكرانا وإناثًا.

جلس الجد، وإلى جانبه إياد ملازمًا، كظلٍّ لا ينفك عن صاحبه، وكان في الجمع الحاضر سيليا وتاليا، وقد أشرق المشهد بأنفاس العائلة مجتمعة، ما إن ظهر الجد بينهم بوجهه المشرق بعد العلّة التي أقعدته، حتى ارتسمت الفرحة على عيون الصغير والكبير: أجساد متقاربة، وأصوات متداخلة، والقلوب تنبض على إيقاع واحد، أُشعل الفحم في موقد بين الأثافي، وذُبح جديٌ تقرّبًا للفرح، فانتشرت رائحة الشواء.

بين الجمع كما في كل العائلات الكبيرة هناك أعين لا تهدأ.. تترقب، كأنها تخشى أن يختلّ هذا النسيج الدافئ بلحظة غياب، رنّ جرس الهاتف، فاخترق صوته أنغام الضحك وأحاديث الذكريات، سكن المجلس على حين غفلة، استأذن إياد جده، فهزّ رأسه برفق،

بان لِإياد فـي تلـك الليلـة اسمٌ مُختصـر لِـ "الشـعيبية" على خلفية هاتفه، قام بتؤدةٍ بعد أن قبّل يد جدّه؛ إذ لـم يكـن يُقبّلها رياءً ولا مجاملة، بل حبًّا خالصًا.

خرج من البـاب قبـل أن يجيـب، تفاديًـا الازدحـام، ردّ على الاتصال، ثم وثب صاعدًا السلم إلى السطح، استلقى على ظهره يرقب النجوم، وكان يتمنى لو أنّه يستطيع بلوغ شطّ البحـر؛ لأنّ البحـر لا ينـام، وفـي يقظـة البحـر تعزيـةٌ لروحٍ لا تنام، لكنّه وجد التعزية لروحه -الأرقى- في هديل الشعيبية.

غاب عن المجلس ما شاء الله مـن الوقـت، حتـى سـمع حشرجة أقدامٍ تقترب، خطواتٌ بطيئة كأنّ أحدهم يُقحم أنفه فيما لا يعنيه، كما كانت تقول أمي فطومة:

«تتصنّت! الله يخليها قاعدة».

فلمّا تبيّن المتربّص، أعرض عنه إياد وتركـه يتـذاكى، غير أنّ نفسه أشفقت عليه وعدّته غبيًّـا مسـكينًا، تاليـا علـى مقربةٍ من السطح تسترق السمع، وجد رأس الخيط لمكرهـا هذا، فتذكّر قول جدته ـ رحمها الله:

«اللّــي يتصــنّت، يــديها زوينــة تفرّحــو، ولا ذميمــة تَقرّحو».

اقتـرب قلـيلًا وهـو معـرضٌ عنهـا، ثـم تمـدّد علـى الحصير، وخاض في حديثٍ دافئٍ مـع الشـعيبية، يـذيب مـا تبقّى في صدره من وحشة.

في الجانب الآخر جلست العائلـة حـول مائـدة عـامرة، فسمع إياد إحدى العمتين -اللتين بدأنا بهما حديثنا هذا بـادئ البدء، كانتا فظتين- تناديه، قائلة:

«أجي تتعشى.»

دخـل إيـاد بعـد اسـتئذانه الشـعيبية، فوجـدهم يتبـادلون اللقمة والكلمة، في عفوية محببة، رحّب الجـد بحفيـده إيـاد، أبعد من كان يجلس إلى جانبه؛ ليفسح له مكانًا قربه وكأنما يُعلن بفخر مكانته بين الجميع، قام العم من مجلسـه متثـاقِلًا نحو ابنيه، وأسند ركبتيه إليهما، بينما ظلّت تاليـا ماثلـة فـي الوسط، متردّدة كطيفٍ عالق بين الحضـور، أمرتهـا العمـة بالجلوس إلى جوار إياد؛ فتلعثمت قلـيلًا قبـل أن يفسـح لهـا هـو بنفسـه مجـال الجلـوس، والحـق أن فـي تلعثمهـا وقتئـذ استرعت انتباه الآخرين، فأثار لغطًا وهمسًا بين الجالسين.

حين انتهى الجمع من وجبة العشاء، قـام إيـاد لينصـب "المقراج" على الفحم، يتولّى الأمر بهدوء كما لو هـو سيّد الدار، دقـائق معـدودة حتـى غـلا المـاء وحـين دخـل حيـث الصينية والكؤوس، جاءت العمة الفظّة التي كانت قد نادتـه

إلـى العشـاء، تهـرع وهـي التـي لا تَسـتخذِي ولا تسـتحي، قالت وشرارة الشياطين تحوم حول عينيها...

«إياد... طال غيابك عن المجلس، يا تـرى أيـن طـال، وفيما طال؟

قل لعمتك، وسرّك في بئر!»

أجاب إياد ويداه تسبحان بين الكؤوس، يعـرف أن بئـر العمة الفظة هذه يسقي منه العادي والبادي:

«سري في قعر البئر، وحتى الجمع في قعر البئر..»

ابتسم بخبث وأضاف:

«أين كنت؟

رنّ جرس الهاتف، والكلّ يعـرف... قمـتُ مـن وقتهـا، وكنتُ على السطح العلوي أُكَلِّم الشعيبية، ومـا الضـير فـي ذلك؟»

همهمت العمة الفظّة، ثم أضـافت بمكـرٍ يلمـع بشـرارة الشياطين:

«كل هذا وأنت تتحدث إلى الشعيبية!؟ إذن تاليا ...»

قاطعها قبل أن تكمل جملتها:

«أي نعم، الشعيبية كانت تتحدث إليّ، أما تاليا فكانت على درج السُّلم تسترق السمع، وحتى إن كان شيءٌ مما في خلدك فسأقوله، الحمد لله أن ربي...»

لم يُكمل جملته، لكن العمة الفظّة كانت تفهم تمامًا معنى ألّا يُكمل إياد جملته...

«عافاك الله ووفّقك، أخبر عمتك... على ما الحمدلة؟»

«سأقول لك القليل النافع، يوم قلتُ لك إنّي اشتقتُ للعمة، وإذا كان الغد أكون عند باب الدار...»

أومأت العمة الفظة بالإيجاب، وقد تذكّرت اليوم:

«كنتُ عند الوعد، لكنّي لم أدخل الدار؛ سمعتُ ضحكًا عند الجرف القريب من دارها، وذهبتُ أختلس النظر حتى وجدتها بين أحضان هذا الذميم ابن العم، فعُدتُ أدراجي، فما كان لي لا زيارة ولا ضيافة.»

«لا، لا، تاليا أعلنت حبها أمامنا، كيف ذلك؟»

ابتسم إياد ابتسامته الفاترة التي اعتادها على بسيط البقعة المشؤومة بالعرائش، وخرج بالصينية، ثم كلّف أحد الحضور، وأشار بكياسة إلى تاليا:

«إذن أنتِ يا عمة لا تصدقين، أنا ما كذبتُ ولن أفعل، ها هي ذي أمامك، أخبريها إن كنتُ أكذب أم أقول الصدق؟

وقولي لها لِمَ كانت تسترق السمع فوق السلم؟»

تركهما داخل الغرفة، ثم جلس قرب جده، يذودان من ينابيع الفائدة والجدّ، دقائق حتى دلفتا الباب، باديةٌ أماراتُ السخط والضيق على وجه العمة، تغمز لفلانة وعلانة بالنفي، فابتسم إياد ابتسامته الجَهْمة وتابع ما كان عليه.

وبعد العشاء، امتد المجلس على إيقاع كؤوس الشاي المنعنع، يتداولون الحديث في دفء العائلة، حيث تتلاقى الأجيال: الجد بحكمته، والأبناء بخبراتهم (عديمة الفائدة)، والأحفاد ببراءتهم (الشيطانية) كان الجو، بكل بساطته، أشبه بعرس صغير تُزف فيه الروح إلى نعمة الاجتماع.

موت الجد

في ظلام الليل نصرخ، وفي صفحة النهار ننتحب، وفي كليهما نستغيث بالميت المنتصب أمامنا، فيما أجنحة الحزن السوداء تحوم حولنا، كان ذلك بعد أمد غير بعيد، حين حلت ذائقة الموت وطارت به من بين أحضاننا؛ خُيِّل إلى إياد أن يدًا مُدَّت من بين السماء والأرض فاختطفت الجد منه، يدٌ متوهجة لم يرَ لها نظيرًا؛ بيضاء كثلوج القمم، متقدة البياض تدمع لها أعين الواقع، أصابعها هصرت الجد بإحكام وأخذته إلى دار البقاء.. تجمدت أنفاس إياد، كأن العالم توقف فجأة، لم يشعر بقدميه، ولا بصدره الذي انكسر بصمتٍ مروّع.

تُوفِّي الجد عند عامه العشرين بعد المائة، كانت عليه بالويلات بعد أن شاخ وخرَّت قواه، ضُرب بأيادٍ تعب لأجلها، واضطُهد من دار جدَّ واجتهد لإقامها، ما دموع الحزن إلا وسيلة للنسوة اللائي ألفين في الدار للتعبير عن حبهن للشيخ، أما إياد فوقف واجمًا، تتنازعه رهبة الفقد ودهشة البقاء، كأن الزمن انكسر فجأة بين يديه ولم يعد يدري أين يمضي بعده.

السكوت الذي يحدثه الليل بات ألمًا محضًا يؤرّق إياد، ماتت الكلمات الشافية، وذابت الثلوج، مات جدّه وأصبحت حياته بعده ببعض ما أصابه من هلعٍ وقفر، اختُطِف الجد

وتلطّخت الجدران والوديان والطرقات بسراب الموت، جلس على الآجُرّ شارد البال، تتناهب قلبه فراغات موحشة، كأن العالم من حوله تراجع فجأة وتركه وحيدًا في صدى الغياب {حبّذا لو كنتُ بذرةَ ريحانٍ نابتةً على قبر الجد، لكن! لستُ إلا ضعيفًا بُترتْ يداه.

ها هو الليل قد جنى، فوجدتُني حقيرًا مضمحلًّا، عديم الفائدة أمام نفسي، وأمام أشباح الظلام التي تحوم حولي} قالها بوهن وحرقة، المأساة... إنّها موجعة هذه الحقيقة، رَانَ عليَّ فكُّ عقدة لساني المقيَّد، لا حياةَ بعد انتحار العزم والإرادة، فما العمل؟

تقدّمت الأيام، وخيّمت ظلالُ اليأس والقنوط على صدر إياد، فضاق صدره الرحب، وهو ينظر إلى ما يحدث، ذُبح إرثُ الجد بحبال تركته الذميمة، كلٌّ منهم يهيم في واد السراب.

تزوّجتا الأختين (العمتين الخاملتين) بعد وفاة أبيهما الشيخ؛ إحداهما زُفت إلى بيت زوجها الأبله، أما الأخرى فسجنت أحلام إياد في بئر الأوهام، كان من نصيبها رحّالةٌ حطّ رحاله على مشارف القرى، وأتت به ليلةً مُعلِنةً زواجها السري، ثم أخذت من الإرث نصيب الذكر، واستوطنت دار الجد بجبروت الضغينة.

خاب ظنُّ إياد بعمّته الشيطانة، وتجلّت صورتها ذات ليلة على صفحة السقف، بابتسامتها الشيطانية، وبّخ إياد سراب عمّته، وتعهد أن يترك ما تركه الجد؛ فلو كان هذا متاعًا يَحسُن نيله، ما كان المرحومُ ليتركه في دار الفناء.

الفصل السابع

أجلس في المقهى مُنصرفًا عن الضَّوضاء، أرتشف مِن قهوتي كقارئ يفتح كتابًا اسمه (الحياة)، هذا الفضاء الذي يلتقي فيه المختلفون بلا مواعيد، يبدأ وعيي بالتَّشكُّل من جديد؛ أنا إياد الذي تجرع مِن ثدي الحياة مرارة الفقد، أرقب المارّة كأنّهم أسطر متحركة على صفحات كتاب مفتوح، وأصغي إلى الحوارات المتناثرة كهوامش تشرح معنى الوجود.

في المقهى أدركت -أنا إياد- أنّه ليس مجرّد مكان لاحتساء القهوة، بل أشبه بسوق عكاظ الثَّقافي؛ منصة غير معلنة تتقاطع فيها الفلسفة بِالسِّياسة، والفكر اليومي بِأحلام التَّغيير؛ حيث يجلس البُسطاء والمثقفون على الطَّاولات ذاتها، يتجادلون في شؤون العالم كأنَّهم يرسمون خرائطه من جديد.

هنا أتعلّم أنَّ العقول لا تنضج في الصَّمت المعزول، بل في احتكاكها بالآخرين في جدلٍ يوقظ الأسئلة الخامدة ويشحذ حدّة الوعي، ولذلك يغدو المقهى أشبه بمحرابٍ دنيوي، أعود إليه كلما أردتُ أن أراجع نفسي، أو أنْ أعيد ترتيب أفكاري المبعثرة وسط ضجيج الحياة وخواء أيامها المتكررة.

أرتشف من قهوتي وأدوّن لكم ما بقي مِن سيرتي، أنا إياد الذي خضتم معه رحلة الصِّبا بما حملته من صعابٍ

ومنعطفات، الفتى الذي قاوم العواصف بجيوب صغيرة من الأمل، هنا بين أزيز الأكواب ووشوشة المارّة، أدوّن.. لأنسى أو لأستعيدني؛ أكتب لأُلملم الفتى المبعثر في أزقة الماضي، وأمنحه مكانًا يليق بذكرياته في هذا العالم الصَّاخب.

كان فجرًا باسمًا، نظرتُ من النَّافذة فرأيتُ السَّماء مُتزينة بِنجومها المُتلألئة، شعرتُ برغبة في أنْ أنال شيئًا من بساط الكون قبل أنْ يستيقظ العالم؛ فأغلقتُ الباب خلفي، ومضيتُ أشّق شريط الظَّلام بِخطًى واثقة.

جلستُ عند ربوة تكشف لي بعض المخبوء، وهناك كتبتُ ردًّا على رسالة الشَّعيبية، قلتُ فيها كلامًا يشبه ما يقوله النَّائم عند حافة الرُّقاد، حدث أنها كانت قد صلّت الفجر هي الأخرى وتنتظر جوابي ربما بنفاد صبر، بينما دُورُ القرى المجاورة تبتسم بإنارة مصابيحها في وجه الصَّباح الموعود.

قليلًا ما كانت تمر عربة قبالة المجلس في تلك السَّاعة أما الشَّعيبية ففي عالم آخر غير عالمي، عند خالتها في المدينة الصَّحراوية (كلميم)، قررتُ أنْ أتابع طريقي متجهًا نحو (قَرن التّيس)، ففي رأيي إن غفل التيس عن وَغزه أو قضى عليه بها فلا ضير عليه؛ فالحيوان لا يُعاب على غفلته أما الغافل من بني البشر فإما أن يُعفى أو يُغلّ، وكنتُ أردد في نفسي مُستحضرًا قول بعير قومنا: «القانون لا يحمي المغفلين».

مددتُ دلوي إلى قعر البئر راجيًا ألا تكون قاحلة؛ فمرادي في السَّعبَرة أنْ أظفر منها برشفة حياةٍ تعيد إلى صدري بعضًا من نبضه المرهق، كنت أراقب الشَّمس وهي تدنو نحو المغيب، كأنها تغادرني على مهل، فيما الغادية تتهيأ للرحيل، وقد عقدت العزم أنْ أركب أول سيارةٍ تقلّني بعيدًا، إلى حيث أستقل حافلة تمضي بي نحو العرائش، كأنما الهرب إلى تلك المدينة هو خيط الضَّوء الأخير الذي يربطني بما بقي من الحلم.

إذا صاحت الدِّيكة بعد صلاة العشاء، رنَّ جرس الهاتف استسلمتُ لعذب تغريدها وقبل أن ينتصف الليل، وضعنا حدًّا لحديثنا؛ فقلتُ لها كما يحكي عبد الله بن المقفع في لياليه الألف واللّيلة: «وقبل أن يُدرك الشَّعيبية الصَّباح أمسكتُ عن الكلام المباح».

فضحكنا ملء شدقينا، كنتُ أؤنس وحدتها في غياب أرباب الدَّار بحكاياتي المتواصلة، وهي وقتئذ كل حكاياتي أقول لها في سياق البوح:

- قولي لهم يا سوسو -هكذا كنت أناديها- أن لا يؤذوني فيكِ.

فحكاية هذين البعيدين حفظتها عن ظهر قلب، ولا تزال تنتظر أن تكون لنا تفاحة، من خلالها يعرف أحدنا حال حبيبه؛ فإن صمدت الفاكهة كان المحبُّ سالمًا، وإن ذبلت فمكروه أصاب واحدنا.

بدرَ منّي ذاتَ ليلةٍ شيءٌ من أغنيات فيروز، وإنْ لم تكن فيروز قد غنّتْ ذلك أبدًا.. خرجتُ عن المألوف، وبادرتُ صديقتي الشَّعيبية بكلامٍ معسول:

- في الخرافة يا صديقتي، الفارسُ المغوار يضع حبّةَ التُّفاح فوقَ الصُّور، أمّا نحنُ فلا، وما أرى أن يكون شكلُ هذه الفاكهة إلا كأنّه... ويحكِ يا عزيزتي! ألا يمكنكِ...

وقبل أنْ أُكمل، جاء الرَّدّ من وراء ستار الأسلاك إلى صمّامة أذني:

- بلى، إنّها تُشبه القلب.
- بلى.. بلى.. إنّه هو، فلتكن فاكهتُنا تلك العضلة؛ إنْ ذُكر اسمُكِ واضطربت داخلي، فأعلم أنّكِ في مكروه ـــلا سمح اللهـــ وكذلك أنتِ، إنّ هذه العضلة لأدهى من الفواكه والخرافات، فيها تُحفَظ أغلى الأسامي، أمَا يضطرب قلبكِ إن أصاب عزيزًا عليكِ مكروه لا قدر الله؟

كنا -أنا والشعيبية- نرغد بما تشتهيه نفسَينا؛ همساتُها.. أنينُها.. وكلّ ما تجود به من حُسن الإقبال وأدب الحوار، تُقبِل بتؤدة، وحروفها تُقسِم أنّها من بديع أيّام زمان.

عند البلج قمتُ على صوت المنبّه، توضّأتُ وصلّيت استعدادًا لمواجهة تحدّيات المناخ، جلستُ إلى المائدة وتناولتُ ما شاء الله لي أنْ أتناوله ثم قمتُ مستأذنًا.. لا أحد

يعلم بقراري، ولا أين ولّيت وجهي، وحين كانت الشَّمس تميل إلى المغيب، اتّصلتُ بخالي الصَّغير:

- مساء الخير أيّها الخال، كيف أمور الدَّار؟
- وعليكم السلام، على خير ما أراد الله.

فقلتُ بعد دفن الشَّكليات:

- أنا عند دار فلان الفلاني، أنتظر منك.
- أنتَ فعلًا أقبلت! إذًا أهلًا بك خيرَ زائر، فالحقَّ والحقَّ أقول -والله شاهدٌ على ما أقول- إنَّ الحال بخالك ضاق، والدَّار كما تعرف.

أتممنا حديثنا بعد أنْ صافحتُ وعانقتُ خالي، فعانقني كابن أختٍ طال غيابه:

- الدَّار -والله- مثل وكر، ما فيها إلا الأم، جدتك وخالاتك، وأنا بينهن لا أجد من يُؤنس فراغ الأيام.

أُحدِّق الآن فيما كنتُ قد هربتُ منه قبل أعوام، غير أنَّ هذا العام بدا وكأنّه استجمع من التَّجلّد أضعافًا مضاعفة، كان واقفًا بين عيدين؛ أمّا الأوّل فإقبالي على المدرسة، وأمّا الثَّاني فانخراطي -كمبتدئ متعثّر الخطى- في جمعية للتنمية الذَّاتيّة ومحاربة هوى النّفس، نادٍ رياضيّ تابع لجمعيّة ناشئة، لكنّها راسخة المنبت، محترمة السَّيرة، تبعث في القلب شيئًا من الثِّقة والأمل.

وجدتُ نفسي في الصَّمت.. الصَّمت الذي يبدو كأنّه لغة منسية لا يُتقنها من الآخرين إلا قلة قليلة؛ لأنّ علّة الثَّرثرة قد ضربت أوتادها في بسيط ألسنتهم، فلا يهنؤون بسكون ولا يصبرون على فراغ الكلام.

حذقتُ في علم الصَّمت، ذلك العلم العجيب الذي يُخفي في طيّاته أسرى بين أنامل الوساوس، وجدّدتُ فيه السَّعي ما استطعت إليه سبيلًا، وإنْ اتفق أنْ يسألني أحدهم: «لِمَ أنت على هذا الصَّمت؟». أُجيب بقريب القول: «إذا تمّ العقل نقص الكلام وبكثرة الصَّمت تكون الهيبة».

إذا كان يوم السَّبت وصليتُ العصر، آليتُ أنا وخالي إلى ركن من أركان المدينة، صعدنا درج المقهى المطلّة بواجهتها الزُّجاجية على المحيط، ونحن يومئذ شبابًا في أوج العطاء؛ حيث كان البحر يمتدُّ كأفقٍ لا نهاية له، طلب كلٌّ منا كوب قهوة ثم جلسنا كما يجلس فتيان هذا الزَّمان، نراقب العابرين ونجعل من صمتنا كلامًا ومن الحضور غذاءً للوقت، كنت أعلم أنَّ أي فتاة تجلس بالجوار تُصبح محطّ أنظار الجميع، وجبة دسمة تُنحر على أرائك الانتظار وتزجية السَّاعات، وبينما نحن على ذلك بَدّر عن النادل قبل أنْ يأخذ طلبنا، دعابة خفيفة وهو يبتسم:

- مرحبًا يا شباب.. أمسية سعيدة.

ثم مدّ صوته يعرض المشروبات كمن يفتح بابًا لا ندخله:

- ويسكي... فودكا... أو الماحيا.

ندّت عن النادل قهقهة بعدما قال ما قال، أما أنا وخالي ابتسمنا ونظرنا إلى بعضنا البعض، ثم قلت مازحًا:

- ليلة احتفالية، إذن زجاجة شامپانيا.

لكن طلبنا كان أمسيتئذ القهوة بالحليب في النِّهاية، وحدث هذا قبل أنْ يفتك بي عشق القهوة المركزة هذه.. لتلك السَّوداء سؤدد لا يضاهيها فيه شيء، وسؤددها في مرارتها كأنها درس صغير في الصَّبر والجلد، لم نلبث طويلًا حتى رنَّ هاتف خالي الصَّغير، فقام مستأذنًا تاركًا لي فسحة من الصَّمت أرتشف فيها ما بقي من فنجاني.

بعد هنيهة رفعت رأسي ونظرت من الدَّاخل إلى الرَّصيف، فوجدته قد أسند ظهره إلى الحاجز المطلّ على حافة البحر هناك، وعلى مقربة مني بدّت حسناء بابتسامة لذيذة في غاية الأبهة، جالسة إلى رفيقاتها، لم يخطر ببالي أنَّ تلك الابتسامة موجهة إليّ، مسحت المكان من حولي فلم أجد سواي والمقاعد الفارغة تحيطُنِي، عندها رشقْتُها بنظرة بعد أنْ استيقنت من نظراتها الحارقة، فجادت عليّ بابتسامة أخرى كان وقعها عليّ كمغانم أهل الحروب.

فابتسمتُ لها، ابتسامة دافئة وناعمة، كانت سمراء، حوراء، لثغرها نور يستضاء به، كأنها تجردت من المعايب، وما أحب السُّمر إلى قلبي! فالمسك من الطَّيب والعسل شفاء الدَّاء، وما وقعها في نفسي إلا كما كنت أنشد

في خلواتي! يوم كنت أظن أنَّ الشِّعر وحده يصف ذلك الانخطاف.

وثغر درٍّ ولحظ يعفور

نازل قلبي وأي مصطبر

يبقى لتلك اللواحظ الحور

كأنما نــوره وسمرتــه

مسك مشوب بذوب كافور

أومأت لي خفية فعالجت الوضع بالإيجاب؛ فقامت من موضعها ويا ليتها ما قامت، قدها الميّاس، صدر وأرداف، الصَّابحة الوجه.. وضاءة البشرة، جمال الأنف وحلاوة العينين، مليحة الفم، ظريفة المبسم، اللّابقة الشَّمائل، رشيقة القد، رقيقة الأطراف.

كنت أرقبها بعينٍ تتذوّق الجمال قبل أنْ تلمسه، وكأنها ولدت من نسمة فجر عليل أو انبثاق من رذاذ وردٍ يندى على خدّ الرَّبيع، كل خطوة من خطواتها كانت تفتح في صدري أبوابًا من الأمل، وكل التفاتة وابتسامة تنسج حولي شباكًا من العاطفة الصَّامتة:

"سمراء باكرها النَّعيم فصاغها

بلبّانة فأدقّها وأجلّها"

شعرت حينها أنني لست في مقهى ولا بين جدران بل في فسحة من جنان، حيث تسقط الأقنعة جميعها ولا يبقى إلا خفق القلب وصهيل العاطفة. همست لنفسي: لو أنَّ الزَّمان توقّف في هذه اللحظة، لارتويت من عذوبة حضورها إلى أبد الآبدين.

ظللتُ مستلقيًا على الأريكة، أتابع سحر خطاها، كأنَّ الخطوة منها ترسم في الفضاء لوحة لا يرتوي بجمالها غيري، إنَّ لنظرة قليلة إذا ما نظرتُ إليها، أليست النَّظرة من القليل الذي يملأ القلب؟ وقفت إلى جانبي، فنهضتُ إلى جوارها، وقبل أن تنبس ببنت شفة أشرتُ لها بالجلوس، جلست، ثم قالت:

- شكرًا، إلى أين تراه ذهب صديقك؟

استويتُ في الأركة، ونظرتُ إليها مبتسمًا:

- ذاك خالي الصَّغير، هكذا أدعوه، وهو بالفعل خالي، أشكركِ أنتِ على هذه المفاجأة غير المتوقعة.

صمتُّ هنيهة، ثم أضفتُ بهدوء:

- اسمي إياد.

قدرت وقتئذ أنْ أُطلع السَّمراء على الفراغ العاطفي وقلة حيلتي تجاه الآخر.. حتى لا تقع فريسة الأمل فيخذلها صمتي وعجزي عن التَّطرق إلى حبال الحديث.

- وأنا انطوائي بعض الشَّيء، لذلك قد تلمسين شيئًا من الغرابة والانطواء مني، أجد ضالتي في الصَّمت أكثر منها في الكلام، وأرجّح كفة الاختلاء بالنَّفس، ذاك هو الكويكب الذي أعيش فيه... وأدعوكِ إليه.

ظهر النَّادل بخفته المبالغ فيها، أخذ طلبها ثم عادت إليّ بابتسامتها الساحرة، وقالت:

- لي شرف التَّعرف إلى إياد وكويكبه.

ابتسمت كاملة الحسن، وهمستُ في داخلي بيتين لابن المعتز، كأنَّ الشِّعر يليق بها أكثر من أي حديث عابر.

"ليل وبدر وغصن

شعر ووجه وقدٌّ

خمر ودرٌّ وورد

ريق وثغر وخدٌّ".

استأنفت الحديث بابتسامة خفيفة، وقالت:

- أنا يا إياد اسمي دِنى، وعمري كذا وكذا.. أكبرك بشهرين، فلنعقد صفقة صداقة، لقد راق..

وقبل أنْ تكمل مددتُ يدي موافقًا على الصَّفقة، وقلتُ بِجدية ممزوجة بالود:

- تشرفتُ، تشرفتُ بكِ آنستي، إن كان للعمر بقية؛ فالقادم سيكون أفضل.

كانت الشَّمس قد آلت إلى الأفول، فأشرتُ نحو قرصها الغارب، وقلت:

- ما أحب إليَّ إلا هذين الأمرين؛ أنْ أجلس حيث يتراءى لي البحر عند المغيب، أو الغاب عند الشُّروق.

بدأ ضوء الشَّمس يضعف شيئًا فشيئًا، النَّهار أحس بعباءة الليل السَّوداء تستولي عليه، جلستُ لا أزال تحت سقف المقهى برفقة دِنى الوسيمة، نتقاسم صمتًا له وقع الشِّعر على القلب، ومن قريب جاءنا صوت موال عذب يتسلل مع النَّسيم؛ فهزّ وجداني، أنا الذي أحفظ من تلك الأشعار:

هذه ليلتي وحلم حياتي

بين ماضٍ من الزمان وآتي

الهوى أنت كله والأماني

فاملأ الكأس بالغرام وآتي...

هادئة جميلة إلى حد أنها لم تتكلّف في جلستها، كأنها لؤلؤة مرصعة على خاتم أميرة، كنتُ مأخوذًا بتلك البساطة الفاتنة، حتى باغتني هِتاف الخال عبر الهاتف، استأذنتها.. قلت بعد أنْ أنهيت المكالمة:

- آسف، آسف جدًا.. المساء الذي تهاذى إلينا، والحديث الذي يذوب بين شفتينا آلَ إلى النِّهاية، وليست كل نهاية نهاية حزينة؛ فنهاية اللقاء هي بداية للقاء جديد.

كانت كلماتي أشبه بمقطوعة من الموّال الذي اعتادت كوكبة الشَّرق أنْ تصدح به آذان عشاقها، ويبدو أنها لمست ذلك من نبرة صوتي، إذ أجابت بابتسامة رقيقة:

- طبعًا، بداية للقاء جديد.. إذا كان اللقاء.

ثم أشارت إلى صويحباتها من بعيد، قبل أن تستأنف:

- لكن دون هؤلاء.. ودون خالك الصَّغير.

ندّت عن شفتيّ ابتسامة خفيفة، وأجبتها بهدوء:

- طبعًا، إن كان في ذلك ما يسعد قلبك.

وغادرتُ المقهى، الليل يوشّح البحر بظلامه فيما بقي صدى اللقاء يتردّد في داخلي كأنني أحمل وعدًا مؤجلًا.

دَوّن كل منا رقم الآخر ثم انصرفنا إلى حال سبيلنا، كانت أمسية شاعرية رومانسية، وإذا تتبعت القصة وجدت أنَّ خالِي أسدى معروفًا لحظتئذ لكل منا أنا ودنى، أما أنا فقد رغبت أنْ يطول غياب خالِي.. وكذلك كان، وجدت في نفسي كلامًا يجب أنْ أقوله لها، والحق أنني قلته.. والحق يقال أني أجزلت في القول، وجاد لساني ألوانًا من الحديث، حتى دنى لم تظل شفتاها مقفلتين، فككت عقدتهما.

هكذا أرادت الأوضاع أنْ نخضع -أنا وهي- حتى جمعت بيننا فسحة السَّبت لحديث يطول ليلًا، ويتقطع إذا انسلّت خيوط الشَّمس إلى الظُّهور عند الصَّبيحة، أما إذا كنت في الدَّار مختليًا بنفسي، فكنت منشغلًا عن القيل والقال، وإذا أظلم وجه الليل ولم تكن هناك حصة تدريبية، فكان الوقت من نصيب دنى الشَّقية.

حدث ذات مساء، وعلى حين غرة سألت دنى:

- لم أكن ذات فضول، لكنك دفعتني إلى ذلك دفعًا، لم أعد أمسك زمام الفضول.. أَوَ تودّ أن ينتفخ بطني ويصفر لوني؟

ضحكت من قولها، ثم قلت بعد أنْ انقطعت:

- أي اصفرار ذاك وأي انتفاخ؟ ألا بَعُدَ الشر منك كما بعدت ثمود؟ ما قصة الفضول؟

- كنت في غنى عنه إلى أنْ ثقل وزنها على صدري.. أقصد من أين لك بالدِّريهمات؟

كانت الخفافيش تخلصت من قيودها، والصَّراصير تصرصر، اعتلى الليل فوق كرسي الملوك، مخفيًا بجبروته ما أمكنه الاختفاء، إلا ما تنيره مصابيح المدينة.

جلست إلى جذع شجرة التِّين، قبالة المدينة حيث تسكن دنى، أجل هناك... وسط بيت بين أحضان الدَّار، على شارع يعج بالهرج والمرج، بعد هنيهة، قلت:

- بسيطة، يمكن أنْ نقول مخاطرة، في المخاطر نفوز بالعسل أو بلسع النَّحل، لهذا أنا إلى حد اللحظة أحظى بالعسل.

سبقت حروفها تنهيدة.

- هممم.. إذن، الممنوعات هي عسلك؟

هزّتني نبرتها، لمست فيها شيء من النُّفور والإذعان.

- إذا شئت القول فالممنوعات كذلك، أخاطر بغرامات من المخدر حتى أكون هنا بين زقاق العرائش، أبيعها بمقابل ينسيني زوبعة الوجل.
- هممم... الوجل؟ أتوجل مما تأتيه عن طيب خاطر؟

مرت ثوانٍ خيم فيها الصَّمت ثُمّ كسرته دنى:

- لنعقد صفقة أخرى.

أجبتها..

- أي عقد؟ وأي صفقة تلك؟

عمّ الصَّمت ثانية بيننا... هنيهة أخرى، ثم قصّت شريطه بحروفها الفجائية:

- إذا خاطرت ثانية ثم جئت بما تَجِيْء به إلى هنا؛ فلا تبعه أحدًا، أنا المشترية ولك ضعف ما تجنيه، وإن كانت الكمية التي تخاطر بها هذه المرة أثقل وزنًا، فلك أجر ثلاثة أضعاف.

خيم الصَّمت من جديد، وكان قلبي يطرق كألف مطرقة دفعة واحدة... استولت عليّ الدَّهشة، كيف لهذه الملامح أنْ تطلب ما طلبته للتو؟ عجز لساني عن فك شيفرة هذا الطَّلب، وانسكبت سيول الحروف على مسامعي بلا توقف، شعرت بالدُّوار والانبهار في آنٍ واحد.

ثم بعد لحظة وبعد أنْ عدت إلى رشدي، همست لنفسي بعزم: «سآتي بما تطلبينه، حتى وإن كان لغيرك، أما إن حق قولك، فوالله سأحضر لك ذلك أضعافًا مضاعفة، وستشهدين بأم عينيك حقيقة ما أقول، وتعرفين أنَّ العزم لا يلين حين يكون القلب مؤمنًا وفيا بما عاهد».

شعرت حينها بثقل القرار يجثم على صدري، ومع ذلك لم يزل داخلي يشع بنور من حزم وإصرار، نور يذكرني بأنَّ الإنسان لا يبيع كرامته، بل يخلص لكل وعدٍ يقطعه، مهما بدا صعبًا أو مستحيلًا.

أقبلت عطلة فجائية لم أحسب لها حسابًا أو لنكن صرحين لست من الذين يسعون وراء المجهول؛ فأنا لا أبحث وراء الأشياء، أتركها حتى أجدها أمامي، أو تجدني هي فأذهل من مباغتتها لي.

أما دنى فكانت منتظرة موعد السَّبت كأنها تستشعر قدومه، وعندما جاء السَّبت، وصليت الصَّبح، خرجت إلى المحطة وسارت بي الحافلة سيرًا مُماتنًا، كأنَّ الطَّريق يعرف أقدامي قبل أنْ أُبلغه بها، وجدت والديّ على حالهما كما تركتهما للأيام، وعمتي الشَّيطانة لم تُطْفِل، أما الصُّغرى فلها طفلة شاء القدر أن تكون ذات متلازمة التَّوحد، أما من كانت نيته صافية، فأصلح الله ذريته وحفظها خير حفظ، وأما من علت مشوبته عنان السَّماء؛ فسيُحرق بلهيب أفعاله وهكذا كان حالهما، فشفوذ صنيعهما المشتعل أتاهما بالكيّ، العدالة السَّمائية لا تخطئ.

حصلت على ثلاث قطع الشُّوكولاتة الممنوعة، وكانت كل قطعة تزن أكثر من سابقيها، ووزن القطع الثَّلاثة معًا يفوق كيلوغرامًا، شعور غريب انتابني، بين الرِّضا بما جنيته، والخوف مما قد تحمله الأيام المقبلة.

وجدتُ والدي العِضّ كأنْ لم يكن يومًا عِضًّا، أما الوالدة فتشكو إليّ قائلة:

- إنَّ أباك فعل كذا، قال كذا، خاصم فلان، أساء إلى علان، ضرب أختك، منع عن الدَّار كذا.

لم تكن إلا فسحة أُطلُّ مِن خلالها إلى أحوال الدَّار، إلا أني وجدت ضوضاء، نُكست أحوالي بأخبار هذه الدَّار.

شاءت الأقدار أنْ تمر الأيام العجاف بمنغصات أسرية، وكذا مسايسة هذا وذاك؛ وعند نهاية العطلة، عدتُ أدراجي إلى العرائش، لم أخبر أحدًا بموعد قدومي ولا حتى تلك القريبة إلى قلبي، التي يسبقها شعور الحنين قبل أنْ تصلها أخباري.

أما الشَّعيبية المسكينة، فذابت أخبارها بين ليلة وضحاها، وكأنها لم توجد يومًا، قبل شهر انقطعت عن عالم الإلكترونيات، ولم أعد أجد سبيلًا للوصول إلى خبر من أخبارها، كانت تبقى في قلبي كقطرات النَّدى المتلألئة على الأوراق في الصَّباح، والحق يقال أنَّ غياب واحدة من هؤلاء الذين تجود بهن الحياة مرة لمحزن أشدّ الحزن.

جلست على أطلال الدَّار، كما جلست قبل أعوام، أراقب الجدة تسقي الخضروات، والعمة تدلي دلوًا، والخال الصَّغير تائه في كل الجهات.. وعندما غربت الشَّمس، أقبلت على معول وأخذت أحفر قبرًا للمخدر، لففت حوله كفنه البلاستيكي، وقبرته بيدي، ثم وضعت فوقه جذع صبار مكسور، وكأنَّ الموت نفسه لا يجرؤ أنْ يقترب من أسراري المدفونة.

حول البئر أصوات الصَّراصير تتردد كهمسات الليل الجلي، وعندما مررت بها إلى الدَّار، أحسست أنَّ هذا

الموضـوع سـرّا لا يشـاركه معـي أحـدًا، سـرّ بينـي وبـين نفسي.

همست لحظتئذ لنفسي: «إذا بعتها هذا، من حقّي أنْ أشتري لنفسي ما أشتهيه، أما الخال فلا يجوز لـه أنْ يطّلـع على هذا السِّر، ولن يعرف شيئًا عن دنـى، ولا أحد سواه سيعرف».

كان لـي ذلـك السِّر الـذي لـن يطمثـه إنسٌ ولا جـان، طمستُه فـي أعمـاق الأرض؛ حيث أقبـرت أغراضـي بـلا شهود، وعندما دخلـت الـدَّار وسلمت، أخـذت كـيس اللـوز ومددته إلى جدتي، هنا كانت همهمات الخالات تزداد دفئًـا: «أنار الله دربك وزيّن سـريرتك، إنـك لـم تبخـل علينـا بمـا تجود به بلادكم» شعرتُ حينها بطمأنينة غريبة، بين سرّي الذي أحمله وحدي ودفـء النَّجاة من مثالب الطَّريق.

أعلـم أنَّ دنـى تنتظـر عـودتي مـن الحسـيمة، وكـان موعدنا مساء السَّبت، أما أنا فكنت أدفـع عـن نفسـي لبـوس الشَّك والغلو، وأتأمل في التَّاريخ كيف طُمست أخبـار كبـار ورفيعي الشَّأن بين أكمامه، وكم كان السَّبب في ذلك تسلّط لسان الأنثى! تـذكرت ابنـة الملـك -التـي عشـقت أردشـير- وكيف خانت أباها الملك الذي أطعمها الشَّهد والزُّبد والمخ، ثم دلّت عاشقها المارد على موضعٍ يمكنه -مـن خلالـه- أنْ يغزو أباها ويمسحه من وجه البسيطة.

وفي تلك الليلة، بعـدما تسـلل الجميـع إلـى مضـاجعهم، حملت الهاتف بين يدي وهاتفتها، كان صـدى نبرتهـا علـى

الطَّرف الآخر كأنها كانت تنتظر النِّداء منذ دهر، فارتجف قلبي بين لهفة اللقاء وغموض المصير.

- يا أهلاً بالغائب، كيف ألفيت أمور الدَّار وأهلها؟ أغدًا موعد السفر أم الأحد؟

هكذا جاءني صوتها دافئًا متسائلًا، يختبر الغياب كما يختبر الحضور.. أجبتها ببرودٍ افتعلته:

- على خير ما يكون، أما أنا فقدمت اليوم وأنا بالعرائش، لم يكن بدٌّ من نشر الخبر؛ فالرَّفيقة لا تحتمل التَّشهير.

قالت في لهجة محمّلة بالوصايا:

- أي، يا سيدي، ألف سلامة، أما الرفيقة فالحق يُقال: لا ينبغي لك أنْ تثق بأحدٍ وهي إلى جانبك.

ابتسمتُ، ثم قلت:

- إذن، ماذا عن مساء الغد؟

وقبل أنْ تهبني جوابها، عاجلتني بالسُّؤال وقد علت نبرتها بنبرة شكّ خفي:

- وأين الرَّفيقة؟ أهي إلى جانبك؟

أجبتها بنبرة الواثق، كأنني أضع حجرًا على قبر سرّي:

- لا، إنها مدفونة حيث لا يمكن لمحراثٍ ولا لأية وسيلة من الوسائل أنْ تسطو عليها.

لم تكن مقتنعة بوجودها أصلًا؛ فالوجه الذي أحمله لا يمكن حشره داخل قوقعة المخاطر، لكن خلف براءة الملامح، أستنكر وأحيط نفسي بما لا تطيق، قالت لي بنبرة تحمل وعدًا وغموضًا:

- إذن، غدًا سيكون لنا حديث طويل، قد يطول حتى آخر الليل، وذلك إن كنت فعلًا قد تمكنت من ذلك.

ابتسمتُ بخفة، وأجبتها:

- دنى، لا تغرّنك المظاهر؛ فالشَّوك يحتضن فاكهة لذيذة الطَّعم، وفي نعومة ملمس الأفعى -كما قال الشَّاعر- عند أنيابها العطب، أما المطلوب فموجود، وما علينا إلا أنْ نضرب الكمية في أربعة.

في صمت الليل، كنت أسمع عقارب السَّاعة تهمس كأنها تناديني، ملوّحة بأنَّ الثُّلث الأخير قد آل إلى الزوال، آمرةً إيّاي أنْ أُلقي الهاتف جانبًا وأخلد إلى ما يخلد إليه سائر البشر.

لكن صوت جدتي ارتفع فجأة، عياطًا متواصلًا اخترق جدران النَّوم، كنت ما أزال أصارع الفراش، فإذا بلغ صياحها مسامعي، فركت الخمول واستويت واقفًا.

تباطأت قليلًا، وقلت:

- صباح الخير أيتها الجدة، والله لم أشعر.

فقاطعتني بلهجة عفوية يملؤها الحنوّ اللحظي:

- أقبل، الفطور جاهز والمائدة معدّة.

لمّا لمّت الخالة المائدة بعد الفطور، قمتُ إلى حيث أخلو بنفسي هناك، وجدت رسالة من دنى، فأقبلت عليها بشغفٍ لا أخفيه، بادرتني بالحديث عن العوالم التي تجمعنا، وعن الصَّفقات السِّرية التي لا يعلمها أحد سوانا.

لكن السِّر الأكبر الذي ظللتُ أخفيه حتى عن نفسي، كان دنى ذاتها. اتفقنا على الموعد والمكان، ووجدتني أزداد يقينًا أنَّ هذه الصَّديقة -أو من تكون- تحسن ركوب أمواج المغامرة، كانت بحق شقية.. قطة شرسة، كلما اقتربتُ منها، ازدادت لهبًا ودهاءً.

أخذتُ عند مدخل الحي (سندويشًا) وزجاجة من مشروب طاقة، وجلستُ على كرسيٍ عند ساحة شبه حيّة، كانت الكراسي من حول فارغة إلا كرسِي، فيما الشُّجيرات الثَّلاث اصفرّت من إهمال البلدية لشأنها، وإذا بالنِّجم يهاجم جذوعها السَّقيمة، والقطط تنتشر هنا وهناك وحيث ما وليت وجهك، كأنها تحرس المكان بصمتها الماكر.

أقبلتُ على السَّندويش بنهم، ثم تقدمتُ نحو الدَّار ببطء، أرتشف من الزُّجاجة رشفات متوترة، كأنها تزيد من عطشي بدلًا أنْ تطفئه، وصلتُ إلى حيث أشار لي سائق التَّاكسي بسبّابته، فلم تكن هناك حياة تُستشعر.. حتى

إنَّ رفرفة بعوضة كانت تُسمع بوضوح في ذلك الصَّمت الموحش.

رنّ الهاتف فجأة، ففزتُ من عالمي الخيالي إلى واقعي وموقعي، في تلك الليلة أرتدي بذلة رياضة سوداء، ومحفظة ظهر تحتوي على الشُّوكولاتة المحرمة، رن جوالي أجبتُ بنبرة شبه مهموسة:

- أهلًا، أين أنت؟ أقريب؟

سمعت صرير الباب يفتح، ثم أضافت:

- هذا الحي نائم ليل نهار، يمكنك الإقبال في أي وقت تشاء، أنظر إلى يمينك هناك حيث الضَّوء الأزرق، أتراك تراه؟

كانت الدَّار لا تبعد سوى خطوات معدودة، خطوات تُحسب على رؤوس الأصابع، أسرعتُ بخطاي نحو ذلك الضَّوء الأزرق الخافت، وكلما اقتربتُ منه ازداد قلبي خفقانًا، وعندما أشرفتُ على الدُّخول، تماسكتُ لحظة، وسألتها:

- أنا عند الباب، أين تراكِ أنت؟

وما هي إلا ثوانٍ حتى تراءت لي دنى الشَّقية عند الباب الخارجي الآخر. أعدت الهاتف إلى جيبي ثم تقدمتُ نحوها بخطوات ضيقة، كانت ليلتها ترتدي فستانًا أسود قاتمًا مكشوفًا أسفل ركبتيها، يضفي عليها مهابة فاتنة، بدت

لي كأميرة ضاعت في الأزمنة القديمة، أميرة قيلت فيها أبيات شعر قبل قرون خلت، وما زال صداها يرنّ في ذاكرة الليالي.

"تبدي في السَّواد فقلت بدرًا

تجلى في الظَّلام على العبادِ"

الليلة شبه مضاءة، القمر فيها تعمّد أنْ يترك بعض العتمة لتستكمل القصة نقصها، السَّماء صافية والنجوم متلألئة كحبات ملحٍ ألقتها يدٌ خفية فوق سوادٍ شاسع، أمسكت دنى بيدي، يدها باردة كنسمة صباح عليلة، قادتني خلفها حتى دخلت الدَّار وغلقت الأبواب دوننا.

في داخلي كان شيء يثور: كبرياءٌ يريد أنْ ينكر عليها جرأتها، وأنْ يقف في وجه هذا السَّحر الماكر، لكن صوتها حين تسلّل إلى أذني، انساب كالماء على صخرةٍ متيبّسة، فكسر حدّتي وأذاب عنادي.

قالت، وكأنها تُلقي تعويذة:

- لا تقل أدنى حرف، أنت الليلة ضيفُ دنى... في دارها، في خلوتها، في سرّها.

سرت معها وأنا أرتجف من صمتٍ لم أفهمه إلى يومنا هذا، أراقب خطواتي كمن يضع قدمه على جسرٍ فوق هاوية، في جيبي قطعة صغيرة قادرة أنْ تُبدّل وجهي بدراهم وافرة، لكنها أمام حضورها بدت تافهة بلا قيمة،

تحتم عليّ الاختيار: أنْ أبيع؟ أم أنْ أُسلم نفسي لتحالفٍ مع دنى؛ حيث الخسارة مكسب، والانقياد بطولة؟

حين ولجتُ خلفها الباب، انفتحت الدُّنيا على إيقاع آخر، موسيقى هادئة تحوم في المكان لا تأتي من آلة وحيدة، صوت عزيزة جلال يصدح من عمق الزَّمان.

"مستنياك يا روحي بشوق كل العشاق

مستنياك تعبت تعبت من الأشواق

مستنياك وأنا ذايبة يا عيني".

حنجرة تتدلى منها نجوم وتفيض منها الظِّلال، لحظةٌ اختلط فيها الزَّمان بالمكان؛ حتى شعرت أنني لست في دار، بل في أسطورةٍ تُكتب للتو.

جلستُ إلى مائدة مثقلة بما لذّ وطاب، إلا أنني كنت في غنى عن كل ما فيها، ذهبت جهود دنى الأنيقة سدى، وأقسمتُ في نفسي بأغلظ الأيمان ألا تنحدر لقمة من حنجرتي من حذق فتاة بانت على محياها الحلوة هالة من النُّفور، لكنني لم ألبث أنْ أمد يدي، وأخذتُ شوكة، وأطعمت المدللة بيميني، انفرجت أساريرها بعدها، وكانت تلك الابتسامة سلاحًا في وجه صرامتي.

لم تغب عني ركبتيها العاريتين، بدى ذلك واضحًا منعكسًا على عينيّ الزَّائغتين، ولا يخفى ذلك على دنى أيضًا، لكنني بادرتها عن قرب ولمستها، وهمست لها، كأنما أشاركها لحظةً من الوضوح والإعجاب، فيما كانت أصابعي تتحسس سمرة وجنتيها الناعمتين.

وما إن أخذتُ بحبة العنب الأسود، ومددتُها إلى فمها المختوم، حتى شعرتُ بأننا دخلنا في سيمفونية من الصَّمت والارتباك، وكأنَّ الشَّاعر نفسه ينشد عن لحظةٍ كهذه؛ حيث كل حركة وكل لمسة تحكي قصة سرّية، لا يفهمها إلا مَن عاشها بنفسه.

"عرضن فعرّضن القلوب من الجوى

لأبرح من كي القلوب على الجمر

كأنَّ الشِّفاه اللّعس من خواتم

من التِّبر مختومُ بهن على الدُّر"

كم وددت أنْ يشتد بينها وبيني رابطٌ يجعلني أقرب إليها، غير أنَّ الأمر لم يكن كذلك؛ فهي من الفتيات اللواتي يتقن لغة الجسد بكل تفاصيلها، بالجوار أزهار الشُّموع ترفرف بخفة، بينما أدارت دنى زر الصَّوت على الجهاز، حتى تناهت إلى مسامعنا جرات التِّشيللو، فغمرنا صمتٌ ممتدّ لحظة قصيرة.

ثم شقّ صوت رقيق ذلك الصَّمت، يفتح بابًا خفيًا بيننا، مدّت دنى كفها فوق ركبتها العارية، في حين جلستُ أنا على يمينها، أتكئ على يدي اليمنى، أراقب كل التواءة وكل ميل من جمال قد أسرني.

ثم انسلت رشات من نسيم المساء إلى حضن الدَّار، تغازلنا بهدوء، حتى أتى صوت الفنانة هناء رشيد ليملأ المكان ثانيةً.

يا ليل طل أو لا تطل ... لا بد لي أن أسهرك

لو بات عندي قمري ... ما بت أرعى قمرك

مكملاً سيمفونية الليلة بين ضوء الشُّموع ووخز الحواس، وصمتٍ لم تكسره سوى الموسيقى وأنفاسنا المتقاربة.

أمسكت بأنامل دنى الجميلة، واستقمت واقفًا وأنا أشعر بثقل اللحظة وحلاوتها في آنٍ واحد، وضعت يدي إلى خاصرتها والأخرى على ظهرها، بينما طوّقت عنقي بكلتا يديها.

نظرتُ إلى بؤبؤ عينيها وإذا بي أُقبّل جبينها بلطف، فتفاجأتُ بأنَّها أخذتني بعناقٍ طال، حتى حسبته سمفونية موسيقية لا تريد أنْ تنتهي، شعرت بأنَّ الزَّمن قد توقف وأنَّ العالم بأسره أصبح خلفنا، تاركًا لنا لحظةً من صمتٍ متوهج وحميميةٍ لا تُنسى.

قلتُ لها وأنا أتأمل المكان:

- كيف حالك بين هذه الحيطان؟ أستطيع أنْ أقول إنك محظوظة، لكن الأحاسيس تقول غير ذلك، أما هذه الدَّار فقليل أنْ يُقال عنها دار، إنها قصر أو فيلا.. وأنتِ بين جدرانها تائهة، أين أسرتك؟

كنا قد دخلنا غرفةً فإذا بي أجدني قد عبرت الزَّمان، وقفت أمام تلافيف عباءة فيكتوريا.. تحيطني ألوان لوح مصقول، شراشف مطرزة.. زرابي مبثوثة على الأرض كبحرٍ من الألوان، ونمارق مصفوفة بانتظام، ولوحات زيتية معلقة ترجع في الغالب إلى فنّانين (مقلدين) رحلوا وبقي أثرهم، وفي آخر ما مررت به كان بابًا خشبيًا، نقشته أنامل حِرَفيٍّ نقشًا فنّيًا دقيقًا، ما إنْ فُتح حتى تراءى وراءه سرير لا يقلّ بذخًا عمّا في الدَّار، بل كان له موضع يزيده زينةً ووقارًا، أقفلت الباب دوننا ثم التفتت إليّ، وقالت بشيءٍ من الحزن، يتخلله ابتسام مصطنع:

- أبي.. الرحّالة يمكث في فرنسا عامًا كاملًا، فإذا جاء الصَّيف عاد إلى البلد، لكن لا أحد ينال من عناقه أو دفء حضوره، أما السَّيدة الوالدة فهي تارةً عند الخالة فلانة وتارة أخرى عند الجدة أو الخال، وجودها في هذه الدَّار نادر، وإن حضرت فهي تحضر معها خدمًا يعيدون ترتيب الفوضى، ثم تمضي من جديد.

هكذا هي الحال يا سيدي إياد.. دنى تحت ثقل الانتظار، غالبًا ما أستقبل مكالمة هاتفية من أحدهما، يظنان أنَّ ما يسمونه (الجاه) مفتاحًا للحياة، لكنني أحمد الله أنني لم أقع في قوقعة حبٍّ زائف، ولا بين أحضان ثورٍ هائج، انقطعتُ قبل أن أقبل على ذلك، كانت الفوبيا من فعلٍ أراه ذميمًا رفيقة دربي منذ شرخ الصبا.

كلماتها تتساقط أمامي مثل اعترافٍ ثقيلٍ، خليطٌ من التَّحدي والخذلان، ومن عزلةٍ تغلّفها أبهة القصور، شعرتُ في تلك اللحظة أنني أطلّ على قلبٍ مسكونٍ بالانتظار، قلبٍ لم تنجح الفخامة في إسكات وجعه، أخذتُها بين أحضاني حتى هدأت قليلًا، ثم أقبلت بأناملها الرَّقيقة على كف يدي، كأنها تستمد مني بعض الطَّمأنينة، بدأت تسترسل في بوحٍ غريب، يقطر مرارةً وحنينًا:

- كانت عمتي الوحيدة هي التي أحبتني، تكبرني بثلاث سنوات فقط، لكنني كنت أناديها دائمًا بالأخت منى، في أحد أيام الرَّبيع حالفها الحظ وأخذت إجازة، أقصد أنها استغلت غياب أحد الأساتذة، فخرجت تركض كما يركض سجينٌ مظلوم هارب من أصفاد قانون فاسد، ركضت حتى وجدت نفسها عند رُبى الوادي، حيث تعبر الفُلك بالنَّاس إلى الضَّفة الأخرى من المدينة.

وعمتي منى المسكينة من بين أولئك الذين اجتازوا الواد المالح على الفلك يومئذ هناك، ألفتْ أنْ تنظر إلى الكون بعين الظُّرفاء، قلبها مليء

بالحِلم والبراءة، قبل أن تغيب عن الأنظار، التقت شابًا، وهي خجولة بطبعها، إلا أنها وثقت فيه، ظنّته فارس أحلامها الوردية، لكنه كان في الحقيقة كابوسها، اختلى بها بين أحضان الأشجار، ثم افترسها افتراس الضباع للغزلان.

كلمات دنى تتساقط في أذني مثل شظايا زجاج، وصوتها يهتزّ بين الأسى تارة، والاعتراف تارة أخرى، كأنها تضع بين يديّ جرحًا لم يلتئم قط.

وسالت أحلامها الوردية تحتها حمراء قانية.. فعل فعلته، وتركها مُعلّقة بين الصَّدمة والذُّهول، ذلك الجرح بين فخذيها كمن شقّ عضلة قلبها قسمين، لم تُخبر أحدًا بما جرى، بل خبّأته في مذكرة صغيرة، دفتر ذكرياتٍ عادي المظهر، لكنه في حقيقتها كان شاهدًا على مأساة عمرها، خطّت بأناملها المرتعشة تفاصيل الحادثة، كأنّها كتبتها بدم بكارتها على وريقاتٍ شاهدة لا تمحى.

همست لي بصوتٍ متقطع:

- لن أخفيك يا إياد.. كلما قرأت ما خطته، أشعر بأنفاس ذلك النَّذل تحوم حولي، أتراءى مخالبه تمزق الغشاء الرَّقيق تحت معزوفة الألم والصُّراخ، أتراها استصرخت أحدًا حينها؟ أم كابدت وحدها.. تقاوم صلابة وحشٍ وهو يفتض براءتها بوحشية؟

بدا صوتها أشبه بجرح ينزف من جديد.. جرحٍ لم يُفلح الزَّمن في تضميده، ولم تُطفئ ناره الأبهةُ ولا الجدران العالية، شعرت أنني أمام قلبٍ مثقلٍ بالنُّدوب وأنَّ حضني الذي يضمها لم يكن كافيًا لانتشالها من قاع تلك الواقعة.

الليلة دافئة وناعمة، سالت فيها دموع دنى بصمتٍ شفيف، المسكينة تطهّر نفسها من ثِقل الحكاية، بدت لي صادقة، صافية النَّفس تجاه تلك الضَّحية التي اختطفها القدر في ربيع عمرها.

أخذتُ بيد دنى إلى المطبخ، وكأنني أذكّرها – وأذكّر نفسي – أنني ضيف هذه الليلة، وأنَّ الضيافة لا تكتمل إلا بفنجان قهوة، ما هي إلا لحظات حتى جاءت تحمل فنجانين، وجلست إلى جانبي على أريكة تتوهج بألوانها الدَّافئة.

احتسينا القهوة في صمتٍ عابر، أنتظر أنْ تستكمل حديثها، أنْ تتابع سرد ما آلت إليه العمة منى بعد عودتها إلى الدَّار.. كنتُ أترقب في كلماتها مصيرًا لا بد أنْ يُكشف، مصيرًا يكتنفه الغموض والمرارة.

قالت لي دنى بصوت متهدّج، وهي تستعيد صدى تلك الصَّفحات الملطخة بالدَّمع:

- عادت عمتي إلى الدَّار بعد الحادثة، ذلك ما خطته على أوراق مذكرتها البائسة، كانت ترتعد خوفًا،

لكن أعماقها تحتفظ بشعلةٍ من حبٍ ملتهب.. حبّ لشيطانٍ افترسها ثم مضى. كلما وجدت نفسها في خلوة، أمسكت الهاتف واتصلت بالرقم الذي تركه لها، لم يكن أحد يجيب ربما كان رقمه حقًا، وربما محض كذبة، لكن المهم أنها كانت تتحرق شوقًا إليه، راحت ترسم ملامحه بالحروف، وكانت –يا إياد- بارعة في تصوير ما يخالج صدرها المتضرر.

تدهورت حالها، وازدادت غبطة الفراش باحتضانها حتى فقدت شهية الحياة كلها، اضطر والدها أنْ يأخذها إلى المشفى، وهناك ذات مساء تسللتُ خفية إلى سريرها، ووقعت عيناي على ما كتبته أناملها السَّقيمة، أخذتُ فقرة وصفت فيها ملامحه وأعطيتها إلى إحدى الصَّديقات، تلك الصَّديقة كانت تدرس في المعهد الإسباني للفنون التشكيلية –وأنت تعرفه– فأخرجت ألوانها وشرعت ترسم.. ولا أجزم أنها رسمت من ملامحه خمسة أو يزيد، وما إنْ انتهت حتى ظهر أمامنا وجوه رجال أقل ما أقول عنهم، اللعنة إنَّ كل رسمة أجمل من الأخرى، لكن خلف وسامتهم جمر من الرَّذيلة.

زرت عمتي ضحًى بعيدًا عن أعين العائلة، وحملت لها الصُّور ما إن وقع بصرها عليها حتى قفزت من مكانها فزعة، تتصبب من ملامحها رعدة الاعتراف، أدركتُ الحقيقة يا إياد.. خرجت يومها دون

أنْ أنبس بكلمة، ومضيت إلى جدي (أبوها)، وقدمت لهم ما كتبت وما رُسم، قبل أنْ يهبط الليل، كانت الشُّرطة قد رفعت سبابتها نحو السَّفاح؛ ذاك الذي كفح دم عمتي منى بين الأشجار.

تنهدت دنى، وانحطم صوتها في حلقها، أما أنا فمددت يدي أمسّد على شعرها؛ أبحث لنفسي ولها عن مهرب من ثقل الحكاية، ارتشفت هي من فنجان قهوتها رشفة خفيفة، ثم استرسلت بصوت متقطّع:

- لم تُطل الأيام بعمتي حتى فارقت الحياة بنوبة قلبية، ضعفها لم يكن إلا ثمرة هول الصَّدمة.. صدمة السَّفاح، أما هو فقد جاءت به الشُّرطة قبل أنْ يتسنى لها مواجهة قدرها، التَّحاليل المخبرية كانت موجبة، وأُسدل السِّتار، رحلت عمتي منى عنا، إلى دار البقاء.

صمتت وكأنها أفرغت في كلمتها الأخيرة آخر ما في صدرها من رماد الذَّاكرة، عندها عانقتها، أضمّد بيدي ما لا يضمده الدَّهر، السَّاعة الأولى من الليل قد أفلت من عنقها تحت مقصلة الوجع، حين أقبلت عليّ دنى تتحسس وجهي بأناملها الرَّقيقة، كأنها تبحث في ملامحي عن وطنٍ لم تجده في أركان بيتها العامر.

الفصل الثامن

تحت دبيب النمل تناثرت آخر شذرات الندى، وبتُّ أرى الحركة من حولي صورةً صمّاء، لم يبقَ إلا خفقة طفيفة لدمٍ يطرق شريانًا على صدغي، تارةً يغرورق الدمع من وخزها وتارةً يسيل أنفي، حتى تأقلمت مع لسعات الألم وصارت لي فنًّا، أو قل إحساسًا متفرّدًا:

لستُ أعاني صداعًا ولا أوجاع مفاصل، إنما أعاني تلك الصورة المعكوسة التي تتوارى في مدٍّ وجزرٍ يبعث على الدهشة:

كيف يُسجَن القتيل ويُدفَن القاتل؟

وكيف تسير العامة على الطريق بينما تُساق العربات فوق الرصيف؟

سيكولوجيًا العقل الباطن تعصف بها طوارئ لا تُحَدّ، حتى غمرتني أنايَ اللاواعية بخيلاء لم استدعها، لقد أغمَدتُ أحلامي في ديجورٍ باطنيٍّ مطبق، وها أنا ذا أحاول أن أشهر قزحيةً زرقاء في سماء الحرية المنشودة، تمرّدتُ على الحرف، أنفقتُه حرًّا أكثر من أن أسجنه في صولجان الملوك أو أقيّده في لؤلؤةٍ تلمع على جيد أميرة.

طالما آمنتُ أن في الحرف خلاصًا، وآمنتُ بحروفي، بكل كلمة كوّنتها وأطلقتها في فضاء أسميه إبداعًا (الحقيقة

أسميه خربشة)، أطلقتها كما ينطلق فارس على صهوة القلم، أقول ما يرشح من قدح المعقول فأُظهره، وما يفيض من سويداء المجون أكتفي به سرًّا.

تساءلتُ:

يا ترى كيف أغادر وأترك هذه الوسيمة في دوامة ماضٍ خطف من بين ذراعيها عمّتها؟ أأغادر أم نغادر معًا؟

خالجني يومذاك إحساس تمكن مني قبلها مرتين، الأولى يوم رحلت الجدة إلى دار البقاء، والثانية تضمنها رحيل الجد، صدقوني سادتي أن الرحيل فعل يدمر الحُصين ويبقيك لا سمح الله كومة تشاؤم وآلام؛ وهكذا بدافع إنساني وجدتني بين خيارين «البقاء والمغادرة» لم ألبث أن كسرت صخرة الصمت الجاثمة فوق الألسن، خرجت عن شرودي وقلت لها بصوتٍ شبه مهموس:

«حان وقت الرحيل يا دنى، قد تكون المدينة نامت ولن أجد وسيلة أستقلها إلى القفر حيث أسكن...»

لكنها قاطعت جملتي؛ وأطبقت على شفتاي بأصابعها الناعمة، أجابت همسًا، بصوت عذب:

«أنتَ الآن ضيفي... والضيف لا يرحل إلا إذا تمَّ اليوم الثالث.»

لحظتئذ، أدركتُ أن الليل كلّه ينعقد بين أصابعها، وأنني لستُ مجرّد ضيف؛ بل أسير لهذا السحر الذي يُغلق فمي ويعطل قراري، قاطع همسها وشرودي رنين الهاتف فجأة، كان المتصل خالي الصغير، قال بلهفةٍ تخالطها الريبة:

«أأنت بخير؟

لم تكن حاضرًا لحصة اليوم، أقصد الحصة التدريبية... والدار؟»

أجبته هامسًا كأني أخفي سرًا عن العالمين، ملأت رئتي نفسًا وقلت:

«اليوم أنا بضيافة أحد الأصدقاء كانت صدفة، ولهذا لم أخبر أحدًا... غدًا، إن شاء الله..»

ما لبثت أن أنهيت المكالمة حتى عدت إلى دنى، الحزينة بعينيها الواسعتين، مددت يدي أتحسس سمرة وجنتيها، ثم همست:

«أما الآن فأنا معكِ، أيتها القطة الحزينة... فكيف نقضي هذه الليلة؟

السوداء والسمراء إلى جنبي، وأنا بهما أهيم هيامًا.»

ابتسمت، ثم أمسكت بيدي وساقتني إلى حرم الفراش الوفير، هناك بدأ دفء المشاعر يتسرّب خيطًا خيطًا، كأن

الليل يغزل لنا غلالة من السعادة، لم يخطر لي قط، ولا خطر لها، أن تلتقي عاطفتنا العاصفة مع تلك الغرامات الخبيثة من المخدّر، لكننا فعلنا، فإذا ليلتنا خليط من نشوة الغرام وسُكر البلاء.

لنصدق الحديث، ما كان للحب أن يكشف لنا عن هذه اللذة التي نذود من ينابيعها لولا ذلك الدواء ـــ كما يسمّيه المدمنون، لولاه لما ارتشفتُ من عسل هذه القطة، ولا تعطّرتُ بطيب أنفاسها، لولاه لما لاذت هي بي، أنا الفتى الذي يجود عليها بألوان زاهية من الملذّات، تغطي بها خراب الخلاء، وتحتمي بي من فراغ الروح الموحش.

لقد اختلطت الحقيقة بالوهم، والعاطفة بالمخدّر، حتى غدا كل واحدٍ منا يُغذّي الآخر:

هي تهبني أنوثتها الغامرة، وأنا أهديها حُلمي الملوَّن بالهروب، وفيما بيننا كان البلاء يبتسم في صمت، متخفيًا في رحيقٍ نُسميه حبًّا.

اختطفنا دفء الجسدين إلى عالم يعبق بنسيم القُبَل، وما إن تخلّصتْ من قيود فستانها الأسود الضيّق، حتى بادرتني بيديها لتُخلّصني من ثِقَل ثيابي، كانت تتهيّأ أن تمنحني ما تجود به الأنثى العاشقة، غير أنّ شيئًا اعترضني، أمسكتُ قطتي بين ذراعي وسألتها، صوتي يتقطّع بين الوجد والوجل:

«أما كانت لكِ هذه الأنفاس... أي تلك التي تصدر عند...؟ أقصد... ألستِ خائفة أن يؤول بك الأمر إلى ما آلت إليه...؟»

أطبقت على فمي بقبلة صامتة، ثم أفلتتني ببطء، وعيناها تلمعان بدمعةٍ مترددة، وقالت بصوتٍ مزيجٍ من التحدي والخذلان:

«أما الأنفاسُ فأنفاسُك، وأما الروحُ فروحُك، وإذا قلنا القلبَ فقلبي، فكيف تسألُ من تجود عليك بألوانٍ من المتع هذا السؤال؟

لقد أخبرني نبضُك قبل ساعةٍ أنك لن تؤذي قطتك...»

كلماتها سقطت على صدري كقطرات ماء آسن على جمرٍ مشتعل،

قالت ذلك، ثم أقبلت عليّ بشفتيها، تلوذ بي كمن يرتشف ألذّ ما يُرتشف، بدت سمرتها تحت خفوت المصباح تتلألأ كالعقيق، وذلك ما أشعل في صدري فتيل المتعة، فأوقد بيننا حربًا لا يخمد وطيسها.

تقدّم الليل ليرعى أسرار الغرفة، ويحفظ ما يُخفى بين جدرانها، وما يبوح به الجسد حين يستسلم للدفء والقبل، كانت قطتي شَرِسة؛ لم يسبق لقطٍّ من قطط المدينة أن

نافسها في جرأتها أو حال بينها وبين ما تخفيه تحت غطاء البراءة.

وأنا — والحق أقول — وجدتني بين أحضانها وأحضان دارها أسيرًا، أهدتني سرّها الأول، لو رآها أحدُكم مارةً بالجوار، لحكم عليها بعينٍ قاسية، ونسج حولها سلاسل البهتان، غير أني وقد شهدت بعيني، أقول إن هذه السمراء البريئة لم تذق طعم اللذّات من قبل، وإن جسدها شاهد صامت على صدقي.

كلما تقدّم الليل، انفتحت زهرة الشهوة وازداد الوجد، حتى غدت الآهات من حولنا كترانيم تشقّ سكون الدار، كنتُ ألمح من نافذة الغرفة نخلةً تحوم كخيالٍ فوق شفير البئر، شاهدة على جنون العاشقين.

إذا داهمنا العطش، سكبت أرواحنا ماءها في قوارير من كريستال مسجّى، فارتوينا وارتوت أرواحنا من نبع زلال لا ينضب، وما إن باغتتنا الرعشة الأولى حتى ذُبنا في عناق طويل، يُذكّرني بما أنشدت العرب عن الشوق حين يفيض على الجسد والروح معًا:

"أدرها بالكبير وبالصغير

وخذها من يدي قمر منير

ولا تشرب بلا طرب فإني

رأيت الخيل تشرب بالصفير"

ابتسامتها عند لمسةٍ عابرة ألذّ من فاكهة الخلد، وعطر جسدها يتسرّب إلى روحي عسلًا مصفى، حتى بتُّ أسكر من لثغة أنفاسها، وكلما اقتربتْ منّي ازددت لها عشقًا، وغمرتني قناعةً أن حبّها سرّ يقيم في دمي، وليست مجرّد عاطفة آفلة.

وأنا، سادتي لم أخلق للحب، ولم تُكتب أشعاره في دواويني، لم يولد فيّ إلا صدى الصمت، ووجدت نفسي دائمًا وحيدًا بين الهواجس، أراقب العالم ينهل من العاطفة، بينما أنا أكتفي بمشاهدة لهبها من بعيد... إلا من ليال أنس عابرة.

أما الليلة، فقد ارتويت من دفء قربها كما يرتوي العاشق من نسمات الحبيب الأول، ودنى تصدر تموّجات كموال وجداني... عند فيض الرعشات، لحظتئذ شعرت بأن كل علل المحبين تشفى، وأن دفء اتحادنا يربطنا بما لا يُرى ولا يُقال... تمامًا كما نظم الشاعر في أبياته، حين قال إن العشق وحده يداوي ما أفسده الزمن:

"شفاء الحب تقبيل وضم

وجر البطون على البطون"

والحق أقول:

إن هذه الفاتنة تستحق أن يُضرب بحبها المثل، آهٍ لو كانت الأمهات يلدن مثل هذه القطة! فإذا تحدثت في الجدّ وجدتها عاقلة فقيهة، وإذا داعبتها رياح الغرام ألفيتها شاعرة، تُنشد من قلبها ما لا يُكتب، أمّا في لحاف العشق فهي كالنهر هائجة، تجود بألذ ما تملك، فتُلهب شوقي بهمسها ولمسها، وإلى ذلك السائل السري الذي يسيل من شهوتها كأنه ماء معين... ويصدق على جودها ما أنشده الشعراء منذ القدم:

"فأعطيتها المحض من فضتي

وأعطتني المحض من تبرها"

فلما اجتمعنا رقَّ بيننا الكلام، وذابت الحواجز كما يذوب الملح في الماء، وسكنت نار الصدور بعدما كانت جمرًا متَّقدًا، وانحلَّت عقد الأمور التي كبَّلت روحينا، كان بيننا قولٌ وفعل:

أمّا القول فمشافهة، يتردّد همسًا بين الأذن والشفاه، وأمّا الفعل فمزيج من رغبةٍ جارفة وعاطفةٍ لا تُكذّب نفسها.

هنالك اقتربت منها أكثر، حتى صارت أذنها على مرمى أنفاسي، ثم قلت هامسًا أوشك أن أجعله سِرًّا لا يُسمع:

"وناهدة الثديين قلت لها اتّكي

على الأرض في ديمومة لم تمهّد"

فاستجابت، قائلة:

"فقالت على اسم الله، أمرك طاعة

وإن كنت قد كلّفت ما لم أعوّد"

انقضت ليلتنا الأولى، فوجدتني عند الظهيرة ما أزال بين أحضان السرير، أستعيد شريط ذكرى لحظات دافئة، كانت سهرتنا مثمرة، أما هي فبقيت نائمة إلى جانبي كطفلة أرهقها اللعب، نهضت من موضعي دون أن أحدث أدنى حشرجة، كأنني أتسلل من حلم مقدس، دخلت المطبخ، وعلى نار هادئة وضعت الرّكوة تغلي.

عدت إلى دنى، فإذا بها ما تزال غارقة في نوم هن، قبّلت جبينها، وداعبت خديها برفق، حتى فتحت عينيها

بنصف وعي، أخذتها بين يدي، مجردة من ملابسها، وسرت بها إلى الحمام، وكان الرشاش مضبوطًا على الدافئ، ينساب علينا كنسيم مطر ربيعي، وبعد أن فرغنا أحضرت لها منشفة تسترت بها، وجلست معي إلى مائدة الإفطار، تبتسم ابتسامة تخبئ وراءها سرّ ليل طويل.

أما هذه الآنسة فكانت مصممة على الأيام الثلاثة، متمسكة بما تعهدت به، وحين ارتفعت المآذن بأذان الظهر، وجدتها قد تهيأت لاصطحابي في جولة على مشارف المدينة، نهضتُ حين مدت أناملها الرقيقة إليّ، تستدعيني إلى مغامرة جديدة، فمددت يدي بدوري، واستجبت لنداء لم أملك حياله صدًّا ولا تأجيلًا، قالت لي وهي تبتسم:

«سنخرج إلى المدينة، ألستَ القائل إنك في حاجة إلى اقتناء بعض الملابس؟»

مددتُ يدي إلى أناملها، واستويت واقفًا ثم أجبتها:

«أي والله؛ فأنا أبحث عن كذا وكذا فانظري ما أنت فاعلة... إن رأيتِ مثل ذلك في محلّ من قبل.»

استقلنا عربة أجرى، وما لبثت أن قالت بنبرة يداخلها الشك:

«أظنني رأيت ذلك، غير أنّي لست متيقنة...»

مرت عشر دقائق فإذا بالعربة تتوقف، نزلنا منها إلى محلات أنيقة الواجهة، دلفنا أبوابها واحدة تلو الأخرى، حتى إذا بلغنا الباب السادس وجدتُ الألوان التي تميل إليها نفسي، الأسود وهو نصيبي المفضّل منذ القدم، والأبيض الذي أرى فيه مستقبلي، كما لو كان وعدًا ينتظر التحقق.

طلبت من الآنسة دنى رأيها في هذا وذاك، فما كان منها إلا أن وقّعت عقد الشراء، وأما أنا بذاك المشتري المتردّد، فقد رأيت أنني إن لبست هذه المرة ما تشتهيه الأذواق الأنيقة، ظفرتُ بشيء يرضيها ويرضيني، حين رفع أذان العصر، كنّا قد بلغنا باب الدار، دخلنا معًا إلى كنفها، وأقفلت دنى الباب دوننا، جلسنا إلى الأريكة الوافرة، وإذا بالقطة ـــ كما أحب أن أناديها ـــ تقول بصوت أقرب إلى المواء:

«سوف نلتقي هؤلاء الحمقى عند غروب الشمس...»

قاطعْتُها، وقد بدت على محيّاي نسمة ضيق:

«أي مغرب هذا! فوالله ما كنت راغبًا في شيء من ذلك، أما إذا كنتِ ترين الأمر ضروريًّا... فسأتخلف عن الدار حالًا، وإن كان المغرب وخرجتِ فاتصلي بي.»

رمقتني بعينين مفعمتين بالرجاء، وقالت:

«أأنت جادّ فيما تقول؟

لقد وقعتُ في فخ إحدى هؤلاء الفتيات، وإن غبتَ عني ظنّت بي الظنون...»

ابتسمتُ لها، وأنا أغير ملابسي بما اشتريناه آنفًا، ثم قلت:

«سأكون، إن شاء الله، عند حسن ظنك... إن أحسنتِ الظن بي يا قطتي.»

مددت أصابعي أداعب خدّيها، قبل أن أستأنف:

«والله لأكنّ من الحاضرين، غير أنني في حاجة إلى قضاء غرض، فإذا خرجتُ الآن كنتُ عندك في الموعد.»

عانقتها.. ثم هممت بالخروج، ولم تتركني حتى أقسمتُ بأغلظ الأيمان أنني لآتٍ إذا كان المغرب، والحق أن دنى هي من اختارت ملابسي ليلتئذ، قالت بنفاذ صبر:

«لتلبسن مثل الذي لبستُ أنا، حتى إذا سرنا جنبًا إلى جنب ظنّ الناظر إلينا أنّا عاشقين أو توأمين.»

خرجتُ بعد ذلك إلى حانوت أحد الأصدقاء أو لنقل أحد الفنانين، كان صديقي هذا إذا أخذ يحلق من شعري لا تكفّ شفتاه عن السرد، يروي من القصص ما ألف له أن يرويه، فأجد في حديثه — رغم طوله — شيئًا يلامس قلبي أحيانًا.

غير أنّه ما لبث أن بادرني بالحديث عن زوجته، تلك التي حملت ابنها ورحلت به إلى إيطاليا، تاركةً زوجها وحيدًا كغريب في وطنه، وما إن يأتي الصيف حتى تعود ومعها وليده، وما إن رآني على عتبة باب الحانوت حتى نهض مرحبًا بي أيام ترحيب، فلما جلس إلى مهمته، واضعًا المقص بين أصابعه، التفت إلي يبتسم في مرح معهود، وقال:

«كيف الحال يا صاح؟

اخلع عنك هذا الرداء حتى نبدأ، ثم عد إليه بعد أن ننهي عملنا ما لي أراك اليوم على غير عادتك؟

غمز بعين تخفي ما يرمي إليه، ثم أضاف:

«أخبرني، أيها الصديق...»

امتثلتُ لطلبه، وجلست على الكرسي، ثم شرعتُ أحكي ما وقع وما دار، قلتُ له مازحًا:

«أتريد أن أبدأ القصة بعبارة: كان يا مكان؟»

ضحك ملءَ شدقيه، وأومأ بالإيجاب، فتابعتُ:

«كنا في حفظ الله حتى قيل إنها قبلت حضور سهرة، أو شيئًا من هذا... أنكرتُ عليها ذلك، وما إن سمعتُ باقي حديثها حتى ألفيت نفسي مهرولًا إليك، علّ المقص يصلح ما أفسده الدهر».

أخذنا معًا في ضحك وهزل، فقال الحلاق:

«ذكّرتني بقولهم: قصدتك والمقصود الله، إن لك عندي دينًا أوفّيك إياه، فلن تخرج من الباب كما دخلت.»

أخذ الأمر بجدّية تامة حتى آخر لمسة، وما إن استويتُ واقفًا حتى وفيتُه أجره، لم ابتعد عن حانوته كثيرًا حتى رنّ الهاتف، كانت دنى المتّصلة، بصوت يفيض قلقًا أو شوقًا:

«أين أنت؟

أتراك آتٍ، أم أنك عارضٌ عن هؤلاء... وعنّي؟»

نزلتُ من عربة أجرى، فألفيت قطتي، في لباس أميرة، حتى خُيّل إليَّ أن الليلة إمّا زفاف لإحدى الصديقات، أو حفلة يعجّ فيها الشاربون من كؤوس البذخ والعلوّ،

التفتت إليّ وقالت بنبرة نصف عتاب ونصف ارتياح:

«الحمد لله أنك هنا... كنتَ لتخبرني أنك في حاجة إلى حلاقة شعرك؛ حتى يهنأ لي البال، ما أصلب جمجمتك!»

لم تتركني استرسل، فما لبثت أن ووقفت عربة أجرى ثانية، دفعتني داخلها دفعًا، كأنها تخشى أن ألوذ بالفرار.

الطريق يقودنا إلى دارٍ في قفر شبه موحش، وقف التاكسي وترجّلنا إذا بدنى تخرج الهاتف من محفظتها الجلدية، تتصل بأحدٍ ما، أما أنا فكنت – والحق يقال – في حذرٍ من هذه القصة، تفحّصتُ ما تقع عليه عيناي، أحفظ كل إشارة مرور، محاولًا اكتشاف المجهول، هكذا يفعل شخصيات أفلام حضرت فيلمهم؛ لم تكن هناك حركة إلا نادرًا، عربة تمرّ ثم تختفي في الأفق البعيد.

فُتحت الباب، فإذا بفتاة أنيقة الملبس، في عينيها زرقة لافتة، وشَعرها بين الأصفر والبني الفاتح يتماوج تحت الضوء، عانقتها دنى كما تعانق قطة أليفة صاحبتها، وتناهت إلى مسامعي كلمات إنجليزية، لم تكلّمها بالعربية قط، دخلنا، وأقفلت الباب دوننا.

الفيلا لم تكن تقل أبهة عن فيلا أسرة دنى، أضواء ملوّنة تدور في كل ركن، كأنها مسرح للأنوار، وجدت نفسي محصورًا بين أنظار "المراهقين"، لم تكد تمر لحظة حتى تمتد نحوي يد ولد أو خدّ فتاة، ما وجدت للراحة سبيلًا وسط هذا الجو، قبل أن تتعالى الموسيقى ويختلط الصفير بالصياح، جلبة تعصف داخل أسوار الفيلا.

هناك، رأيت دنى تلوذ بالأموال من بين أيدي هؤلاء الشرذمة الغريبي الأطوار، لكنها لم تُطلعني على الأمر، خشية أن تنجم عني ردة فعل لا تُحمد، اقتربتُ منها قليلًا، وهمستُ في أذنها:

«كيف لي أن أسهر غريبًا وافدًا؟

إما أن تكوني حيث أكون، أو أتخلف حالًا...»

كنتُ تائهًا بين ذلك الحشد كما تهت أول عهدي بالمدرسة، لا أعرف لهذا بداية ولا نهاية، ولم أكن في حاجة لمثل هذه العادات المشبعة بروح البذخ والعلو، دنت مني بخطوات سلسة، وهمست:

«أمهلني دقائق، سأكون إلى جانبك.. أمرٍ ما...»

أجبتها في صوت خفيض، مقارنة بتلك الجلبة، أؤكد وعدي:

«أنا عند وعدي، وعلى بيّنة من أمرك؛ فأنا لست كهؤلاء الذين ينام أكثرهم على ريش الطاووس: القطع ملكك، والأرباح أرباحك... وإن كنتِ حيث أكون، فهذا ربحي.. وعيناك تكفيني.»

أومـأت برأسـها، فتبعْتُهـا وسـط الحضـور الصـاخب، حتى إذا بلغنا غرفـة خاليـة عـانقتني دون سـابق إنـذار، ثـم مدت إليّ رزمة النقود تلك، مبلغ لا بأس بـه، وأردفـت أنّـه إن بيعت القطعة فثمنها سيكون من نصيبي.

في تلك اللحظة اقتربت منها الفتاة الشقراء، همست لها بكلمات لـم أتبينهـا وسـط الصـخب وهيجـان الحضـور، ثـم التفتـت بنظـرة خاطفـة نحـوي، وأكملـت همسـها، لـم أعبـأ بتخـاريف البنـات تلـك، لكـن الحـذر ظـل يلازمنـي، مـا إن اسـتفحل الـدخان علـى الجـو حتـى تنحيـتُ جانبًـا، حيـث يتسرب النسيم عبر شق صـغير فـي النافـذة، هنـاك تقـدمت منــي الشـقراء بخطـوات ثابتــة، وقالــت بإنجليزيــة ونبــرة هادئة:

«كيف جاءتك الأجواء؟

هل أنت مرتاح؟»

أومأت بالإيجاب، ثم قلت مجاملًا:

«الأجواء... نوعًا ما جيدة.»

ابتسمت، ثم سألت:

«ألا تُدخّن؟ لقد أخبرتني دنى أنّك أنت من أحضر هذا الشيء... تأتي به ولا تدخّن؟»

ابتسمت بدوري، وأزحت خصلة من فوق جبينها، ثم قلت:

«أنا لا أدخّن هذا الشيء أحضره بلا تكاليف، فقط من باب المغامرة.»

لكن كلمة مغامرة استثقلت على لساني، فساعدتني في قولها، أشرق ثغرها بابتسامة فاتنة، وأضافت:

«مظهرك بريء... ما كنت أظن أنك ستفهم عليّ، أنت تستطيع تكوين جملك بالإنجليزية.»

أجبتها بهدوء:

«أجل... بريء حقًّا، ولغتي الإنجليزية بسيطة جدًا... مكتسبة من التواصل مع بعض الناس لا غير.»

كانت هذه "لينا" فاتنة بما في الكلمة من معنى؛ قوامها متوازن، رمانتين بارزتين، خصر دقيق، وأردافها ممتلئة جذّابة، أما ابتسامتها... ففيها ما يُسقط عن القلب وقاره، كما نظم أحدهم قديمًا.

"أبريق تلألأت أم ثغور

وليال دجت لنا أم شعور

وغصون تأودت أم قدود

حاملات رمانهنّ الصدور

مثقلات أردافهن ولكن

مرهفات من فوقهن الخصور"

حسنةُ المظهر، صافيةُ الملامح... تاه بصري عند زرقة عينيها وحدّتهما، وانبهرت بصفاء بشرتها الوضاءة، كيف لا تُنظَم فيها القصائد:

"قالوا بمقلته زرقة

تشين فظل لها مطرقا

وهل يقطع السيف يوم الوغى

إذا لم يكن متنه أزرقا "

"إذا نظرت إلى عينيك وجدت لهما على القلب سلطان لا يقهر."

كانت لينا كآية مسطرة في كتاب الجمال، حضورها يزرع في الروح رجفة وفي الجسد اضطرابًا، وكلما ابتسمت، شعرت أنني أقف على حافة قصيدة،

قبل أن تخمد نيران الحفلة، كانت لينا الأوروبية وأنا أخذنا في حديث يطول، اقتربت مني وأثنت علي، وعلى اجتنابي عالمًا يعبق بروائح المخدرات والمهلوسات، كلما

مرت فتاة، توقفتْ عندها لثوانٍ، حتى وصلنا إلى الآنسة دنى، فأخذتني من ذراعي وخلت بي لنفسها.

دنى السمراء تربعت على عرش الوسامة، أما أنا فكنت في غنى عن الحشد، لا أكاد أفلت من هذا أو ذاك حتى يطوقني آخر أو أخرى بحديث مبتذل، أنقذتني لينا من لغط هؤلاء، وسلمتني إلى دنى، خرجنا عند الباب ومع حلول العاشرة جاءت لينا مسرعة نحونا، وقالت مخاطبة دنى:

«تعبت، سأغادر الحفل حالًا، وأنتِ ستبقين؟»

أومأت دنى بالنفي، وكذلك أنا أرى ما رأته لينا.

«إذن أخبري صديقتك، ولنذهب إلى حال سبيلنا. ما رأيك؟»

دخلت دنى بخطوات خفيفة، أما أنا ولينا فوقفنا عند الباب: السماء كانت صافية، ونسيم المساء يحوم حولنا، الحي يعبق بفوحان زهور ليلية، ولينا تحدق بي بنظرات تائهة،

أقبلت دنى على ذراعي وخطت خطوة بطيئة، وكذلك فعلت لينا وأنا بينهما، هربنا من تلك الفيلا المصروعة، وما تزال ضوضاء الموسيقى تتسلل إلى مسامعنا، كنتُ

وقتئذ أطفوا وحيدًا بين متشعبات كويكبي، بينما كانتا تتحدثان عن أشخاص محددين.

تحت أديم السماء أمشي الهوينى، نفحات ساحرة تداعب وجهي، مطمئن الوجدان، أخالني متحررًا من قيود الدنيا، مغمور بهذه المنحة الربانية، فتتسع خطاي وتتسارع، لا ألبث حتى تنبهني واحدتها متذمرة.. «إياد! على رسلك يا فتى...»

يا ليتهما يعلمان سر تسارع خطاي، لكن قد نتشارك الطريق في ظلام يبعث على خلجات روحانية، لكننا لن نتشارك شعورًا واحدًا، أنا بدويّ يعشق تفاصيل الحياة، وهاتان لا يحمل لهما ظلام الليل إلا الوحشة والحنين، ما زلنا نمشي وما زال القمر يراقبنا في صمت، حتى أفقت من دوامة السحر المسائي على تمايل أحد السكارى بالجوار، انتفضت لينا.. وشعرت بأصابع دنى تضغط على يدي، نظرت إليهما وقلت أهدئ من روعهما:

«هؤلاء السكارى تجد ألسنتهم أرق من ألسن الشعراء..»

لم أكمل لهما ما أردت قوله حتى قاطعني واحدهم، اقترب منا حتى اختلطت أنفاسه بأنفاسي، توارتا دنى ولينا وراء ظهري، فسلم السكران، قبضة يده كانت ترتجف، ملامحه الشاحبة تنبئ على أنه خائر القوى غائب الذهن،

كل ما قاله أنه لم ير أي منا بالجوار من مستعمرة السكارى هذه من قبل، وأنني أبدو له فتًا أنيقًا، فدعا لي بالصلح وتمنى لي وافر الحظ، ثم سألني بعدها بتأتأة:

«من.. من.. من أي.. أين أنت في الإخوة»

فنظرت في كلام السكران هذا، ووجدت أنه قال «الخوت» كيف لسكران أن يجعل من منهج المستعمر - الذي مشى بين أهلنا بنار الفتن - منهجًا مغيبًا؟

فتساءلت وقتها، من السكران نحن الذين تسري عدوى العنصرية بيننا؟

أم هذا الذي قال "الخوت"؟

أجبت الرجل الذي أخذ منهاج السالكين من درس أبا نواس في قصيدة لولا خوفي التيهان لأخذتها لي منهاجا:

دَع عَنكَ لَومي فَإِنَّ اللَومَ إِغراءُ

وَداوِني بِالَّتي كانَت هِيَ الداءُ

صَفراءُ لا تَنزلُ الأَحزانُ ساحَتَها

لَو مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتهُ سَرّاءُ

إلى قوله الذي يبعث على مباهج وخفايا هذه العلة المنهي عنها لإثمها:

لِتِلكَ أَبكي وَلا أَبكي لِمَنزِلَةٍ

كانَت تَحُلُّ بِها هِندٌ وَأَسماءُ

حاشا لِدُرَّةَ أَن تُبنى الخِيامُ لَها

وَأَن تَروحَ عَلَيها الإبلُ وَالشاءُ

فَقُل لِمَن يَدَّعي في العِلمِ فَلسَفَةً

حَفِظتَ شَيئاً وَغابَت عَنكَ أَشياءُ

لا تَحظُرِ العَفوَ إِن كُنتَ اِمرَأً حَرِجاً

فَإِنَّ حَظرَكَهُ في الدينِ إِزراءُ

لم أزل بجانب الرجل حتى تخلص من لجاجة لسانه، فأجبته:

«أنا ريفي»

نظر السكران إلى إخوته من الرضاعة "الخمرة"، حتى ترنح وكاد يسقط أرضا، فأمسكت بيده فإذا عاد إلى توازنه، قال:

«ريفي!»

قالها كأنه يؤكد معنى الريفي في عاميتنا، فأومأت له أوافقه:

«ريفي.. ريفي، حسيمي أو ناظوري.. آاه؟»

فأخبرته أنني "حسيمي" فزعق، حتى كاد يسقط مرة ثانية ثم بدأ يخبرني بمغامراته التي لا تنتهي، وخوضه في غزوات بين الدرك والمهربين، فلم أجد بد من مقاطعة الرجل، استأذنته الذهاب فأذن لي، عاد السكران إلى سمره مع السكارى يتغنى بأبيات لم أكن قد سمعتها من ذي قبل، يقول فيها:

رَبابَةُ رَبَّةُ البَيتِ

تَصُبُّ الخَلَّ في الزَيتِ

لَها عَشرُ دَجاجاتٍ

وَديكٌ حَسَنُ الصَوتِ

أخرجت هاتفي فدونت البيت الأول، ومشينا في طريق صامت، لما اسيقنت لينا أننا قطعنا وطرًا في مسيرنا، وابتعدنا عن المستعمرة المتمايلة، قالت لدنى:

«أهذا أحمق!»

ظننتها تقصد السكران، فأخبرتها أنه سكرانًا وليس بأحمق، فضحكت دنى وقالت:

«تقصدك أنت»

قطعنا معًا مسافة لا بأس بها، قبل أن تستقل الشقراء عربة أجرى تقلها بدورها إلى دارها، أما دنى وأنا، فقد وصلنا إلى الفيلا غير مبالين بما كان أو بما سيكون. قالت دنى:

«ألا بعدًا لهؤلاء... تعبت من الوقوف، أما لذة الحفلة فلم أتذوق طعمها... وزد على ذلك أشعر بالجوع.»

ألقت بنفسها على الأركة الفاخرة، هذا ما نقوله نحن معشر البسطاء إذا ما رأينا شيء لأول مرة في مسيرتنا الحياتية، لا نجيد الصمت في حضرة الجمال،

أمن المعقول أن تسمح أمهاتنا - معشر البسطاء - بأخذ قسط من الراحة فوق هكذا آرائك؟

فتحت أزرار قميصي وألقيت به فوق الجانب الآخر من الأركة الوافرة، ثم دخلت المطبخ فوجدته عائمًا في سكون أنيق، فتحت باب الثلاجة ثلاث مرات، كل ما يشترونه هؤلاء الناس معلب، وما نحن بهذا بعالمين، أو بالأحرى لم نتعود هذه الوجبات السريعة، اعتاد أمثالي - أن نرى - كيف تقضي المرأة "كانت أمًا أو أختًا ... أو غير ذلك" يومها بين أصناف الخضروات وما يصل إلى

سوقنا من أسماك ولحوم، أما ما دون ذلك فلم نألفه على رفوف مطبخنا المكدسة.

اهتديت أخيرًا إلى أرز أبيض، وبيض مع البطاطس، لم ألبث أن مزجت بينهم في سلطة، مع سمكتين مقليتين وكأسي مشروب غازي، وهكذا، لم نبت ليلتنا متعبين جائعين،

دنوت من دنى، فإذا بها ملتهبة متعبة، اعتلت ملامحها الوضاءة آثار الوهن، وتمكن الإعياء من عينيها فاعتالهما الذبول تسند رأسها بكفٍ مرتجفة على جانب الأركة، تشكو الصداع النصفيّ الذي داهمها على حين غفلة، كأن خيوطًا نارٍ حارقة تشقّ جبهتها وتلتفّ حول صدغيها، أخذت أنفاسها تتلاحق، ووجنتاها توردتا بحمرة قانية، أرهقتها صخب الحفلة، وأثقل كاهلها الإرهاق.

أخذتُها في حضنٍ وارفٍ كما تُؤخذُ البنية في ربيع عمرها، لم يكن ذلك خوفًا عليها، بل حنوًّا منها وإليها، دخلنا بابَ المطبخ؛ فاستقبلنا سكونٌ دافئ، وزّعت نظرها بيني وبين المائدة، ثم استقرَّ بصرُها هناك، كأنها رأت في السلطة والملعقة الساكنة والكؤوس الكريستالية أسرارًا لا تبوح بها الأواني، أجلستُها كما يُجلس الأبُ ابنته على عرشٍ في رفقٍ وخشيةٍ معًا، ودلّكتُ صدغيها قليلًا، أُسكِّنُ

ما قد أثقل رأسها من ضجة أو حركة؛ ثم ألقيتُ بجسدي إلى الكرسيِّ المجاور لها، وفي نفسي يقينٌ أنها توشك أن تسأل - عن الطعام ربما أو عن الجوع، وقد تسأل عن المعنى الذي يدور في الخفاء حول هذه المائدة؛

فالمائدة، يا لَها من مرآة عجيبة!

تجمعنا لنأكل، ثم تُفرّقنا لنفكر:

أيُّ جوعٍ هذا الذي نُطفئه، جوعُ الجسد أم جوعُ الروح؟

مددتُ يدي إلى «البرّاد» النحاسيّ العتيق القابع فوق الرّف، وأدركتُ في لحظةٍ من صفاء الفكر أن هذه الآنية البهيّة لا توضع هنا لتُستعمل؛ بل لتشهد على زمنٍ كانت فيه للأشياء روحٌ والشاي الشاهد على الكرم، أخذتُها في تأنٍّ، أستدعي من خلالها ظلَّ جدٍّ غابرٍ أو تلك الروح التي رحلت وبقيت آثارها حول النحاس، ثم عدتُ إلى جانبها، والبرّاد في يدي، يلمع تحت ضوءٍ خافتٍ... مرّرتُ أصابعي على نقوشه، ومسحته كما يمسح علاءُ الدين مصباحه السحري، طلبًا للعجب، ورغبة أن ينبعث من هذا النحاس ما غاب من الدفء في قلوبنا... قلت مبتسمًا:

«هكذا فعلتُ تمامًا، حتى ظهر ما على المائدة»

المائدةَ حقيقة لم تكن تنتظر البـرّادَ لتُكشـف، بـل كانـت تنتظر من يوقظها من صمتها الطويـل، جلسـنا إلـى المائـدة كما يجلس الجائع إلى الطمأنينة فـي حضـرة الطعـام، جئنـا على ما في الصحنين والسمكتين، أطعمتها بيديَّ لقمةً لقمة، كأنما أُطعِم الحياة لتستبقي في وجهها نضارتها، وكانت في كل مرة تميل برأسها إلى كتفي في دلالٍ يشفُّ عن امتنـانٍ، أو ربما عن عمق إنساني؛ فلمّـا فرغنـا نهضـتُ إلـى غسـل الصحنين والكأسين، أُعيد إليهمـا صـفاءهما كمـا أُعيـد إلـى نفسي سكونها؛ ثـم أعـدتُهما إلـى موضـعهما، والتفتُّ إليهـا أتحسّس دفـءَ جبينها فـإذا بحرارتهـا تبلـي حسـنا فـي بـطءٍ رحيم، الصداع النصفي أدرك أن الحنانَ دواءٌ لا يُقاوَم.

نظرتُ إلـى رقّـاص السـاعة يتـأرجح فـي صـبرٍ يـزن أنفاس الزمن؛ سـألتُ دنـى عـن صـداعها النصـفي، اكتفـت بتحريك كتفيهـا، ورفعـت يـديها نحـوي، فـدنوتُ منهـا دون تردّد، شيء ما في عينيهـا يـأمرني ولا أملـك سـلطانًا علـى عصيانه؛ همست في أذني همسًا، تسلّل إلى أعمـاقي كلهـب حـارق، فـارتجف كيـاني ارتجافًـا، وتلاشـت بينـي وبـين الحركة تلك المسافة القصيرة التي تفصل الحلم عن اليقين، قالت بصوتٍ أقرب إلى الرجاء منه إلى الطلب:

«احملني بين ذراعيك إلى الغرفة...»

لـم أتـوانَ فـي حملهـا، هكـذا يُحمـل الحلـم، وأنـا أضـع حملي هذا على السرير الوارف الفخم، تساءلتُ:

هل تدوم هذه السويعات الجميلة؟

أم أنها عابرة، كمن يخرج من حلمٍ بخُفَّي حُنين؟

حاولتُ طرد هذه الخواطر التي تراودني عن نفسي كلما حاولتُ الانسجام مع الواقع، لكنها أبت إلا أن تُعكّر صفو الوداد، كمن ألقى في بركةٍ راكدةٍ ساكنةٍ حجرًا أهاجها، ثم حاول أن يرى وجهه عليها ثابتًا.

أداعب وجنتيها بأصابعي المرتعشة، شارد الذهن، أسبح في جنان شوبنهاور، ولم أجد في تلك الجنان إلا شجر التشاؤم وثمره، عضضتُ شفتي لعلّي أرجع إلى الحاضر، لكنّ من شبَّ على شيءٍ شابَ عليه، قاومتُ في وجه العاصفة، وأخفقت، فلما بلغتُ عنان السماء بشرودي هذا، قمتُ إلى دورة المياه متحجّجًا، فإذا بي أنظر إلى ملامحي البريئة، وقد تحوّلت إلى سؤالٍ بالغٍ في الكِبَر، مكشّرٍ عن انكسارٍ واضحٍ في ملامحٍ مكفهِرّة.

نظرتُ إلى وجهي مطولًا، ثم همست:

كم تغيّر هذا الوجه! لم يعد ذاك الفتى الذي كان يصدق بأن للحب خلاصًا، ولا ذاك الذي كان يظنّ أن الحلم طريقٌ إلى الحقيقة، كأنما الزمن التهمني في غفلة، ثم ترك لي من نفسي قشرةً تتنفس وتتحرّك، لكنها خاوية كجرّةٍ قديمة في بيتٍ مهجور.

عدتُ إلى الغرفة، كانت دنى قد غفت في سكينةٍ حالمة، ووجهها يبتسم لشيءٍ لا أعلمه، جلستُ إلى حافة السرير، أرقب أنفاسها تتوالى في نظامٍ تماما كعقرب الساعة،

مددتُ يدي أتحسس خصلات شعرها، فلم أجد في الملمس دفئًا كما كنت أجد من قبل، بل برودةً غريبةً تسكن أطرافي وتجثم على صدري، لا أشك أن وراء هذه الأطراف المتثاقلة، وهذا الضيق الجاثم على صدري، سرًا ستبوح به الأيام.

سألت نفسي في همسٍ لا يسمعه أحد:

أحقًّا هذا هو الحب؟

أم أننا، نحن المساكين، نخترعه لئلا نواجه خواءنا؟

إن كان ما بيننا حلمًا، فإني قد استيقظت منه على صوت قلبي وهو يتهاوى كقصرٍ من رملٍ عند أول موجة، أنظر إلى وجه صبوح، وجه تملؤه السكينة، فأشك في شكي!

وأحـاول جاهـدًا حسـن الظـن بمشـاعر هـذه الصـورة الوسيمة، لم ألبث أتقلب بين شكي ويقيني حتى همسـت لـي قائلة:

«اقترب، أكثر..»

أخذتنا اللحظة في حضن دافئ، تلاشت فيهـا سـوداوية فكري، وامتلأت يقينًا، فلم ألبث أن تجـردت أنـا ودنـى مـن ضجيج الأفكـار وحمـى الأقـدار، وشـربنا مـن نهـر العسـل المصفى، وسكرنا مـن خمـرة لـذة للشـاربين، وبهـذا يكـون عند هؤلاء الشعراء القدامى مـا يختصـر وصـفًا نقـرب بـه الصورة ونكسر به سردنا هذا:

"قمت نشوان وقامت *** في تهاد وتثنّي

ونضتْ عنها قميصا *** ثم لما ضاجعتني

قلبت بطنا لبطــن *** قلت بل ظهرا لبطن

فانثنت في خجل قـا *** ئلة عند التّثنّي

أنا حانوت بوجهين *** فلط إن شئت وازن"

فلمـا أصـبحنا قمـت نشـوان وقامـت فـي تهـاد، دخلنـا الحمام، وعلى هذا الحلم سـتقوم دنـى بتكاسـل وتصـطحبني إلى محطة عربات الأجرة القروية، وبهذا أكون قـد أتممـت أيـامي الـثلاث فـي صـحبتها، وهـي فـي صـحبتي، وهكـذا

تتـوالى الأحـداث فـي دوامـة عشـق لحظـي، أو ربمـا هـذا الخـوف، خـوف مـن الهجـر، خـوف مـن الالتزامـات، أو الخوف من الوحدة الخانقة، هل يُعـدّ الخـوف حجـر العثـرة في طريق النجاح؟

الفصل التاسع

تتسارع الألفاظ من الأعماق، كالحممُ تنبع من جوفٍ مضطرب لا تريد أن تُحرق، ولكن الاضطرابات في كثير من الأحيان تُضيء أو ربما تغلي وتتناثر، ثم تعود إلى سكونها، هكذا تُعلّمنا التَّجربة معنى الانبعاث بعد الخمود، تلك صورةٌ من أيامٍ عجاف، لا تمنحك المعرفة دفعةً واحدة، بل تُلقى إليك برؤوسها كما تُلقى الأرضُ بذرتها الأولى في صبرٍ طويل... ومع ذلك كانت المعرفة تَمضي في مسارين متوازيين:

- أولهما ما نلته من رُقيٍ في دراستي الثَّانوية، إذ تدرّجت من المتوسط إلى الحسن في هدوء الواثق.

- وأما الثَّاني، فهو ارتقائي بين زملاء النَّادي إلى منزلةٍ جعلتني أخيرًا سيّد الرُّموز الرّياضية، أُتقن اللعبة بدنيًا وروحيًا، بداهة التَّلقي تعلّم معنى الحياة في إيقاع تدريجي.

تعلّمتُ من الحكاية -أو لعلها من نفسي- أنَّ من لم يمنحه الحبُّ أجنحةً، يبقى مبتورَ الحلم مهما تظاهر بالقوّة، حاولتُ أنْ أبلغ سماءه يومًا، لكنّ السَّماء لا تفتح أبوابها لِمن يخاف السُّقوط، حين ضاق صدري بين الغيوم، لم أجد مهربًا سوى أن أرفع بصري هناك في عتمةٍ تشبه الرَّحيل، اتّسعت دائرةُ الرُّؤية وأدركتُ أنَّ الألم هو المُعلم الأول للحكمة على القمم فقط، حين تذوب المسافات بين الخوف

والرَّجاء، تفهم أنَّ الوصول ليس إلى القمّة ذاتها بل إلى الوعي بأنك وصلت.

استقام الاعوجاج أخيرًا، وبات العالم بين الفينة والأخرى يُسفر عن ابتسامةٍ لذيذة ويجود بلمساتٍ دافئة، كأنّه يعتذر عن قسوته القديمة، لا ضير في أنْ أتلقّاها بقبولٍ حسنٍ؛ فقلّما يجود الزَّمان بلحظاتٍ كهذه دون أن يُبيّت لي نيةً أخرى.

هكذا تسارعت الأحداث، وكأنّها تسعى إلى غايةٍ لا أعلمها؛ حتى أسفرت عن الغريب والعجيب، وجدت نفسي في إثره واقفًا أمام "لينا" الحسناء، مساءَ سبتٍ ساكن.

جلسنا في مقهى يطلّ على المحيط، نفس المقهى الذي جمعتني فيه ودنى نظرات دافئة، وقد حمل كلٌّ منا كوبه بما يشبه الطُّقوس الأولى للبوح، كانت لينا أول من كسر جدار الصَّمت، وقالت بصوتٍ يشبه النَّسيم الذي يسبق المطر:

- إذن، لِننظر إلى الأمور من الجانب الآخر؛ حتى لا نُؤذي أحدًا، ولا نُؤذي أنفسنا في غمرة ما نعتقده حبًّا، أتفهمني يا إياد؟ أحدثك بتؤدة؛ لأنّي أريدك أن تستوعب ما أرمي إليه.

عندها أدركت أنَّ الحديث لم يكن عن الحادثة فحسب، بل عن المصائر التي تتشابك في غفلة من أصحابها.. لم أجد ما أقوله، أمام هدوء هذه الفاتنة، جاهدت أنْ تمزج بين

لغتها الأم والعامية، حتى اكتسبت ملامحها النَّضرة عمقًا إنسانيًا، بخلاف ما يشعر به من هم أمثالي، أعتقد إضافة مصطلح "الأنذال" بعد أمثالي قد يحدث فرقًا بين مشاعر شاغرة، وما يملأ صدور هؤلاء الذين وسمتهم الحياة بأساور من ذهب، أتساءل أحيانًا.. ما معنى الحياة؟ أهي ما نحياه؟ أم ما غاب عنا منها؟ أو ربما ليست الحياة ما نعيشه، بل ما نفقد القدرة على تعريفه.

بدأت لينا كلامها بتمهيد رقيق، ونبرتها تشي بما قد تكونه أخبار مؤسفة:

- نعيش على هذا الحال، نشفي غليلنا في أشياء يستعصي علينا فهمها أحيانًا، وأحيانًا أخرى نرتمي بين أحضان مجهولة المنبت. أجل يا "إياد"، نقترن بأفكار مبتكرة نسعى إلى تزيينها، وذلك يجعلها تقع لذيذة على أفئدتنا.

ارتشفت رشفة قبل أنْ تسترسل، وكنتُ أتحقق من كل كلمة، غالبًا ما أستخدم هذا المترجم الآلي لأبقى معها على مسار سردها.

- قبل أشهر كنا وكنت معنا يا "إياد" - بين حوائط تلك الفيلا، أتعرف ما حدث ليلتها؟ طبعًا لا تعرف، ومن سيقول لك ذلك! إذن، سأخبرك أنا، أيها الصديق البريء...

وافقتها على إتمام سردها، اقتربت مني قليلًا، ثم استأنفت:

- كانت هناك أعين أناس... أو لنقل مراهقين، تتبعت خُطاك من عتبة الباب حتى خرجت منها، ولم تعرهم اهتمامًا، وهذا ما أتاح لهم الفرصة حتى وقعت حسناؤك.

قلت لها فجأة، في شيء من الاهتمام والقلق:

- ماذا حدث لدنى؟ هل أصابها مكروه لا قدّر الله؟

همت بتهدئتي، فأدركت حينها أنَّ الأمر ليس كما تخيّلت، ثم استأنفت:

- الحقيقة كانت على النحو التالي: ابن خالتها، ذلك المدمن القذر، راود خالته على ابنتها، والأم لم تجد في ذلك إلاَّ ولا ذمة، وإنها القائلة بعظمة لسانها "دنى"، إنها غدًا ستكون على ذمة هذا القذر؛ لن أُخفي عليك يا صديقي العزيز، إنها في أمّس الحاجة لمن يقف إلى جانبها، لكنها أنكرت عليك حقيقة ما آلت إليه، ثم إنها أقسمت له عيانًا بأغلظ الأيمان، إنها لن تحبّ غيرك، وإن كانت زوجة له!

أما هو، فيبتسم كالأخرق، ويقول:

- إذا تزوجنا ستعشقينني، وسيكون حبك لـ"إياد" في طي النِّسيان.

إذا غربت الشَّمس وداهم الظَّلام الفيافي والجبال والوديان، خرجنا من المقهى إلى الزّقاق، كان ضوء المصابيح ينساب علينا، ينساب إلى الرُّوح كتغريد بهيج. شقراء تجوب الشَّوارع رفقة تائه لا وجهة له، لم تلبث أنْ اتصلت بذراعي، وما تزال تسرد على مسامعي قصة الخُطبة والحب والمغفل... أما أنا فأعرضت عن الصِّراع القائم بين فلان وعلان، وبت أرى في لينا دفئًا ومكسبًا بِكل أنانية فعلت ربما أو لما تجرعته من اللامبالاة في مساري المُعتم أو راجع إلى بُعد نفسي أكثر حدة وأعظم أثرًا...

بهذا خرجت عن نطاق ما يسمونه ألم الفقد، وبنذالة ربما أو متلازمة عجزت عن تشخيصها، كنت في غِنى عن هذا الأمر، إنَّ لدنى موقعًا ثقيلًا بين أترابها ومعارفها، فأين أنا من هذا البذخ؟ الأمر بيّن: لن أقحم أنفي بين هؤلاء، قلت بعد هذا الخاطر الذي راودني:

- اسمعيني أيتها الصَّديقة، أما الخُطبة والأم وفلان وعلان... فلا دخل لي في كل ذلك، وأما دنى فإنْ هي وافقت مخافة أنْ تنجم عن هذا الأمر مشدات ونفور؛ فذاك خطأ وهذا الزَّواج لن يتم، حتى إن حدث وكان؛ فلن يدوم طويلاً، وأنا بريء منهم.

إذا شئنا أنْ نصل، لا بُدّ أنْ نجد في هذه الرَّفيقة شيئًا من النُّبل والاحترام، وذلك يتراءى عند اهتمامها بلغتي المُنفلتة، فإذا حدث وكسرت جملة.. ترمّمها قبل أن أستأنف، لم أرَ أناقة لينا حتى وقفت إليّ تستفسر، أما عيناها فكانتا سيفًا بتّارًا، لا يقف أمامهما عاشق الجمال

حتى يصبح ضحية حدتهما، هنا لا بُدّ من شُكر الشَّاعر السُّوداني إدريس جماع -رحمه الله- الذي رأى في عيني الممرضة حياة أخرى، فأنشد يقول:

وَالسَّيْفُ فِي الْغِمْدِ لَا تُخْشَىٰ بَوَاتِرُهُ

وَسَيْفُ عَيْنَيْكِ فِي الْحَالَيْنِ بَتَّارُ!

قالت لينا بعد بلوغنا إحدى السَّاحات العامة:

- ماذا الآن أيها الصَّديق البريء؟ أيمكنك أنْ تثق بي كما وثقت بي دنى وأطلعتني على سرك؟ أريد أن أكون سرك المدفون كما دفنت سر دنى، وإن أتيتني بذلك فأنا لك من الشَّاكرين، ولك مني أضعافٌ مضاعفة.

جلستُ على كرسيٍّ فولاذيٍّ وسط السَّاحة الضَّيّقة، تنبعث من ركن محايد لهذه السَّاحة الثُّكلى رائحة البول، أما السَّماء فصافية لا تشوبها شائبة، والأماكن المجاورة تكاد تنقطع عنها الحركة، لينا تجلس غير بعيدٍ، تنتظر جوابي.. نظرتُ إليها، وباغتُّها بالكلام:

- أتمنّى الانقطاع عن هذا، لكنّني سأواصل، أنا في حاجةٍ إلى ذلك... في حاجةٍ إلى الدَّراهم، ولن أفلح في توفيرها إلا من هذه الطَّريق الوعرة، ستكون تجربةً جديدة.. معكِ.

أتممتُ جملتي واستويتُ واقفًا، أما لينا فظلّت لبعض الوقت جالسةً، تحتفل بالخبر في صمتٍ أنيق؛ استأذنتُها قبل أنْ تُشير السَّاعة إلى العاشرة مساءً، فقلتُ وأنا أتهيّأ للمغادرة:

- آسف أيتها الوسيمة، يجب أنْ أذهب. ما إن تستقلّي العربة سأرحل.

بين التردّد والإقبال مسافة لا تُقاس بالخطوات، بل تقاس بالوجع الجاثم على الصَّدر، كثيرًا ما شعرتُ أنني أقسو على نفسي لأثبت لها أني قادر على التَّحمل، وكأنَّ في القسوة دواءً للضعف أو غفرانًا لتلك الآلام المدفونة التي لا تجد من يُصغي لأنينها، إننا حين نُقبل على ما نخشاه سفر اليدين، لا نغلب الخوف بل نهادنه، نُعطيه يدنا كي لا يهاجم ظهرنا، ما أشدّ الظُّلم حين يكون الإنسان هو الجلّاد وهو النَّاجي في آنٍ واحد!

قاطعتني لينا في رقةٍ تختفي خلفها ربما حكمة الأنثى حين تُريد وتُداري، وقالت بصوتٍ يوشّيه الود ويُخفي ما وراءه من غايةٍ دفينة:

- يا إياد، لعلّ السَّمر في هذه الليلة خيرٌ لنا من هجعةٍ لا تأتي بالنَّوم، فإنْ رأيت في بقائك خيرًا، فذاك فضلٌ تزدهي به السَّاعات، ثمّ أطلعني ما استتر من خُطة تهريب هذه القطع.

قلتُ، وقد مالت نفسي بين الإقدام والإحجام، كمن يتأرجح على حافة ضميرٍ يقظٍ:

- إنْ نحن صدقنا القول، فالسَّمر جميل، ولكن ما شأن الدَّار والأسرة؟ أما يُقلقكِ أنْ تغيبي عنهم في مثل هذه الساعة؟

فضحكت ضحكةً قصيرةً خافتةً مريرةً، كأنها انبثقت من صدرٍ أرهقته الوحدة، ثم قالت، في نبرةٍ أضحت كأثر الموج حين ينتحر على الرَّمل:

- لا أحد هناك غيري، لقد آثرت العزلة منذ أشهر، أساكن نفسي وأستأنس بصمتي، قلّ إنْ تطرق باب خلوتي صديقةٌ من المعهد، ثم تمضي تاركةً وراءها فراغًا أكبر مما وجدت.

قالت ذلك مبتسمةً، ابتسامةً تجمع بين الأُنس والاعتراف، ثم سرنا ـــأنا وهيـــ نحو حيٍّ من الأحياء الحيّة، حيٌّ تتنفّس أزقّتُه في وجه الليل كصدرٍ مُتعبٍ يأبى السُّكون، كانت المقاهي مُشرعة الأبواب، والمطاعم تزخر بالحركة، وضوء المصابيح يتماوج فوق الأرصفة؛ ما لبثنا أنْ مررنا قبالة مقهى تتهادى منه موسيقى قديمة، كذاكرةٌ أهاجها تيار الحنين:

بين البارح واليوم ** ليلة يا ما أحلاها

فيها لغرام مظلوم ** وعمري ما حا أنساها

توقّفتُ لحظة، أُصغي إلى النَّغمات وهي تتسلّل إلى داخلي كنسيمٍ يحمل رائحة ماضٍ لم أعشه، أو ربما عشت منه ما تيسر لي عيشه، لذلك بدا لي مألوفًا، شيءٌ ما في القلب يعرف الطَّريق إلى هناك.

طلبنا عند دخولنا باب واحد من المطاعم هناك وجبةً سريعة، وبعد أنْ خرجنا من المطعم ابتعنا قنينتَيّ مشروب طاقة من حانوت بقالة، وما إنْ أفرغنا مما نحن فيه حتى وقفت عربة أجرة جرت بنا إلى الدَّار، لم تمضِ دقائق حتى توقّفت العربة أمام واحدة من الفلل، كانت تُشير السَّاعة إلى الحادية عشرة ليلًا ونيّفًا.

الفيلا توشك أنْ تكون قصرًا مصغرًا؛ ما إنْ فتحت لينا الباب الخارجي ودخلنا حتى أغلقته دوننا، الأضواء تتوهّج إلكترونيًا في انتظامٍ مهيب، والمسبح يتوسّط حديقةً تحفّها الكراسي من كل جانب، لمساتٌ فنيةٌ غربية أضفت على جدران الدَّار رونقًا ظريفًا، وأرائك معدَّلة خصيصًا لهذا الموضع، ولوحات لفناني الغرب بطابعٍ أوروبيٍّ (فيكتوري) باذخ.

ذلك هو البذخ بعينه؛ والرَّغد الذي لا تطيقه إلا طبقة صلبة العود، اعتادت ألا تخاف في عقر متاهتها أحدًا، كانت لينا من هؤلاء، تمشي في بيتها كمن يملك الكون برمته.

أما أنا، فقد أبدَيتُ استغرابي عند عتبة الفيلا، ثم سألتها ـــكما سألت دنى قبل أشهرـــ سؤالًا لا يزال صداه يجلجل صدري...

- بين هذه الجدران الشَّاهقة وحيدة، كيف تراكِ تشعرين؟

وكأنها كانت تترقّب هذا السَّؤال، فما إنْ نطقته حتى أجابت في عجَالةٍ، جوابَ من يحفظ كلماته كما يُرتَّلُ وردٌ قديم:

- الاستقلاليّة.

لم تكن زهرةَ البؤس بين هذه الزَّهور الفوّاحة؛ فما وجدتُ بين أنواع الأزهار المحوّشة إلا ألوانًا زاهيةً تُبهج البصر وتُنير البصيرة هنالك أيقنتُ أنَّ زهرة البؤس ـــإن قُدّر لها وجودٌ في هذا المكانـــ فلا بُدّ أنّها ممسوخةٌ على هيئة زهرة اللوتس، تنبت في غير موطنها وتختنقُ بترفٍ لا يُشبهها، إذ لا تُزهرُ أزهارُ الشَّقاء في جنائن الفلل، بل تتفتّحُ على ضفاف القهر بين دور الصَّفيح، وفي الأحياء الشَّعبيّة التي تتّخذُ من الضَّوضاء لونًا من ألوان العيش ومن الفوضى لحنًا باقيًا أزليًا، ومن القصدير والزنك سقفًا نقمة في الصَّيف وفي الشِّتاء.

ثم قالت لينا، وقد وضعت كفّها على بطنها في دلالٍ ساخرٍ من تعب الليلة:

- الوجبات السَّريعة لم تشفِ جوع هذه الليلة.

واسترسلت بعد هنيهةٍ.. تُلقي أمرًا لا يُردّ:

- أتعرف كيف تصنع لنا شيئًا إضافيًّا؟

فقمتُ عندئذٍ متوثّبًا، مستجمعًا ما بقي من عزمٍ في ساعدي، وقلتُ في نبرةٍ جادّةٍ فيها من الدعابة رائحة:

- وأين المطبخ؟ لنُلقِ عليه نظرة، ثم نُعالج الأمر بأيّ شيءٍ متوفر.

وقفت إلى جانبي تَرقبني بعينٍ حائرةٍ بين الفضول والإعجاب، أما أنا فشرعتُ في صنيعي غير آبهٍ بمن حولي، إلا أنَّ بالي كان شاردًا يتيه بين فكرةٍ وأخرى، كنتُ أتساءل:

- لهؤلاء القوم يدٌ طويلةُ الأكمام، عاليةُ المنال، ولكنها شحيحة حين يمتد الأمر إلى بطونهم؛ لا تجود على أمعائها بلقمةٍ من صنيع أناملها، كأنَّ الغِنى سلبهم دفء المحاولة.

ثم التفتُّ إليها، فإذا بها ما زالت تراقبني في صمتٍ عميقٍ، محدِّقة بعينٍ لا يزيحها شيئًا، فلما فرغتُ من إعداد الوجبة، تقدّمت بخفةِ ورقّةٍ تُغري بِالدَّهشة، ووقعت أناملها اللدنة في الصَّحن، تتذوّق الطَّعم كما تتذوّق النَّحلة الرَّحيق، ثم قالت مبتسمةً:

- هممم... لنأكل قبل أنْ يبرد.

ضحكتُ من عبارتها، فقالت متابعةً وفي صوتها نغمة خفّةٍ ومرحٍ:

- هكذا يقول المغاربة، ونحن كذلك لنأكل هيا...

جلسنا إلى المائدة، وقد خُيّل إليَّ أنَّ شيئًا ما انغرس في نفسي لا محيد لي عنه، ولا مهرب لي منه إلا إليه، وقبل أن تمتد يدي إلى اللقمة الأولى، رنّ جرس الهاتف، فإذا هو الخال الصَّغير على الطَّرف الآخر، أجبتُه بمقتضبٍ من القول، لا إسهاب فيه ولا تكلّف، حتى إذا بلغنا صلب الحديث.. أنهيناه، وعدتُ بعدئذ إلى المائدة.

أما هي... الجميلة، فكانت لا تكاد تضع لقمةً في فمها حتى تنتزع أناملها، كأنَّ النَّار تسري في أطرافها، وما إن أبصرتُ فعلها ذاك حتى ضحكتُ في سري، ثم أطْعمتُها على طريقتي، كما يُطعم الواثق من مودّته من يحب، وكانت عيناها تدوران بين اللقمة والأخرى كفراشتين ضالتين تحومان فوق نور شمعة في دجى ليل سرمدي، تحملان في نظراتهما مزيجًا من الحياء والأنس، فلما فرغنا من الأكل، جمعتُ المائدة وغسلت الأواني، ورتبت ما بقّى منها.

قلتُ في نفسي، وأنا أرقب انعكاس وجهها على آنية:

- إنه لعَيبٌ على بنات طبقتنا أن يجهلن أمر المطبخ وشؤون الدَّار، ولكنّهنّ لا يُعاب عليهن كما يُعاب

على غيرهن، فالبذخ شفيع، والغِنى كفيلٌ بمحو الخلل.

ثم أنشدتُ في قرارة نفسي بيتًا من الشعر، كأنما نطق به لساني دون إرادة:

"رنت فأصابت سر قلبي بلحظة

لها في الحشا لذع وليس لها جرح".

استأذنت لينا لحظة، ثم عادت في زيٍّ خفيفٍ زادها فتنةً وبهاءً، كأنها تضوع من عطر الغواية ـــ وفي مشيتها غنجٍ يربك الحواس، وبين أناملها الرَّقيقة لباسٌ مدثّه لي قائلةً في لهجةٍ خافتةٍ تتخللها لمحة الدلال:

- اِقبل، إن هذه بذلةُ النوم، يمكنك أن تقضي بها ليلتك.

أخذتُها منها في صمتٍ متّزن، ثم قمتُ مستأذنًا، وقلتُ ـــ في شيءٍ من الارتباك الممزوج بالتهذيب:

- وأين يمكنني أن أبدّل هذا؟ وأين أضع خاصتي؟

رافقتني على ممرٍّ مرصَّعٍ بالتَّماثيل البرونزية، تتلألأ بينها شمعداناتٌ مصفوفةٌ، خافتةُ الضوء، ينسكب منها وهجٌ أصفر، دخلتُ غرفةً ذات فرشٍ وثيرٍ، تنضح بالعطر والسَّكينة، ثم أغلقت الباب من ورائي، وتركتها تقول بصوتٍ كالموسيقى في مهبّ النَّسيم:

- اقضِ ما أنت قاضٍ، سأنتظرك وراء الباب هنا.

فلما عدنا إلى موضعنا الأول، مالت نحوي في رفقٍ ودلال، وسألت عن الحيل والخدع التي تمكّنني من تهريب هذا البلاء من مدينةٍ بعيدة، وكان في نبرتها ما يشبه المزاح، وفي عينيها فضولٌ لا يهدأ، وجدتُ صعوبةً في انتقاء العبارات التي تفي بجلاء الفكرة، فكنت أتعثر بين اللغات، وأستعين بالمترجم حين يضيق عليّ اللفظ.

أما الصُّور التي وقعت في قلب الحسناء، فكانت تتجلّى فيها الوديان والأمكنة الوعرة على الطَّريق، خلتها ترى أنَّ الأمر قريب إلى سيناريو مقتبس من قصص التَّهريب، تخالني أختبئ بين المارة حتى لا أقع تحت نظرات "الدرك" أو ربما أنكمش في ركن محايد داخل الحافلة المهترئة، مصوبة نحوي كل الأنظار، ما أفتأ أخرج من جوف الحافلة تلك حتى أهرول أسابق المجهول، ظاهرة أمارة الذُّعر في عيناي.

تحوّلت فجأةً من حديثها عن الحيلة والتَّهريب إلى دنى، وسألتني ـــ في نبرةٍ بين الجدّ والغيرة ـــ كيف كانت تقضي لياليها برفقتي.

ما لبثتُ أن أجبتها في كلماتٍ مقتضبة، حتى بدت عليها علاماتٍ لا تُخطئها عين، يُقال إنَّ المرأة لا تطيق أنْ ترى من تنافسها في الجمال أو الودّ، لكن هذه الصَّديقة ـــ على خلاف ما يُقال ـــ تورّدا خدّاها بحمرةٍ خفيفةٍ رقيقة، كأنما انسكب عليها خجلٌ من عين عاشقة، فأتمّت بذلك

خصال الحسن، واكتملت بها الصُّورة كما تكتمل القصيدة بآخر بيتٍ موزون.

"وعليها حمرة في لعس...

تستعير اللون من ورد الخجل ".

وددت أنْ تشتدّ تلك الحمرة على خديها، حتى تبلغ مبلغها بين التَّورّد والانطفاء؛ فإمّا أنْ تندثر في غياهب الخجل، أو تتقد حتى تصهر ما بيننا من صمتٍ متراكم، كانت اللذّة إذ ذاك تتشكّل في هيئةٍ من الرَّغبة الممزوجة بالخجل، لا تأتي قسرًا بل طوعًا، لتوقظ عاشق من حلمٍ غامض.

لم تمضِ بنا دقائق حتى وجدتني أقترب منها، وقد أرهف سمعي لنبضها، كأنَّ بيننا حديثًا قديمًا أزليًا، شيء في همسها يُوقظ فيَّ وهجًا خافتًا، أتردّد بين الإقبال والإعراض، بين أنْ أستسلم لما يهدر في صدري من شوقٍ دفين، أو ألوذ بما تبقّى من رغبةٍ ووجل.

ثم همستُ إليها، وأنا أتحسس حدود هذا المدى بيننا:

- أترين أنَّ ما نحن فيه يليق بنا؟ أم أننا نُساق إلى ما لا نُريد؟

فما إن تمّ السُّؤال على لساني، حتى نهضت بخفةٍ وابتسامةٍ واثقة، أمسكت بيدي، وقالت وهي تقاطعني كمن يقطع الشَّكّ بيقينٍ ناعم:

- أيها الأحمق، أما علمت أني ما اهتممتُ بشيءٍ كما اهتممتُ بأمرك منذ عرفتك؟

ثم تابعت حديثها بصوتٍ خفيضٍ كأنه اعترافُ عاشقٍ يخشى من نفسه أكثر مما يخشى النَّاس:

- كم تردّدت في الإقدام على هذا، غير أني كنت واثقة أنَّ كل محاولةٍ دونك عبث، إنَّ الحب أعمى يا إياد، أعمى بصيرتك حتى لم تعد ترى في الوجود إلاها ـــدنى ـــ أما سواها، فمحضُ ظلٍّ ميت.

طرق الحب بابي حتى كلّ متنه، ولمّا كلّ متنه، نأى بمعزل غير بعيد مني، وجثى على ركبتيه في مشهد مؤثر، كما يجثو البوذي أمام صنمه، يظل هذا العابد جاثمًا، ويبقى الصنم صنمًا شامخًا باسمًا في وجه العابدين والسائحين، يقول واحد من صناع الشِّعر، «وما الحب إلا للحبيب الأول» وآخر يقول «للأوفى»، وكلٌّ من هؤلاء يرنوا إلى ما يخمد وطيس العشق المتأجج بين أضلعه، فأعود لأسأل؛ ما الحب؟ ولمن الحب؟

أشرقت بشرتها تحت الضَّوء الخافت كأنها صفحة من لؤلؤٍ، وعلى شفتيها ظلّ ابتسامةٍ توحي بالسَّكينة بعد عناءٍ طويل، لم تكن غريبةً عن مكابدات الحياة، لكنها لم تُسلِم نفسها قطّ لابتذال العابرين الذين تسميهم "الهمج".

تمدّدت على ساعدها تتأملني، تستعيد بصمتٍ معنى ما جرى وما يجري، ثم قالت بصوتٍ مبحوحٍ تحسبه خرج من عمق السنين:

- آه يا إياد، طال انتظاري لهذه السَّكينة، كم رغبتُ في ليلةٍ أتنفّس فيها الحرية، ليس الذَّنب! أردتها لحظةً تُنصف ما بقي في داخلي من امرأةٍ ما تزال تحلم بأنْ تُرى، أن تُمتلك.

ثم مالت نحوي في رفقٍ، كأنها تختم على قلبي بطمأنينةٍ بعد عاصفة، وهمست:

- كنتَ الفتى الذي أمنتُ أنَّ في عينيه معنى، في عينيه رغبة... آه، لكم انتظرت.. وطال انتظاري! كنت أتشوق حرًا ولذة لهذه الليلة، أقصد الليلة التي أقضي فيها ما يشفي غليلي، وكم انتظرت أن أكون مع فتى طموحًا مثلك.

لمّا اقتربت منّي مائلةً على سكون اللحظة، بدا في عينيها بريقًا حنانًا مكتومًا، كأنها تُكمل ما بدأه الصَّمت، ثم قالت بنبرة اعتراف:

- لم تَهُزَّني اللحظة كما تفعل بأولئك المتهالكين على اللحم، أولئك الذين يلتهمون ما حولهم بنظراتٍ فاجرة، إنّي لأشمئزّ من النِّساء اللواتي يسلّمن أنفسهن لتسكين نزواتٍ عابرة، ثم يخرجن من الشَّرنقة كما دخلن، خاوياتٍ من المعنى.

ثم أشارت في الخواء كأنها تلوّح إلى ذكرى بعيدة، واستأنفت:

- وإن لم أكن تلك البكر التي تحصي النَّاس عليها فضيلتها؛ فلن يضنيني ذلك، إنما هي لحظةٌ عذبة أؤنس بها نفسي في مقبل الأيام العجاف، وحين يشتدّ بي الشَّوق يا إياد، سأهمس باسمك في أذن الزُّهور، وأبوح بسرّنا للبدر في لياليه المقمرة، وأوصي الفراشات أن ترتشف من عسلك رحيقًا يظلّ في الذَّاكرة...

هنالك، لم أملك إلا أن جذبتها إليّ في عفويةٍ لا حيلة فيها، كان في اللحظة ما يفوق الوصف: دفءٌ يُشبه فوحان الأرض بعد المطر، وعذوبة كدمعةٍ سالت من فرط الامتنان. تلك الشقراء ـــ وقد انكشف من روحها شاعرٌ لا يُجيد سوى التغزّل بالحياة ـــ جعلتني أرى في كلّ كلمةٍ تنطقها قصيدةً تُنشدها الروح ويرددها اللسان.

"تالله لا يشفي الفؤاد الهائما

نفث الرُّقى وعقدك التمائما

ولا الحديث دون أن تلازما

ولا اللّزام دون أن تفاغما

ولا الفغام دون أن تفاقما

وتعلو القوائـــم القوائـــما"

كنتُ أظنّ ـــيقينًـا ـــ أنَّ فـي الحـب خلاصًـا، طريـقٌ يُنقذني من لجاجة وحدتي، حتى ذقته؛ فأدركت أنَّ مـن ذاق الفقد لا يجد الحـب موطنًـا فـي قلبـه؛ لأن لعنـة الفقد حـين تسـتوطنك تتـرك فراغهـا فراغًـا لا يُمـلأ وشـكًّا لا يُشـفى، أعـيش صـراعًا لا ينتهـي بـين قـوى الحـب الخفيـة التـي تدعوني كصوتٍ مكسور، وقـوى الرَّغبـة التـي تهمـس لـي بالهرب.

ربما ما زلتُ أحمل في داخلي نفسَ الطِّفل الذي تربّـى علـى الخـوف مـن الرَّحيـل، الطِّفـل الـذي لـم يعـرف دفـءَ حضنٍ ثابت، ولا يدٌ تمسحُ عن رأسه وجع الأيام. كيف لـي أنْ أثق؟ وقد عشتُ بين الإهمال والتِّرحال، أتنقّل مـن وجـهٍ إلى آخر، أبحث في العيون عن وطنٍ لجبيني.

لهذا وجـدتُني أطـارد ليـالي دافئـة بـين عاشـقاتٍ كُثـر، أظنّ في كل واحدةٍ خلاصًا مؤقتًا من بردي الـدَّاخلي، ومـع ذلك أو لأجل ذلـك حـين تنتهـي الليـالي، وأبقـى وحيـدًا فـي صمتي، أجد أنَّ عدم الاكتراث، صفة مـن صـفاتي... كأنـه الصَّديق الأخير الذي أبى أنْ يغادرني.

المكان ضيّقٌ.. كصدرٍ يختنق بالوجوم، غير أنَّ ضـيقه ذاك لم يخلُ من دفـءٍ يُشـعرني بالسَّـكينة، أمّـا لينـا ـــتلـك

الفتـاة التـي أوشـكت أنْ تلامـس عقـدها الثَّـاني— فكانـت مزيجًا من لذّة الشَّباب ونضج الـوعي؛ قويّـة الحسّ، دقيقـة الشُّـعور، رهافـةً وعقـلًا، فيهـا مـن البسـاطة مـا يبعـث الطَّمأنينة، ومن الأنوثة ما يوقظ في النَّفس دهشة الحياة.

"متى تلق بنت العشر قد نص ثديها

كلؤلؤة الغواصّ يهتز جيدها

تجـد لـذة منـها لخفة روحـها

وغرتها، والحسن بعد يزيدها

وصاحبة العشرين لا شيء مثلها

فتلك التي يلهو بها مستفيدها"

كانت كلماتها — إن نطقت — كنسيمٍ يمرّ على جرحٍ قديم فيخفي أثره، وهمساتها تفيض دفئًا يذيب ما تـراكم مـن برودةٍ في قلبي في حضورها، بدا لي اليـأس نفسـه يتراجـع خجلاً، والقنوط يتوارى كظلٍّ في وضـح النَّهـار، إذ إنَّ فـي لينها وخفّتها قوةً لا تُرى، سرٌّ من أسرار العافية التي تجود بهـا الحيـاة علـى مـن أوشـك أنْ يفقـد إيمانـه ورغبتـه فـي العيش.

جلستُ هناك أراقبها بِصمتٍ وأشعر بأنَّ في حضورها شيئًا أكبر من التَّعبير، قلبها مرآةٌ لما قد يختبئ في نفسي من خوفٍ وشوقٍ، وجدتُني أتساءل:

- كيف للمسة رقيقة أو همسة خافتة، أنْ تداوي كل ما أرخته السَّنوات من قسوةٍ على الذَّات، وكل ما خبأه العقل من ألمٍ مدفون؟

في عينيها من الضَّوء ما يُفتح أبوابًا مغلقة في داخلي، تخبرني نظراتها في صمت وارف:

- الحياة لا تُفهم إلا من خلال الآخرين، ولا تُعاش إلا مع من يوقظ فينا أفضل ما لدينا.

وفي كل حركةٍ لها شعرتُ أنَّ اليأس يتراجع، والشُّكوك التي تراكمت في روحي منذ أمد بعيد، تتهاوى في آخر الزِّقاق المعتم.

فهمتُ حينها أنَّ لينا ليست مجرد صديقة، وليست مجرد ملاكٍ عابر، بل هي تجربةٌ حية في فهم النَّفس، وفي إدراك أنَّ الرِّفق والحنو قادران على تحويل الألم إلى بصيصٍ من الفرح، وأنَّ وجود شخص يضمد جراحك دون أنْ يُدميها، أرقى من أي لذة عابرة يمكن أنْ تجود بها الحياة.

اختلف الليل والنَّهار حتى مضت الشُّهور وأيامها، احتُفِل خلالها بعرس دنى السَّمراء، وعقر الفتية كأس المدامة، وأحرقت المخدرات بلا هوادة، أما أنا فلذتُ هانئًا

بليلة هادئة، لذيذة، رفقة الرُّوح الـودودة لينـا، علـى مقـارع هذه الشُّهور كانت أحداث، أخفتها الأيام بين أكمامها.

أم دنى تنال نصـيبها مـن اللَّـذة علـى مشـارف المدينـة رفقة أحد عشاقها، وذلك ما وضع نقطة نهاية زواجهـا مـن الزَّوج الرَّحالة، أما هو فتزوج بِزوجة أوروبية وأنجبت لـه من الأولاد اثنان، حدث ذلك فـي السِّر، سرّ.. يخفيـه عـن الجميع، وما آلت إليـه دنـى لـم يكـن ببعيـد عـن مـا أصـاب أسرتها؛ فالزُّوج لـم يسـتطع أن يكـون زوجًـا حقًـا، إذ كـان متربصًا بالممتلكات التي كتب القدر أن تُسلب منه.

أما الأملاك فبان لها وريثان وأختهمـا دنـى، مـن أجـل ذلك خاب ظن العريس لهذه الحقيقـة وعـزم علـى الطـلاق، ثم عادت أمور دنى إلى ما كانت عليـه، كمـا لـو أنَّ الـزَّمن أعاد نفسه بهدوء لا يشي بعاصفةٍ مضت.

وغير بعيد مـن هـذه الأخبـار أزفـت الآزفـة واقتربـت الواقعة، لينا التي سعت جاهدة إلى كسر حاجز العزلة بيني وبين العالم، امتدت يد من أوروبا سترفرف بهـا عاليًـا إلـى ما وراء البحار، تاركـةً خلفهـا فراغًـا موحشًـا، غيابهـا لـن يكن مجرد غياب الجسد، بل غياب الرُّوح وغياب المعنـى، معنى الأشياء، وما جعل الفراق أعمـق! تلـك الـدُّموع التـي تـلألأت علـى محياهـا كالثَّريـا، وكأنهـا تتوسـل للـزمن أنْ يبطئ، يمهلها لحظات تنتعش فيهـا بعنـاق يعيـد إلـى كيانهـا معنى الوجود.

آه من الثَّغر الأحمر الذي احتل حلقةً من كياني! يذكرني بأنَّ الفرح والنَّشوة لا يدومان، وأنَّ كل اللَّذات.. لحظيّة.

في عناقها كانت الرَّوح مختلطًة بين الوجع ومعنى الوجود، أناملها تتأوه كما تتأوه الرُّوح أمام حقيقة الفقد، تحاول جاهدة أنْ تثبت للحياة أنَّ ما نفقده بين عشية وضحاها له قيمة أكبر من كل لحظة حاضرة، فقلت لنفسي بصمت:

- وا حسرتاه عليكِ أيتها الأيام! لماذا تخطفين فرح العاشقين، وتتركينهم يلتمسون الصَّمت والحنين في قلب العالم المتجمد؟

بالرغم من استقامة الأوضاع استقامة هوجاء، فإنني لم أشعر بالرَّغبة الجامحة في ممارسة الحياة، كنت فيما مر من الأعوام فتًى يافعًا ترقص له الحياة بملابس شفافة يظهر من أسفلها خصر ممتلئ يتمايل في كل الدُّنيا تحت ضوء الإثارة الخافت، وحلمات بارزة حان موعد قطافها... في منتهى العذوبة.

أما ها هنا فعجوز شمطاء جعّدتها الشُّرور، درداء جاحظة، رؤيتها باتت تعارض الواقع، وهذه المصطلحات الشُّوبنهاورية دليلي إلى بناء نص يصور التَّدحرج النَّفسي الذي أساق إليه.

- ما الفوضى؟ و كيف أتخلص منها؟

تعـذر تحصـيل السَّـلام الـدَّاخلي، وسـيتعذر مـا دمنـا نمـارس الحيـاة محـاطون بالخونـة والمنـافقين... أمـا نسـبة الخـلاص مـن قبضـة الفوضـى داخـل محـيط مبنـي علـى النِّفاق، مبلط بالخيانة فتكاد تكون منعدمة.

استمر فـي بنـاء مـا أفسدته الأيـام بـلا ملـل، يبـاغتني شـعور يقيـد أملـي، يضـطرني إلـى الاسـتكانة، أقاومـه باستماتة.

بالأبيض والأسود تلونت هذه الأيام، أو بـالأحرى هـذه الشُّهور، قمت نشوان من حلـم ذات ضـحى، وأنـا بـين هـذا الحلم والواقع، حتـى تسـللت رسـالة كأنهـا نصـل فـي غمـد الكـلام، عكـرت صـفو فنـاجيني، خبـر زلـزل فـيّ بواعـث الاستقرار، الشَّعيبية المغيبـة، حـدث أنْ اقـتحم زوج عمتهـا ذات ليلة خلوتها، في حين كان الأهـل نيـام، فجعـل يـداعب مفاتنهـا بلـذة عاشـق، اسـتنكرت عليـه فعلـه، وتحاشـت مـا استطاعت لمساته، ردته بعنف إلا أنه أصرّ على فعله، كـل ما عقلته ليلتها أنفاسـه المخمـورة، وبعـد جهـد تمكنـت منـه ودفعتـه جانبًـا، ويـا لحظهـا العـاثر، فقـد السَّـكير توازنـه فارتطم رأسه بزيق طاولة، وشاء القـدر أن تكـون الطَّاولـة من خشب صلب، ممـا جعلـه يشـق سـتار الظَّـلام بِصـرخة حيوان جريح...

قامت الشَّعيبية بعدها إلى فنـاء الـدَّار، مُمزقـة الثِّيـاب، بصدر مكشـوف، فزعـة مسـندة ظهرهـا إلـى بـاب النَّجـدة، صـاحت بصـوت مكسـور، ثـم هـوت بجسـدها النَّحيـل علـى الأرض.

أفاقت بعد يومين على كابوس بين الأسلاك، تفقدت ما حولها، لكن الرَّائحة العطنة أنبأتها أنها طريحة فراش في المشفى، تدهورت صحة الشَّعيبية، هكذا تقول قريبتها، وتزيد أنَّ ما حدث أحالها إلى كتلة من الصَّمت، لم تقوَ على تحمل الصَّدمة.

أخبرتها والدتها بعد ذلك أنَّ زوج خالتها في الجانب الآخر من غرفتها، فانهارت البنت، قامت تضطرب فهرعت إليها الممرضة، حقنتها بمهدئ، فنامت المسكينة ما بقي من اليوم، وما زلت أنتظر باقي الأحداث، وكلي أمل أنْ تعود المسكينة إليها عافيتها؛ أرقب عودتها معافاة بعين ساهدة وعودتي أنا إلى معنى ما أظنه الحياة.

أدرت المفتاح، فصدر صوته كأنينٍ يائسٍ في جوف الممرّ المعتم، ذلك الممرّ الضَّيق الذي يفصل المصعد عن باب الغرفة، أغلقت الباب وراء ظهري وأسندت إليه كتفيّ المثقلتين، انسكب السُّكون دفعة واحدة على المكان، ثم امتدّ الظَّلام حولي كطمأنينة كاذبة، مددت يدي إلى مفتاح الإنارة بإرادةٍ واعيةٍ، انبثق الضَّوء الأبيض فجأة قاسيًا، كوجه الحقيقة حين تعريه الأيام.

تقدّمت نحو الحمّام، انساب الماء البارد من الرَّشاش رقراقًا، يبعث الرُّوح في جسد أطفأه توالي الليل والنَّهار، شعرت للحظة أنني أغتسل من لوثة أبدية، شيء يسكنني منذ أمد بعيد، خرجت أجرّ خطواتي نحو المطبخ، فأعددت لنفسي وجبة متواضعة، كان صوت الزَّيت على المقلاة يذكّرني بهمهماتٍ بعيدةٍ من الأزقّة القديمة؛ حيث النِّسوة

يوقدن النَّار، يضعن فوق الأثافي مقلاة سوداء، هناك في القرى النَّائية يتشابه النَّاس في الفقر، لكن يختلفون في طريقة انتظارهم للخلاص، أكلت ببطءٍ كالذي يُعاقب نفسه بلقمةٍ تلو أخرى، ثم غسلت الصُّحون دون أنْ أفكر إن كنت سأستخدمها ثانية.

بعدها بإرادة من اعتاد فوحان القهوة منذ نعومة أظافره، أعددت كوب قهوتي، سوداء كما أحبها، سوداء كما الليل الذي يسكنني أو ربما أنا أسكنه، كلانا يسكن الآخر، جلست إلى الطَّاولة وضعت المذكرة أمامي، قرأت للمرة الألف كلمات تحفيزية خطها قلم أستاذتي.

الورق الأبيض بدا كوجه عجوزٍ فقد الذَّاكرة، أمسكت بالقلم وشعرت لوهلةٍ أنني لست من يكتب بل أنَّ الكلمات هي التي تكتبني، تستدرجني.. أو بمعنى أدق تراودني عن نفسي، أنا وقلمي.

بدأت أكتب...

أول ما سطرته كان للكاتب ارنست همنغواي، يقول:

"من أجل الكتابة عن الحياة... يجب أن تعشها أولًا".

ثم شرعت في الكتابة عن الحياة، عن الوجوه التي عبرت كزورق في وجه الرّيح، دون أنْ تترك ظلّها، وعن تلك الأفكار التي تهمس في أذني:

- إن الحياة ليست سوى تجربة فاشلة لتحسين معنى الموت.

كلما تقدم بي العمر، أجدني أفقد شغف الحياة، شغف المشاركة، ربما ما أجيده هو الانزواء في ركن شديد، حيث لا يصلني صدى صوت ولا نظرة عابر، غريب أنْ تنطفئ شرارة الفوضى في سن ما يسمونه "المراهقة"، ومن الغريب أيضًا أنْ تخمد نارًا كانت تعلو مشوبتها عنان السَّماء، ها أنا اليوم في معزل عن العالم، فإذا بمكالمة واردة تردني إلى الواقع الفظيع، ترددت كثيرًا فلم ألبث أنْ رفعت الهاتف الملعون إلى أذني، صوت مألوف "دنى".

ربما الذين يسعون وراء حياة غنية بليال صاخبة أو حضور قوي، ما كان يتردد في تكشير عن أنياب الطمع، أما أنا فلا.

كل ما بت أرغب في تحصيله أو أسعى إليه سعيًا أنْ يستقيم الحظ العاثر، ربما في القادم المجهول يستقيم، لكن، هل الشَّغف سيرافقني على الدَّرب؟

تأتي كلمات دنى من وراء الأسلاك محطمة أو لا سيما تعبة، ها هي ترجع إلى الظُّهور تمامًا كما توارت عن الأنظار بين ليلة وضحاها، هؤلاء يدسن على خيط المودة بكعوبهن العالية، ويظللن في سعيهن وراء اقتناص الفرص، فإذا وجدن من تلوكه أفواههن يبشرن، وهكذا يتابعن سعيهن، وراء ملء فراغهن الموحش.

أما أنا، فلا أستطيع أنْ أُحبّ بعد أنْ فقدت طعم البدايات، كالعلكة التي لاكها الجميع حتى ذابت نكهتها... لا أجد نفسي راغبًا في مضغها من جديد، كنت ـــ وما زلت ـــ أبحث في الرِّكام عن بقايا دفءٍ أقنع نفسي أنه حب.

ظهرت دنى في السَّاحة كظلّ قديم يستعيد ملامحه على مهل، تسير بخطًى متردّدة، تلفّها سكينة المساء التي تشبه خفوت الحياة في صدري أو حصل هذا بعد زواجها الفجائي، استحالت إلى كومة تشاؤم..

جلسنا في المقهى نرقب قرص الشَّمس وهو يغطس في عمق المحيط، نتقاسم الصَّمت كما يتقاسم الغريبان ذاكرة الأحداث، الظَّلام بدأ يلف المدينة ببطءٍ ثقيل، والسَّماء تتهدّل كستارةٍ أرهقها الانتظار.

خرجنا بعد أنْ هبط الظَّلام، نعبر الزُّقاق في صمتٍ، أكثر كثافةً من ذي قبل. هناك فقط تجرأت على الكلام، أظن أنها حاولت كسب الود، ألقت في أذني باعترافٍ مرٍّ كطعم الحنظل:

- أمي كانت تخون أبي مع أحدهم كان من الجيران، في المدينة المجاورة... أصغر منها بعقد.

لم أعلّق، الحقيقة التي تخرج من فمها أصدق من أي إنكار وأمر من أكل مال اليتيم، حدّثتني كيف تتبّع الأب خطواتها، وكيف نجح في جمع الأدلة التي جرّتها إلى

محكمةٍ باردةٍ لا تعرف للرحمة معنى، حتى سقطت أمها من مقام الزَّوجة إلى مقام الفضيحة... أتمت حديثها بحرقة قائلة:

- يا لسخرية القدر!

كنت أصغي، لكن قلبي كان يهرب في كل اتجاه؛ فكل حكاية خيانة تفتح في نفسي جرحًا قديمًا، يذكّرني بأنَّ الحب في عالمنا مهدّد دومًا بالعار أو الخيبة.

استرسلت دنى بصوتٍ ناعم، صوت أرهقه توالي الأحداث:

- ظهرت بعد تلك المحاكمة امرأة أوروبية، كانت زوجة أبي الجديدة أو ربما القديمة، السِّر الذي ظلّ الأب يخفيه عن الجميع وله منها ولدان يافعان، يركضان الآن في السَّاحة التي التقينا عندها.

لمّا رآهما زوج دنى، أدرك الحقيقة دفعةً واحدة، احمرّ وجهه، وبدت عليه علائم الطَّمع المكشوف، ذلك الطَّمع الذي يسكن النُّفوس حين تلوح كلمة «الميراث»، لم يحتمل الصَّدمة؛ فطلّقها بين عشية وضحاها، من الغيظ والخذلان، كأنه ينتقم من المجهول.

دنى تروي، وأنا أراها تنهار من الدَّاخل شيئًا فشيئًا، كأنَّ كل جملة تخرج من بين قوارضها تسلبها عامًا من العمر، أو قدرًا من الإيمان، ظلّت تقول:

- لم أعد أملك شيئًا، لا بيتًا، ولا اسمًا، ولا حتى مرآةً تعترف بوجهي.

أما أنا، فكنت أراقبها في صمتٍ جاف يشبه العزاء، وأفكّر في هذه الدنيا التي تُعيد نفسها في وجوهٍ مختلفة، كلّها تُعاني الخيانة، المصطلح الأثقل (أو الفعل السمج)، وتبحث عن الخلاص..

قطعنا مسافة لا بأس بها، وقفت دنى أمامي تنظر إلى قط ضال، يبدو من فروه الكث أنه مفقود، عانقت أصابعها الرَّخوة أصابع يدي، ومشينا طويلًا حتى إذا أشرفنا على مستعمرة السُّكارى، سحبت يدي من بين أصابعها بهدوء، وهمست بخفّة كمن يخشى تكسُّر زجاج الشُّجاعة:

- آسف لكل ما يتعلق بالماضي والحاضر والآتي، آسف جدًا لما يحدث، وما حدث، وما سيحدث، لا بُدّ أننا نتشارك في قضية الشَّتات، ربما يلزمنا الصَّبر.

نظرتُ إلى السَّماء، كانت صافية، نجوم متباعدة، سكون يلف المدينة أو بالأحرى يلف مُستعمرة السُّكارى، ثم أقفلت راجعًا، فإذا بيدها تمسك بي من الخلف، قالت:

- إلى أين؟

التقت نظراتنا، ظللنا صامتين، لكنني تجاوزت السكون ببضع كلمات جافة:

- إلى هناك.

قلتها، وأشرت إلى شرق المدينة، لم يكن الصَّمت المطبق يُرى، لكن كنت أشعر أنني أنتمي إليه، أو جزء مني ينتمي إلى السُّكون، هل سيظل هذا الشُّعور الممضّ يلاحقني؟

مسكت معصمي كما تفعل الأم التي تجرّ ولدها، ولم أرَ في القبضة خوفًا ولا هزيمة بل أملاً غريبًا.. تبعتها بهدوء، أنا لا أنتمي إلى هذا الجزء من المدينة، ولا تستطيع قوة حتّي على الانتماء إليه، لكنني أشعر الآن بيد تجرني إلى المجهول!

دخلنا باب الفيلا، ظننت بادئ الأمر أنَّ وراء هذه العزيمة الجافة "إنَّ"، وأنبأني السُّكون المطبق على الفيلا أنها وحيدة كعهدي بها، استوقفتها قائلًا:

- قلت أنك فقدت الدَّار والدِّيار!

أومأت برأسها، تبعتها عبر ممر تحت ضوء الإنارة الخافتة، بخطوات مترددة، هذه الأيام الأخيرة أتردد في كل خطوة من خطوات الحياة، لا سيم وخوفي من الفقد يتراءى لي رأي العين؛ فها هي دنى تزوجت، ولينا سافرت إلى ديارها، يعود الشَّيء لكنه بطعم غريب، يشبه طعم الخوف، أو طعم الفقد... ربما.

شتان بين دنى البارح ودنى اليوم، أين أنوثة السَّمراء الطَّاغية؟ وأين الرُّوح المرحة؟ لقد سلبها الزَّواج معنى

الحياة، لم تكن كل الطُّرق تؤدي إلى روما، فطريق الأم أخذ بيد دنى إلى آلام لا تنضب، ها هي أمامي تنتفض، كما قال أحد الشَّعراء.

لا تحسبوا رقصي بينكم طربا

فالطير يرقص مذبوحا من شدة الألم

تكالبت على رقتها الأحداث، فأطفأت فيها شعلة الأمل، لما علمت بطيش الأم، تأزمت، فلم تلبث حتى كشّر زوجها (ابن خالتها) عن أنياب الطَّمع، فكُشف لها السِّتار وسقط القناع عن وجوه القديسين.

جلسنا على حافة السَّرير، نتبادل الصَّمت، استأذنت في دقيقتين مرتا ثقيلتين جافتين. قبل أشهر كان للسرير معنى، فراش وارف، أما الآن فيبدو ضيق، طرق خفيف على باب الغرفة، لم أجب.. الصَّمت سيد المكان، جاءت طرقات أخرى، قمت ففتحت الباب، ظهرت دنى في لباس أبيض، فستان زفاف أبيض، جلستُ على حافة السَّرير، مذهولًا. سألتها ما معنى هذا، فقالت:

- قد تقول إنْ دلّ غيابي عن شيء دل على خنوعي وإذعاني، لكنني...

صمتت لوهلة، تبدو مزدحمة جدًا، ككاتب يرتب جملة من كلمات مبعثرة، أشارت إلى فستانها، وقالت:

- إياد، لو يخبرك هذا الفستان الأبيض... تمامًا كما تنظر الآن إلي باستغراب، كذلك كنت أنظر إليه وابتسامة النَّصر تعلو وجهه الأبله، صدقني لقد ساقتني الوالدة إلى هذا الزَّواج الفاشل كما تُساق الشَّاة إلى المذبح، لم أكن لأتزوج.. أنت الذي رجوته أن يفسد أنوثتي، حتى ينظر إلي المجتمع نظرته الدِّونية، لكنك أبيت وعاتبتني يومها، ما ذنبي حتى أباع لمن يرى فيّ باب الخلاص!

فتحت النَّافذة برفق، انسابت نسمات مسائية عليلة، لطفت الجو المتوتر، نظرت إلى الخارج ترقص أوراق الشَّجر من نسمات المساء، هكذا يرتعش القلم بين أصابعي، صدقني إن قلت أجهل السَّبب، لكنه أمر يعاودني كلما تركت أفكاري تنسكب على الورق، ها أنا اليوم على غير العادة.. أكتب بين المارة على هدير المحركات، أجاهد للاستئناس وهذه الحالة الاجتماعية الجديدة.

صدى ذكرى بعيدة يدغدغ أفكاري، في الطُّفولة هناك في ريف من أرياف الحسيمة كان يقام العرس ليلا فتحمل إلي خيوط الليل أطراف أهازيج وزغاريد ممزوجة بدق الطُّبول وشجن المزامير "الغيطة"، لا شيء يثير في نفسي القلق كأن أسمع هذا الصدى ولا أكون من الحاضرين.

تتوالى الأيام، وربما السَّنين فيصبح الإنسان غير الذي كانه في الأمس، كأن يزهد في أهازيج الطُّفولة والأعراس... فقط لأنه أدرك أنَّ وراء هذه الأفراح وهذا الضَّجيج الذي يدوم أسبوعًا.. ضرب من الحمق.

كيف تسمحون بإقامة الأعراس وأنتم معشر النَّاس... من أخاطب بحق الله! دعني أقولها من جديد، يسمحون هؤلاء الذين ميزهم الله بالعقل، وأولئك الذين ميزتهم الطَّبيعة بالعقل... بإحياء أسبوع من الهرج والمرج لينجبوا لنا جيلا كاملًا.. مهملًا، يعلمونه الكلام، هذه كذا وهذه كذا، لكنهم يغفلون عن تعليمه كيف يكون إنسانً سويًا، هؤلاء لا يحق لهم أنْ يصيروا آباءً!

طفل على الشَّاطئ يبيع الماء والحلوى، طفل يسترق النَّظر إلى مباراة في مقهى.. وغيره يلعبون طوال اليوم بين الزُّقاق، طفل يمسح زجاج السَّيارات، أخرى تبيع الورد للعشاق على الشاطئ وقد تبيع الشَّرف... شاهدت يومًا أحد هؤلاء الأطفال يبول على المارة من السَّطح.

يسمونه "الفرح" بمنتهى الحمق، ينفقون زبدة العمر بين الزُّقاق بحجة "الحب"، وفي الختام... نفد الصَّبر وانتهى الكلام.

آباء يتركون دنى ها هنا بين هذه الجدران الشَّاهقة وحيدة، تعيد مسرحية هزلية بطلتها هي بفستان عروس كئيبة، تذكرني ببرنامج تلفزيوني يعاد فيه تمثيل الجريمة، أما دنى فتعيد تمثيل جرمها المشهود.

تقدّمت نحوي بخطواتٍ واثقةٍ ومترددة في آن واحد، ثم قالت بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

- أيمكنك مساعدتي؟

لم تُتمّ الجملة، لكنّ الإشارة كانت كافية.

مددت يدي نحو عنق الفستان، وبدأت أحرّر أزراره واحدًا تلو الآخر، كما أفتح نوافذ صغيرة تطلّ على زمنٍ ولّى، الضَّوء الخافت يتسلّل من المصباح الجانبي، فيداعب بشرتها السَّمراء بلون العسل.

تبدّت أمامي كظلٍّ دافئ، سكون يسود الغرفة كلها، أنصتُ لأنفاسها المتقطعة، انفلت القماش أخيرًا، وانساب برفقٍ نحو الأرض، بصوتٍ خفيفٍ كأنّ الرَّيح أسقطته؛ لحظتها شعرت أنّني أقف أمام لوحةٍ من عصرٍ بعيد؛ لوحةٍ فيكتوريةٍ مغموسةٍ في ضوء العزلة، امرأةٌ تتوسّط المساء كإلهةٍ من نور.

أبهرتني التَّفاصيل كأنّني أراها للمرّة الأولى بعينيّ وبكلّ ما تبقّى في القلب من ذاكرةٍ، دخلنا في عناق كسر هوة البعد التي سبّبها الزّفاف الفاشل؛ اقتربت فالتقت نظراتنا، وانكسر الجدار الأخير بيننا، أكان عناقًا جسديًّا؟ أم كان عودةَ روحين افترقَا طويلًا، ثم اجتمعا في لحظةٍ واحدةٍ فوق مخلفات الماضي ودفء الحنين؟

الزَّمن انعطف على نفسه ليلتئذٍ، وأعاد ترتيب لحظاته على مهلٍ، بين رعشة ضوءٍ وارتباك ظلٍّ.

دنى تقودني كأنها تعرف دروب الخلاص في متاهةٍ من النُّور الخافت، وكنتُ أتبعها كطفلٍ يصدق أنَّ النَّجاة في

الخطوة التَّالية، لم يكن ما بيننا جسدٌ يقترب من جسدٍ، بل عمرًا يتهاوى لينهض من رماده.

ليلتها، بدت لي البراءة قد تكون أكثر جرأة من الخطيئة، دنى هي الأجرأ وأنا الأكثر تصديقًا، ومن تلاشي المسافة بين الوهم والحقيقة وُلدت لحظة بدت لي كأنها الجنّة؛ فيها ركبت دنى عنادها، وفتحت بابا باسم الحب، لم تره خطيئة بل جعلت منه مخرجًا إلى التَّحرر، أو ربما جعلته بوابة امتلاك، لم أدر كيف اصطبغت فخذي بأحمر قانٍ دافئ أعادني إلى هلع السَّنين الماضية، لكنني نظرت إلى عينيها المنتصرتين، فأدركت حينها مغزى ما خبأته وراء الفستان.

بعدئذ، رأيتها تبتسم للنور الذي عاد ينساب من بين ستائر روحها، حسبتها أنجزت طقسًا فدائيًا للتحرر، حدّثتني عن زواجٍ كان قيدًا، وعن رجلٍ لم يرَ فيها سوى امتداد السلطة.

تقول:

- أموت ببطء في كل يومٍ، حتى جاء من ذكّرني أنني ما زلت قادرة على الاختيار.

تلك الليلة المشؤومة بالنَّسبة إليّ الدَّهشة الأولى والأخيرة، ولها خلاصٌ مؤجلٌ تحقق أخيرًا، أدركتُ حينها أنَّ ما ظننته سذاجة لم يكن إلا استعدادًا للمعرفة، وأنها ـــ بما فعلت ـــ لم تكن تبحث عن خطيئة، بل عن حقٍّ قديمٍ

في أن تكون حرّةً في جسدها وروحها، لكن، هل الحرية عند المرأة تكمن في ذبح غشاء دقيق؟ أم كانت تقصد بالحرية، أنَّ المرأة أكبر من سجنها في مفهوم دقيق؟

من بين تلك الاعترافات وُلد فجرٌ جديد، لم يكن أبيض، بل أحمر بلون النَّدم ـــهل هذا النَّدم سيفتح لديّ باب الشَّك في حقائق الأمور؟ـــ والفرح معًا؛ لونٌ لا يُرى إلا في لحظاتٍ تختلط فيها البدايات بالنِّهايات.

النهاية

ليلي البهيم يتجلّى ونهاري يتخلف عني، فأين أنت يا نهاري؟

عد إليّ، أنا مشتاق لشمسك، وما لنهاري آذانٌ يسمع بها رجائي!

لقد فنيت روحي على مذبح الرجاء،

فهل تعود يا نهاري لتضيء ما انطفأ فيّ؟

وها أنا، إياد أجدني اليوم أضللت معالم المسار،

كيف خرج قلمي عن مألوفه؟

كان نائمًا، بينما كان القلم الآخر يسكب ماءً دافئًا، أما الآن فقلمي نائمٌ والقلم الأسود يرسم صورة بائسة على وجه الورق، ما زلت أبحث عن الصفاء الذي كنت أزعم أنه لا تشوبه شائبة؛ فشابهته الشوائب ولطخته العوادي حتى أصبح البياض الذي كان يخرج من صلبي أسودًا لامعًا.

تريّث يا قلمي؛ فالبياض وحده لا يفلح على البسيط لنمنح الأسود فرصة؛ نم أنت واترك هذا اللون الذي ينفث سوادًا يأخذ من البسيط ورقته، ويكتب عليها حزنك العميق؛ فهذا الأسود رغم قسوته يمتلك قدرة الكشف عن

أغـوار الـنفس؛ فهـو لا يقتصـر علـى رسـم السـطح، بـل يغوص في الأعماق، يذرف من الهجاء والوجدان ما يطهر الروح من لعنة الكتم.

كنت يا قلمي رمز العطاء وما زلـت كـذلك، لـم يسـبق لك أن رسمت على ورقة أو قصفت أحدًا بأقذع الأوصاف، أما هذا المارد الأسود فمختلف تمام الاختلاف؛ ينهمك فـي خلوته على ضوء خافت، هذا الضوء رغم خفوتِـه يضـفي فسحة من الرومانسية علـى الظلمـة، ويمـنح الليـل إحساسًـا بالغموض والصفاء.

سوادك يجري ويرتع على هذه الورقة المنبطحة، التي لا تقـوى علـى الحركـة، لكنـه يعكـس الحقيقـة الكامنـة فـي نفسي، يكشف سرّي كما تفتض البكر، وبـين هـذا الصـمت والفوضى أجد في الكتابة خيط نجـاة، أرى نفسـي وأسـتعيد البوصلة الضائعة في عتمة المسار الطويل.

إذن يا قلمي هذا وداعٌ بيننا، وأنـا أعـدك يـا قلمـي أنـك جـزء منـي.. فأنـت وأنـا سـويّان: إمـا أن نلـوذ مـن ينبـوع الملذات معًا، وإما أن نتركها ونذهب إلـى حـال سـبيلنا كـلٌ منا إلى مسعاه، أما هذا المـارد الأسـود فـلا أجـد مـا أطلـب منه سوى أن أوثره عليك؛ فلا أخفـي عليـك يـا صـديقي أن هذا اللون الـداكن يُشـعل فـيّ شـعورًا غريبًـا، يـوازي اللـذة التي منحتني إياها أنت منذ سنوات، أمـا المـارد يفعـل ذلـك بعد أن أخذ مني هذا الحزن وطرًا.

إذا اقترب مني البؤس أسرع إلى المارد الأسود، أشد رقبته بأصابعي، أجده منتصبًا كما أنت إلا أنه لا يلين يظل شامخًا في وجه الليل الطويل، بعد أن يفرغ أجد له بديلاً، أما أنت أيها القلم الوفي فلا ملاذ لي منك سوى الالتصاق بك حتى نفارق دار الفناء؛ فاشفعا لي إن كنتُ يومًا أمام جبروت الله وجلاله.

لقد تجرعت من العذاب ألوانًا فخذا بيدي إلى النور فوالله ما جحيم دار الفناء إلا علقمًا، لا تكونا عليّ بل كونا معي؛ لنخرج سالمين، ولننعم بنعيم لا يفنى؛ أما الجحيم فقد اكتفينا بما جرعناه، كن أيها المارد الأسود معينًا على الليل؛ كي لا نطيل السمر في وجه الليل المظلم.

ظللت يقظا، أتأمل الليل طويل، أفكر في مهمّة الأبوين، في معنى الحياة، في أثرهما على نفوسنا منذ الصغر، كم من الشبان تنكّبوا طريقًا محفوفًا بالخطأ؛ ليس لأنهم اختاروا الضلال، بل لأنهم نشأوا في الفراغ بين الاستقرار والضياع حيث غياب الحنان والرقابة وفكرة الانشغال، أولئك الأطفال الذين يُتركون للحرمان قربانًا، يصبحون كأشرعة زورق في عاصفةٍ هوجاء، تعصف بهم الرياح لا يعرفون لليوم غايةً ولا للغد وعدًا.

تذكرت دِنى، وكم كان غياب الأمان يثقل كاهلها في شرخ الصبى، وكم عمل ذلك في رجرجة قراراتها آنفًا، وكم جعلها تبحث عن دفءٍ مزعوم، عن حضور ينقصها في بيتٍ كان ينبغي أن يكون ملاذًا.

أفكر في نفسي، أنا "إياد"، كيف تمكنت سلطة الفراغ من كبح طموحي، كيف جعلت مني كائنًا ضائعًا بين رغباتي الغامضة لولا بصيص من النور، لولا بعض المحبة الممنوحة والمتخفية في ثنايا الحنان المزعوم.

وها أنا أسأل: هل ما ينساق إليه الشاب من رغبات أو شهوات هو بالضرورة فطرة، أم أنه نتاج الحرمان والغياب الطويل للأمان؟

هل يمكن لأي قلب أن يستقيم إذا غاب من يوجهه، إذا لم يُعطه أحدٌ دفء الحنان وفقه الإرشاد؟

وما مدى قدرة الحب الأبوي على صوغ شخصيةٍ صالحةٍ، متزنةٍ، تقوى على مجابهة تكتلات الحياة؟

كل سؤال من هذه الأسئلة يثقل كاهلي، وكل جواب محتمل يبدو لي ناقصًا؛ لأن التجربة الحقيقية لا تُقاس بالكلمات، بل بالآثار العميقة التي تتركها الأيام مستحاثات على أرواحنا، وفي هذا الخلو بين الحنين والليل البهيم أفكر في كل طفل ترك وحيدًا؛ ليواجه الحياة، وأتساءل عن مصير أولئك الذين يُترك لهم الحرمان مطلقًا، وهل يمكن لشاب أن يبني جدارًا متينًا لرغبات نفسه، ويعثر على سعادته في عالم يفتقر إلى من يحتضنه؟

إن مهمة الأبوين ليست إنجاب مزيدًا من البؤساء إلى هذا العالم البئيس، بل هي صوغ شخصية الطفل، رسم معالم الوعي والضمير، تمكين النفس من التوازن بين

الشهوة والفكر، بين الرغبة والفضيلة؛ فإذا غاب الحنان، وإذا غاب الإشراف فليس بعيدًا أن تتطاير الأرواح كما تتطاير أوراق خريف ضائعة تبحث عن الدفء في أماكن خاطئة؛ فتصبح طعامًا سائغًا في دورة الأرض الخصبة.

أنت أيها القلم الأسود، نعم أنت، وداعًا، ووداعًا أيها الشقي، سأرحل إلى حلم أسرَ الهوى، إلى عالم يتهاوى فيه الكلام ويُحرق فيه الشوق، هناك حديث كان ينبغي أن يُقال ولو لم يُقال لخيم بيننا صمتٌ قاتل، صمت يلفّ الروح كقيد من حديد.

أشكرك، أيها المارد الأسود على ثباتك؛ فقد وجدت فيك نطقي وهمسي، أنت صمتي المتكلم، أنطقت الأخرس الذي دفنته طويلًا، وأحلام دنى ولينا مختفية تحت الشجرة في تلك الزوايا التي لا يصل إليها محراث ولا وسيلة تنبشها.

وأنا، بين عجب الزمان ومهزلة الوجود، أتساءل:

هل كل ما نسميه فرحًا مجرد وهم؟

وهل ما اختبأ في الصمت كان أكثر صدقًا من أي حديث؟

ما قيمة الكلمات أمام خيوط الحنين الممتدة بين حاضرنا وغدنا المجهول؟

سأرحل أيها الصديقان فأنا مدين لكما لقد كتبت بأبيض أحدكما في ليالي أنس دافئة، وأسود الآخر بعد عقدين ونيف، وهكذا كانت النهاية يا صاحباي... بالأبيض والأسود.. على طول المسار المعتم.

وإنني أتساءل، كما يتساءل شوبنهاور:

هل ما بين الأبيض والأسود سوى صورة من صور الألم الذي يرافقنا منذ البدء، أم أن هذا التباين بينهما هو الذي يضفي على الحياة معناها؟

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، من هنا

تصفح إصدارات أخرى عبر مكتبة دار بسمة، من هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6
استهلال 9
الفصل الأول 11
الفصل الثاني 36
الفصل الثالث 61
الفصل الرابع 83
الفصل الخامس 107
الفصل السادس 128
موت الجد 160
الفصل السابع 163
الفصل الثامن 195
الفصل التاسع 227
النهاية 264

عبدالله الرحماني

بالأبيض والأسود

(زهرة البؤس)

"وجدت نفسي عند هذا القلم، لا يستمع لترهاتنا "الروتينية" إلا الورقة البيضاء المنبطحة تحت أقدام القلم، بأناملي أمسح السائل الزئبقي عليها، فأجد له معنى، إن ما يخلفه القلم على وجه الورق شفاء، إنه شفاء لداء البؤس، لولا بياض الورقة وسواد القلم ما برئت من البؤس ... "